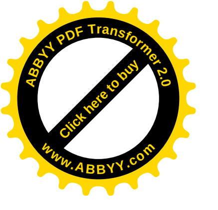
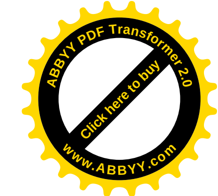






سيرة الإسلام

اعداد

دكتور / بدر عبد الحميد هميسه

في ٢٥ – ١١ – ٢٠٠٨ م





جغرافية بلاد العرب

بـلاد العرب شبه جزيرة، تقع جنوبى غربى قارة آسيا، يحدها البحر الأحـمر مـن الغـرب، والخـليـج العربـى من الشرق، و بحر العرب و المحيط الهندى من الجنوب، وبـاديـة الشـام من الشمـال، و تبلغ مسـاحتها أكثر من مليونى كيلو متر مربع، و يقسمها الجغرافيون إلى خمسة أقاليم رئيسية هى - إقـليم تِهـامَة: وهو شريط سـاحـلى يطـل عـلى البحر الأحمر، وسمى بتهامة لارتفاع درجة حرارته، وركود هوائه - إقـليم الحجـاز: ويقع شرقى تهامة، ويمتد من الشام شمالاً إلى اليمن جنوبًا، وتقع عـليه سلسلة جبال السراة، وسُمِّى بالحجاز؛ لأنه يحجز بين تهـامة فى الغرب ونجد فى الشرق. وتقع فى هذا الإقليم مكة المكرمة، والمدينة المنورة - إقـليـم نـجد: ويـقع شـرقـى الحـجـاز ويـمتـد مـن صحراء بـاديـة السمـاوة شمـالاً حتـى قرب حدود اليمن جنوبًا، وسُمِّى نجدًا؛ لارتفاع أرضه - إقـليم العروض: وهو الجزء الشرقـى من شبه الجزيرة العربية، ويطل على الخليج العربى - إقليم اليمن : و هو الجزء الجنوبى الغربى من شبه الجزيرة العربية .وهـذه المـسـاحـة الكبيرة ذات طبيعـة صحراويـة، لا يجرى فيهـا نهر واحـد، ولا تـسقـط الأمـطـار إلا نـادرًا، بـاستثنـاء إقـليم اليمن الذى تسقط فيه بعض الأمطـار الموسميـة، وبخـاصـة فـى فصل الصيف، مما يسَّر لأهـلهـا حيـاة مستقرة نتيجة اشتغالهم بالزراعة، وساعدهم على إقـامـة حكومات منظمة، وإقامة حضارة راقية، وقد اشتهر هذا الإقليم باليمن السعيد أمـا بقيـة أجزاء شبه الجزيرة العربيـة فقد قلَّت فيها الزراعة أو كادت تنعدم؛ لندرة المياه عدا بعض الواحات التى بها عيون للمياه، ساعدت عـلى نمو الحشـائش التـى ترعـاهـا المـاشية، وزراعة بعض المحاصيل كالشعير والقمح.

مكة المكرمة

تقع مكـة المكرمـة فى إقليم الحجاز، شرقى مدينة جدة بنحو سـبعـين كيـلو مترًا، وترتبط نشـأتهـا بقصـة إبراهيم الخـليـل وابنه إسمـاعيـل عـليهمـا السلام، حيث أمر الله تعالى نبيَّه إبراهيم أن يذهب بـابنه إسمـاعيـل إلى الوادى الذى نشـأت فيه مكـة؛ وأن يـسكـنه فـيه، فـامتثـل إبراهيم لأمر الله، وارتحـل إلى ذلك الوادى و كـان قـفرًا ليـس بـه زرع أو مـاء، خـاليًا من السكـان، وترك زوجه هـاجر وابنهـا الطفـل إسماعيل، وفى هذا يقول الله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام :ربنا إنى أسكنت من ذريتى بوادٍ غير ذى زرعٍ عند بيتك المحرم . إبراهيم : ٣٧ .

وإكرامًا لإسمـاعيـل فجَّر الله – تعالى – بئر زمزم، بعد أن يئست أمه هـاجـر مـن وجـود المـاء، وهـى تسعـى بـاحثـة عنه بين صخرتـى الصفا و المروة، وقد أصبح السعى بينهما ركنًا من أركان الحج كـان وجود المـاء فـى هذا المكـان عجبًا، فجذب القبـائـل التـى كانت تـسكـن بـالقرب منه، وهـى قبـائـل جُرهم فجـاءوا إلى هـاجر، و طـلبوا منهـا السمـاح لهم بـأن ينتفعوا بماء زمزم، فأذنت لهم ورحَّبت بهم؛ ليـؤنسوا وحدتهـا هـى و ابنهـا، وبدءوا يقيمون بيوتهم حول بئر زمـزم، ومـن هـنـا كـانت نشـأة مكـة المكرمـة، وفيهـا عـاشت هـاجر وابنهـا إسمـاعيـل بين قبـائـل جرهم، ولـما كبر تزوج منهم، وأنجب أولاده الذين هم أجداد العرب المستعربة. واتسعت مكـة شيئًا فشيئًا، وزحف إليهـا العمران، وذاعت شهرتهـا بـين المدن، بعد أن أمر الله – تعـالى– إبراهيم – عـليه السـلام – فـى إحدى زيـاراته لابنه إسمـاعيـل ببناء الكعبة المشرفة، فأصبحت مكة مكانًا مقدسًا، وزادها الله تشريفًا بهذا البناء والكعبـة التـى بنـاها نبى الله إبراهيم – عليه السلام – بناء مربع الشـكـل تقريبًا، يبـلغ ارتفـاعه نحو خمسـة عشر مترًا، وعرض جداريه الشمـالى والجنوبـى نحو عشرة أمتـار، والشرقى والغربى اثنا عشر مترًا ويقع بـاب الكعبـة فـى الجدار الشرقـى، وفى الطرف الجنوبى منه يقع الحجر الأسود، وهـى منذ بنـائهـا مثابة للناس وأمن، كما أخبر بـذلك الله – تعـالى – فـى القرآن

ريم، وظلت قبائل جُرهُم تقوم على خدمة الكعبة، و رعاية حجاجها، إلى أن ضعفت، فحلَّ مكانها فى تلك المه قبائل خزاعة، التى ضعفت هى الأخرى بعد فترة، فخلفتها قبيلة قريش بزعامة قصى بن كلاب الجد الرابع للنبي صلى الله عليه وسلم فأسس دار الندوة فى مكة، وهى أشبه ما يكون ببرلمان صغير، يتشاور فيه زعماء قريش حول شئونها، و نظَّم قُصىٌّ بن كلاب السقاية، وهى جلب الماء للحجاج من آبار بعيدة، بعد أن ردمت قبائل جُرهُم بئر زمزم عندما غلبتها خزاعة على أمرها وتركت مكة، واهتم بالسدانة، و بالرفادة و هى إطعام الحجاج، و بالحجابة وهى خدمة الكعبة وتولى مفاتيحها، وباللواء وهو راية الحرب، وكان ذلك كله فى يد قصى، ولكن بعد وفاته قُسمت هذه المناصب بين أحفاده.

أحوال العرب قبل الإسلام

يُقسم علماء الأنساب العرب إلى -عرب بائدة؛ وهم الذين هلكوا ولم يبق من نسلهم أحد، مثل: عاد، و ثمود و طُسُم، و غيرهم

-عرب باقية، وهم قسمان

أ – عرب عاربة، وهم أهل اليمن الذين ينسبون إلى يعرب ابن قحطان

ب – وعرب مستعربة، وهم الذين ينسبون إلى عدنان الذى يتصل نسبه بإسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، وسُمُّوا مستعربة؛ لأن أباهم غير عربى وهو إسماعيل – عليه السلام – وأمهم عربية من جُرهُم.

أحوال العرب السياسية

عرفت بلاد العرب الحياة السياسية المنظمة قبل الإسلام، وبخاصة فى اليمن، حيث الزراعة والاستقرار، فقامت فيها دول كثيرة متعاقبة،مثل: دولة معين، ودولة قُتبان، ودولة سبأ التى سُميت بها سورة من سور القرآن الكريم، ودولة حمير التى ظلت قائمة حتى احتلتها الحبشة فى بداية القرن السادس الميلادى، ثم استولى عليها الفرس، وظلت كذلك إلى أن حررها الإسلام من الاحتلال الفارسى، و أسلم أهلهاوقامت فى اليمن حضارة عظيمة، فاشتهرت ببناء السدود كسد مأرب، لخزن مياه الأمطار لاستخدامها فى الزراعة، وازدهرت فيها التجارة؛ بسبب موقعها الجغرافى المتميز على المدخل الجنوبى للبحر الأحمر؛ مما جعلها مركزًا تجاريًّا كبيرًا بين الشرق الأقصى و شرقى إفريقيا بل وأوروباوبعد انهيار سد مأرب وتدهور الحياة الاقتصادية هاجر العرب من اليمن إلى أطراف شبه الجزيرة العربية فى الشمال، وأقاموا إمارات عربية، ظلت قائمة إلى ما بعد ظهور الإسلام، فنشأت إمارة المناذرة فى العراق، وكانت عاصمتها مدينة الحيرة، وإمارة الغساسنة فى جنوب الشام. وكانت هناك إمارات عربية أخرى فى شرقى شبه الجزيرة العربية، فى البحرين و اليمن، و فى جنوبها الشرقى فى عمان، و كلها أسلمت فى عهد الرسول صلى الله عليه و سلم، و أصبحت جزءاً من الدولة الإسلامية وأما بقية شبه الجزيرة فكان يعيش أهلها حياة قبلية، حيث يحكم كل قبيلة شيخ، هو صاحب الكلمة النافذة، والأمر والنهى فيها.




الحياة الاجتماعية

اختــلفت الحيــاة الاجتماعية فى بلاد العرب من مكان إلى آخر باختلاف حــيــاة الحضر و البدو، فــالأجزاء الحضريــة التــى تتمتع بحيــاة مستقرة و بنظم سيــاسية يُقسم المجتمع فيها إلى طبقات: طبقة الملوك والحكام والأمراء، وهم يمثــلون قمــة الهرم الاجتمــاعــى، وينعمون بحياة الترف والنعيم، تــليهم طبقــة التجــار والأثريــاء، ثم تــأتــى طبقــة الفقراء فــى أدنى الهرم الاجتماعى أما البدو فيتألفون من طبقتين -طــبقـــة الســـــادة، وهـــم فـــــى الواقع كــل العرب البدو، سواء أكــانوا أغــنيـــــاء أم فــقراء، فـــالفــقر لم يــكن يحد من حريــة الإنســان العربــى و سيادته، فمهما يكن فقيرًا فهو مالك لزمام نفسه، معتز بحريته -وطبقــة العبيد والخدم، وكــان يمتــلكهم الأغنيــاء، وعــلى عــاتق هذه الطبقة قامت الحياة الاقتصادية

واتــســمــت حــيــــاة البداوة بعــادات بعضهــا جميــل محمود، أبقــى عــليه الإســلام و شجَّعه، كــالكرم والنجدة وإغــاثــة المــلهوف، وبعضهــا الآخر قبيح مرذول حــاربه الإســلام حتــى قضى عليه، كوأد البنات خوفًا من العار، وهذه العادة كانت – فى واقع الأمر – فى قبائل معينة ولا تمثل نظرة العرب كــلهم إلى المرأة، لأنهــا كانت عندهم محل اعتزاز وتقدير بصفة عامة.

الحياة الدينية

عــرفت بــلاد العرب التوحيد قبــل الإســلام بزمن طويــل، فقد نزلت فيهــا رســالات سمــاويــة،كرســالة هود– عليه السلام – فى جنوبى شرقى الجــزيــرة العــربيــة، ورســالة صــالح – عــليه الســلام – فــى شمــاليهــا الغربــى، كمــا عرفوا التوحيد من رســالة إسمــاعيــل –عليه السلام –، و لكن بمرور الزمن نسوا هذه الرســالات، وتحولوا إلى الوثنيــة وعبادة الأصنام، وأصبح لهم آلهة كثيرة مثل: هُبل و اللات و العزى وعلى الرغم من انتشار عبادة الأصنام انتشارًا واسعًا فى بلاد العرب، فــــإن هــنـــــاك مــــا يدلُّ عــلى أنهم لم يكونوا يعتقدون اعتقــادًا حقيقيّاً فــيهــــا، فــيحكــى القرآن الكريم عــلى لســانهم قولهم [مــا نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى] الزمر : ٣

وكـــــان منهم من رفض عبــادة الأصنــام رفضًا قــاطعًا، وهم الذين سُمُّوا بــالحنفــاء، كورقة بن نوفل، و زيد بن عمرو بن نُفيل، وعثمان بن الحــويــرث، و عــبيـــد الله بـــن جـــحش، وقس بن ســاعدة الإيــادى، و هــؤلاء لم تقبــل أذهــانهم عبادة الأصنام، فاعتنق بعضهم المسيحية، و ترقب بعضهم الآخر ظهور الدين الحق وإذا كــانت الوثنيــة قد ســادت بــلاد العرب، فــإن اليهوديــة و المسيحية عــرفــت طريقهــا إليهــا فتركزت المسيحيــة فــى نجران التــى كــانت وقتئذٍ من أرض اليمن، فى حين استقرت اليهودية شمال الحجاز، فى يثرب و خيبر، و وادى القرى و تيماء ومن العجيب أن اليهوديــة والنصرانيــة لم تنتشرا على نطاق واسع فى بـــــلاد العــرب، ولعـــــل ذلك راجــع إلى أن اليهوديــة تُعدُّ ديــانــة مغــلقــة، فــأهــلها كانوا يعتبرونها ديانة خاصة بهم، فلم يدعوا أحدًا إليها، ولم يــرحِّبوا بــاعتنــاق غيرهم لهــا، أمــا المسيحيــة، فعــلى الرغم من أنهــا ديــانــة تبشيريــة، وأهــلهــا يرغبون فــى نشرهــا فى العالم فإنه يبدو أنهــا حين و صــلت إلى بــلاد العرب كــانت قد بــلغت درجة من التعقيدات و الخلافات لم تستسغها عقول العرب.

الحياة الثقافية

كــان العرب قبــل الإســلام أمــة أميــة، لا تعرف القراءة والكتابة إلا فى نطــاق ضيق، ولم يكن الذين يعرفونهــا فــى مكــة مثلاً يزيدون على عشرين شخصًا، ومع ذلك فــإنهم امتــلكوا قدرًا لا بأس به من المعرفة، و اتصــلوا بالعالم الخارجى من خلال

علاقتهم التجارية، فعرفوا الثقافة الفــارسيـــة عن طريق إمـــارة الحيرة العربيـــة، والثقافة اليونانية عن طريق الإمارات العربية الشام واكتسب العرب أيضًا قدرًا كبيرًا من المعارف العلمية بالخبرة والتجربة و بدافع الحـــاجة كالمعلومات الفلكية والجغرافية، دفعهم إلى معرفتهاتنقلاتهم الكثيرة، وارتحالهم من مكان إلى آخر، وحاجتهم إلى معرفة مواسم نزول الأمطار وهبوب الرياح وتفوق العرب عـــلى غيرهم من الأمم فـــى مجـــال علم الأنساب، وذلك لاعـــتزازهـــم بـــانتســـابهم إلى قبـــائـــلهم، وبـــلغ من شدة اهتمـــامهم بعـــلم الأنساب أن اعتنوا بأنساب الخيل، غير مكتفين بأنساب البشر أمـــا الميدان الثقـــافـــى الذى برع فيه العرب فهو البـــلاغـــة والفصـــاحـــة، فـــالعربى كان فصيحًا بطبعه، بليغًا بفطرته، ودليل ذلك فهمهم للقرآن الكريم، الذى نزل بلغتهم وهو ذروة البلاغة والفصاحة وبـــرع العـــرب فـــــى ميدان الشعر براعـــة واضحـــة، فهو ديوان حيـــاتهم، و شـــعراؤهـــم يُعـــدُّون بـــالمئـــات، والشعر العربـــى إلى جـــانب كونه لونًا راقـــيًا من ألوان الأدب يُعدُّ بعد القرآن الكريم مصدرًا من مصـــادر معرفـــة الحياة العربية بكل خصائصها ومظاهرها وكمـــا تفوَّق العرب فـــى الشعر تفوقوا فـــى الخطـــابـــة، وكانوا يقيمون الأسواق الأدبيـــة التـــى تشبه مهرجـــانـــات المســـابقات الأدبية فى الوقت الحـــاضر، و من أشهر تـــلك الأسواق سوق عكـــاظ، وكانت تعقد فيها لجـــان للتحكيم بين الشعراء والخطباء، و القصيدة أو الخطبة التى يفوز صـــاحبهـــا يتناقلها الناس ويحفظونها، ويشيدون بقائلها، و من القصائد الرائـــعـــــة مـــــا كـــــان يـــعـــلق فـــى الكعبـــة، وهـــى التـــى عرفت بـــاسم المعلقات، مثل معلقة امرئ القيس وزهير بن أبى سلمى.

نسب الرسول صلى الله عليه وسلم

الرسول هو محمد بن عبد الله بن عبد المطـــلب بن هاشم بن عبد مناف، يـــتصـــل نسبه بـــإسمـــاعيـــل بن إبراهيم – عـــليهمـــا الســـلام –وكـــان جده عـــبد المـــطــــــلب قد نذر وهو يعيد حفر بئر زمزم – بنـــاءً عـــلى رؤيـــة رآهـــــا – أنـــه إن رزقـــه الله بـــعشـــرة مـــن الأولاد ليـــذبـــحن أحدهم قربـــانًا للآلهـــــة، فـــــلمـــــا تحقَّق له ذلك أراد أن يفـــى بنذره، فضرب الأقداح عند الكـــعبـــة كمـــا كـــانت عـــادتهم عـــلى أولاده جميعًا، ومن يخرج عـــليه الســـهم يـــكن هـــو الذى ارتضته الآلهـــة قربـــانًا لهـــا، فخرج السهم عـــلى عبد الله فعزم عبد المطلب على ذبحه.ولـما ذاع خبر عبد المطـــلب مع ابنه فـــى مكـــة فزع أهـــلها من هذا الحـــدث، وذهـــبوا إليـــه يـــثنـــونه عن أمره، فـــلمَّا لم يجدوا منه استجـــابـــة لرجـــائهم، اقترحوا عـــليه الذهـــاب إلى عرَّافـــة مشهورة، لعـــلهم يجدون عندها لهذه المشكلة حلاً، فوافقهم على ذلك.فـــــلمـــــا ذهبوا إلى العرَّافـــة وقصُّوا عـــليهـــا مـــا حدث، اقترحت عـــليهم أن يـــضربوا القداح عند آلهتهم، عـــلى عبد الله و عـــلى عشرة من الإبـــل، فـــإن خرجت على عبد الله زادوا عشرة من الإبل، حتى ترضى الآلهة وتخرج القداح عـــلى الإبل، ففعل ذلك عبد المطلب، حتى وصل العدد إلى مائة، وعندئذٍ خرج السهم مشيرًا إلى الإبل، ففرح عبد المطلب، وفـــرحت معه مكـــة، ونحر الإبـــل، وأطعم النـــاس ابتهـــاجًا بنجـــاة ابنه الحبيب من الذبح.

زواج عبد الله من آمنة بنت وهب

بعد نجاة عبد الله بن عبد المطلب من الذبح زوَّجه من آمنة ابنة وهب بن عبد مناف بن زُهرة.وبعد أيـــام من العرس خرج عبد الله فـــى رحـــلة تجـــاريـــة إلى الشـــام، فخرج مع قـــافلة قرشية وباع واشترى، وفى عودته مر بيثرب؛ ليزور أخوال أبيه من بنـــى النجار، لكنه مرض فى أثناء زيارته، فلما بلغ عبد المطـــلب خبر مرض ابنه، أرســـل على الفور أكبر أبنائه الحارث بن عبد المطلب إلى يثرب ليعود بأخيه، لكن عبد الله تُوفِّى قبل أن يـــصـــل أخوه إلى يثرب، فحزن عبد المطـــلب حزنًا شديدًا عـــلى موت ابنه عبد الله الذى لم يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره، و لم يمضِ على زواجه سوى شهور قليلة.ولـمـــا خـــفَّت مـــوجـــــة الحزن

على آمنة، بدأت تحس بجنين يتحرك في أحشائها، فتعلَّق به أملُها، عسى أن يعوضها فقد زوجها الحبيب، وأخبرت عبد المطلب بحملها، ففرح لذلك فرحًا شديدًا، وامتلأ قلبه أملاً ورجاءً في أن يأتي هذا الحمل بولد يعوضه عن ابنه الفقيد.

حادثة الفيل

بعد أن حكم أبرهة اليمن تملكته الغيرة من الكعبة المشرفة، وأراد أن يصرف العرب عن زيارتها، فبنى كنيسة ضخمة بالغة الروعة، تُسمَّى القُلَّيس، وساق أهل اليمن إلى التوجه إليها والتعبد فيها، لكنه لم يفلح في ذلك، وزاد من غضبه أن أحد الأعراب عبث بالكنيسة وقذَّرها، فأقسم أبرهة ليهدمن الكعبة، ويطأن مكة، وجهَّز لذلك جيشًا جرارًا، تصاحبه الفيلة، وفي مقدمتها فيل عظيم، ذو شهرة خاصة عندهم.وحينما علمت العرب بنية أبرهة تصدَّوا له، لكنهم لم يفلحوا في وقف زحفه، حتى إذا بلغ جيش أبرهة المغمَّس – وهو مكان بين الطائف ومكة– ساق إليه أموال تهامة من قريش وغيرها، وكان فيها مائتا بعير لعبد المطلب بن هاشم، فهمَّت قريش وقبائل العرب بقتال أبرهة، ولكنهم وجدوا أنفسهم لا طاقة لهم بحربه، فتفرقوا عنه دون قتال.أرسل أبرهة إلى عبد المطلب يُبلغه أنه لم يأتِ لحربهم، وإنما جاء لهدم البيت، فإن تركوه وما أراد فلا حاجة له في دمائهم، فذهب عبد المطلب إليه،فلما دخل نزل أبرهة من سريره، وجلس على البساط، وأجلس عبد المطلب إلى جانبه، و أكرمه وأجلَّه، فطلب عبد المطلب منه أن يرد عليه إبله التي أخذوها، فقال أبرهة: أعجبتني حين رأيتك، وزهدتُ فيك حين كلمتني، تترك بيتًا هو دينك و دين آبائك، جئتُ لأهدمه، وتكلمني في مائتي بعير أصبتها لك؟فقال: عبد المطلب: إني رب الإبل أي صاحبها وإن للبيت ربًا سيحميه. قال أبرهة: ما كان ليمتنع مني، فرد عليه عبد المطلب: أنت وذاك، ثم رد أبرهة الإبل لعبد المطلب.أمر عبد المطلب قريشًا بالخروج من مكة، والاحتماء في شعاب الجبال، وتوجه هو إلى باب الكعبة، وتعلَّق به مع نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه، وانطلق جيش أبرهة نحو مكة، وحينما اقترب منها برك الفيل الأكبر الذي يتقدم الجيش رافضًا الدخول، وتعبوا في إجباره على اقتحام مكة، وكانوا عندما يوجهونه إلى جهة غير مكة ينهض ويهرول.ثم شاء الله أن يهلك أبرهة وجيشه، فأرسل عليهم جماعات من الطير، أخذت ترميهم بحجارة، فقضت عليهم جميعًا، وتساقطوا كأوراق الشجر الجافة الممزَّقة، كما حكى ذلك القرآن الكريم: [*ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ألم يجعل كيدهم في تضليل و أرسل عليهم طيرًا أبابيل ترميهم بحجارةٍ من سجيل فجعلهم كعصف مأكول*]سورة الفيل.

مولد النبي صلى الله عليه وسلم

وفي يوم الاثنين الموافق ١٢ من شهر ربيع الأول سنة ٥٧٠م عام الفيل، ولدت آمنة وليدها، يتلألأ النور من وجهه الكريم، أكحل أدعج مختونًا، يرنو ببصره إلى الأفق، ويشير بسبابته إلى السماء، فهرولت قابلته، وهي أم عبد الرحمن بن عوف إلى جده عبد المطلب تزف إليه البشرى، وتنقل إليه ذلك الخبر السعيد، فكاد الرجل الوقور يطير من الفرحة، و فرح الهاشميون جميعًا، حتى إن عمه أبا لهب أعتق الجارية ثويبة التي أبلغته الخبر، وكانت أول من أرضعت خير البشر.سمَّى عبد المطلب حفيده محمدًا، وهو اسم لم يكن مألوفًا أو منتشرًا في بلاد العرب، ولما سُئل عن ذلك، قال: رجوت أن يكون محمودًا في الأرض وفي السماء.

طفولته وصباه

في اليوم الســابع لميلاد النبي صلى الله عليه وسلم أمر جده بجزور فــنحــرت، وأقــام حفــلا دعــا إليه كبــار رجــال قريش احتفــاءً بهذا الوليد الكريم، وانتظرت آمنة المرضعات اللائى كن يأتين من البادية إلى مكــة، ليــأخذن الأطفــال إلى ديــارهن لإرضــاعهم بأجر، وكانت عــــادة أشـــراف مــكـــــة ألا تــرضـــع الأم أطفــالهــا، مفضـــلين أن تكون المرضعــة من البــاديــة؛ لتــأخذ الطفـــل معهــا، حيث يعيش فـــي جو ملائم لنموه، من سمـــاء صـــافية، وشمس مشرقة، وهواء نقى، وكانت هناك قبائل مشهورة بهذا العمل مثل بنى سعد.وكــــان محمد من نصيب واحدة منهن تُدعَى حــليمـــة السعديـــة لم تكن تـــدرى حـــين أخــذتــه أنهـــا أسعد المرضعـــات جميعًا، فقد حــلَّت عــليهـــا الخيرات، وتوالت عـــليهـــا البركـــات، بفضـــل هذا الطفل الرضيع، فسمنت أغنامها العجاف، و زادت ألبانها وبارك الله لها فى كل ما عندها.

مكث محمد عند حـــليمــة عامين، وهو موضع عطفها ورعايتها، ثم عــــادت بـــه إلى أمه، وألحت عـــليهـــا أن تدعه يعود معهـــا، ليبقـــى مدة أخرى، فوافقت آمنة وعادت به حليمة إلى خيام أهلها.

حادث شق الصدر:

بقـــى محمد عند حـــليمة السعدية بعد عودتها ثلاثة أعوام أخرى، حدثت له فـــى آخرهـــا حـــادثـــةُ شقِّ الصدر، ومـــلخصها كما ترويها أوثقمصـــادر السيرة : أن محمدًا كـــان يـــلعب أو يرعى الغنم مع أترابه من الأطفـــال، خـــلف مساكن بنى سعد فجاءه رجلان عليهما ثياب بيض، فـــأخذاه فـــأضجعــاه عـــلى الأرض، وشقا صدره وغسلاه، وأخرجا منه شيئًا، ثم أعاداه كما كان.

ولـــا رأى الأطفـــال مـــا حدث، ذهب واحد منهم إلى حـــليمة فأخبرها بمـــا رأى، فخرجت فزعـــة هي زوجهـــا أبو كبشة فوجدا محمدًا ممتقعًا لونه، فســألته حليمة عما حدث فأخبرها، فخشيت أن يكون مـــا حدث له مسٌ من الجن، وتخوفت عـــاقبـــة ذلك عـــلى الطفل، فأعادته إلى أمه، وقصت عليها ما حدث لطفلها.

موت آمنة بنت وهب:

لما بلغ "محمدا" السادسة من عمره أخذته أمه فى رحلة إلى يثرب؛ ليـــزور مـــعهـــــا قـــبر أبـــيه، ويـــرى أخوال جده عبد المطـــلب من بنـــى النجار. وفـــى طريق العودة مرضت آمنـــة واشتدَّ عليها المرض، وتُوفيت فى مكـــان يُسمـــى الأبواء بين مكـــة والمدينـــة. وهكذا شاءت إرادة الله أن يفقد محمد أمه، وهو فى هذه السن الصغيرة، وهو أشد ما يكون احتيـــاجًا إليهـــا، فتضاعف عليه اليتم، ولكن لله فى خلقه حِكم لا يعـــلمهـــا إلا هو تعـــالى، فإن كان محمدٌ قد حُرِمَ من أبويه. فإن الله هو الذى سيتولى رعايته وتعليمه.

ضم عبد المطـــلب حفيده محمدًا إلى كفـــالته؛ لأن ابنه عبد الله لم يـــترك ثـــروة كبيرة، وكـــل مـــا تركه كـــان خمســـة من الإبـــل، وبعضًا من الأغنـــام، وأم أيمن بركـــة التـــى أصبحت حـــاضنـــة محمد وراعيته بعد فقد أمه، وقد عوضته كثيرًا عن حنان الأم.

لكن كفـــالة عبد المطـــلب لمحمد لم تدم طويـــلا، إذ استمرت عامين بعد وفـــاة آمنـــة، كـــان خـــلالهمـــا نعم الأب الحنون، فحزن محمد عـــلى فقده حزنًا شديدًا، وبكاه بكاءً مرا وهو يودعه إلى مثواه الأخير.

وبـــعد وفـــــاة عـــبد المـــطـــــلب انـــتقـــــل محمد إلى كفـــالة عمه أبـــى طـــالب، ومع أنه لم يكن أكثر أعمـــامه مـــالا وأوسعهم ثراءً، بـــل كان أكـــثرهـــم أولادًا وأثـــقـــــلهـــم مـــــؤونــــــة؛ فـــإنه كـــان شديد العطف عـــليه، و الرعاية له، فضمه إلى عياله، وكان يفضله عليهم فى كل شيء.

اشتغاله برعي الغنم:

لم يـــرض مـــحمدٌ أن يكون عـــالة عـــلى عمّه، وبخـــاصـــة أنه يرى ضيق ذات يده، فـــأراد أن يعمـــل ليعول نفسه، ويكسب قوته، ويســـاعد عمه إن أمكن ذلك، فـــاشتغل برعي الأغنام، وهو عمل يناسب سنه، وهذه كـــانت حرفـــة الأنبياء من قبله،



قول النبي صلى الله عليه وسلم: ما من نبى إلا ورعى الغنم، قيل: وأنت يا رسول الله ؟ قال: وأنا.

رحلته الأولى إلى الشام:

وجد محمد فى عمه أبى طالب عطفًا وحنانًا عوَّضه عن فقد جدِّه، فكان يؤثره على أولاده، ولا يكاد يردُّ له طلبًا، فلما رغب محمد فى أن يصحب عمه فى رحلة إلى الشام، أجابه إلى ذلك، رغم أنه كان يخشى عليه من طول الطريق، ومشقة السفر، وهو لم يزل غلامًا صغيرًا لم يتجاوز الثانية عشرة من عمره.

انطلق محمد مع عمه فى تلك الرحلة إلى الشام، وهناك حدثت له قصة عجيبة لفتت أنظار القافلة كلها، لكنهم لم يستطيعوا لها تفسيرًا، وذلك أن راهبًا نصرانيا، يدعى بحيرا كان يتعبَّد فى صومعته فى بادية الشام، على طريق القوافل، ولم يكن يحفل بأحدٍ يمرُّ عليه، لكنه فى هذه المرة نزل من صومعته لما رأى القافلة القرشية وذهب إليهم، ودعاهم إلى طعام، وطلب منهم أن يحضروا جميعًا ولا يتركوا أحدًا يتخلف.

ولما حضر محمد مع القوم سأل الراهبُ أبا طالب: من يكون منك هذا الغلام ؟ فقال: ابني، فقال له: ما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حيا، فقال: ابن أخي، قال: صدقت. ثم رأى خاتم النبوة على كتف النبي صلى الله عليه وسلم، وقال لأبي طالب: ارجع بابن أخيك هذا فسوف يكون له شأن عظيم، و أحذر عليه اليهود، فلو عرفوا منه الذي أعرف ليمسنه منهم شر. وقعت كلمات الراهب من أبى طالب موقعًا جميلا، فشكر الراهب على هذه النصيحة الغالية التي لا تصدر إلا عن رجلٍ صالح، وعاد بابن أخيه إلى مكة.

رحلته الثانية إلى الشام فى تجارة خديجة:

ذهب محمد هذه المرة إلى الشام فى مهمة تجارية، لا للتنزه أو الزيارة كما كان فى الأولى، ذلك أن أبا طالب رأى ابن أخيه قد بلغ مرحلة الشباب، ولابد له من أن يتزوَّج ويعول أسرة، ولكن من أين لمحمد بالمال؟ فقال لابن أخيه بعد أن أحسن له التدبير: يا ابن أخي أنا رجل لا مال لى، وقد اشتدَّ الزمانُ علينا، و قد بلغني أن خديجة بنت خويلد استأجرت فلانًا ببكرين أى جملين صغيرين ولسنا نرضى لك بمثل ما أعطته فهل لك أن أكلمها ؟ قال محمد ما أحببتَ يا عمى.

ويكشف هذا الحوار القصير الظروف المالية الصعبة التي كان يمر بها أبو طالب، لكن ذلك لم يجعله يضيق بابن أخيه، وإنما خاطبه فى رفق و شاوره قبل أن يفاتحه فى أمر عمله مع خديجة، وفى الوقت نفسه نلمس أن محمدًا صلى الله عليه وسلم كان يشعر بما يعانيه عمه، فلم يملك إلا أن يقول له: ما أحببتَ يا عمى.

توجه أبو طالب إلى خديجة وقال لها: هل لك يا خديجة أن تستأجري محمدًا ؟ فقد بلغنا أنك استأجرت فلانًا ببكرين، ولسنا نرضى لمحمد دون أربعة. فأجابت خديجة بلهجة تحمل الوداد و الاحترام للشيخ الوقور: لو سألت ذلك لبعيد بغيض فعلنا، فكيف وقد سألتَه لقريب حبيب، خرج محمد فى تجارة خديجة يصحبه غلامها ميسرة وكان صاحب خبرة فى التجارة ومعرفة بأصولها، أثيرًا لديها، تأتمنه على مالها و تجارتها، وكانت هذه الرحلة ناجحة وموفقة كل التوفيق، وربحت أكثر من أية مرة سابقة.

وفى طريق العودة اقترح ميسرة على محمد أن يسبقه إلى مكة؛ ليكون أول من يبشر خديجة بعودتهما سالمين و بنجاح تجارتها، وعندما بلغ خديجة الأمر سُرَّت أيما سرور، وأعجبت بما قصَّه ميسرة على سمعها من شأن محمد، من أمانة، ورقة شمائل، وسمو خلق، وازدادت إعجابًا لما سمعت محمدًا، وما لبث هذا الإعجاب أن تحول إلى تقدير ورغبة فى الزواج.

مشاركة محمد فى الحياة العامة

شارك محمد صلى الله عليه وسلم قومه فى حياتهم العامة قبل البعثة، فاشترك فى حرب الفِجَار، وهو فى نحو الخامسة عشرة من عمره، وهى حرب وقعت أحداثها فى الأشهر الحرم، ولذا سميت بحرب الفجار، وسببها أن النعمان بن المنذر أمير الحيرة اعتاد أن يرسل كل موسم قافلة تجارية إلى سوق عكاظ بالقرب من مكة المكرمة، وكان يستأجرُ لها حراسًا من القبائل القريبة من مكة، فعرض رجلان أنفسهما لهذه المهمة، أحدهما من هوازن يسمى عُروة، والآخر من كنانة يسمى البَرَّاض، فاختار النعمان عروة، فقتله البراض، فوقع القتال بين قبيلتيهما لهذا السبب، واستمر أربع سنوات وانتهى بالصلح بين المتحاربين، وقد وصف النبي صلى الله عليه وسلم مشاركته فى هذه الحرب بقوله كنت أنبل على أعمامى أى يرد إليهم نبل عدوهم إذا رموهم بها.

حلف الفضول:

وكما شارك محمد قومه فى الحرب فقد شاركهم فى السلم؛ حيث شهد حلف الفضول، الذى تكوَّن عقب حرب الفجار، وكان أول من دعا إليه عمه الزبير بن عبد المطلب؛ لنصرة المظلوم أيا كان، من أهل مكة أو من غيرهم، واجتمعت بعض بطون قريش: بنو هاشم و بنو زهرة، وبنو أسد، وبنو تيم فى دار عبد الله بن جدعان، وتعاهدوا ليكونن مع المظلوم حتى يُردَّ إليه حقه. ويصف النبي مشاركته فى هذا الحلف بقوله: لقد شهدت مع عمومتى حلفًا فى دار عبد الله بن جدعان ما أحب أن لى به حمر النعم، ولو أدعى به فى الإسلام لأجبت.

بناء الكعبة:

نزل سيل على الكعبة قبل بعثة النبي بحوالى خمسة أعوام، هدَّم جدرانها، فعزمت قريش على إعادة بنائها، و قسَّمت العمل بين بطونها، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يعمل بنفسه معهم، و يحمل الحجارة، حتى إذا ارتفع البناء نحو قامة الرجل اختلفوا فيمن يضع الحجر الأسود فى مكانه ؛ كل قبيلة تريد أن تحوز هذا الشرف دون غيرها، واشتد الخلاف بينهم حتى تداعوا إلى الحرب، ففزع أبو أمية بن المغيرة و خشى عاقبة ذلك، فأشار عليهم بأن يحتكموا إلى أول رجل يدخل عليهم، فوافقوا على ذلك

كان النبي صلى الله عليه و سلم أول داخل عليهم، فاستبشروا خيرًا، وقالوا: هذا الأمين رضينا به حكمًا، فطلب منهم أن يبسطوا ثوبًا، ثم وضع الحجر فيه،وطلب من زعماء القبائل أن يمسك كل منهم بطرف، ليتمكَّنوا من رفع الحجر إلى موضعه، ثم أخذه النبي صلى الله عليه وسلم بيده الشريفة، ووضعه فى مكانه.

زواج محمد من خديجة:

كانت خديجة بنت خويلد الأسدية امرأة شريفة، ذات حسب وجمال ومال تزوجت مرتين من قبل، و عزمت بعد موت زوجها الثانى ألاتتزوج مرة أخرى، وأن تتفرغ لإدارة ثروتها، وتنمية تجارتها.ولكنها حين اتصلت بمحمد صلى الله عليه و سلم وعمل فى تجارتها، ورأت فيه من خصال الخير أعجبت به و رغبت فى الزواج منه، و أسرَّت بذلك إلى إحدى صديقاتها المقرَّبات، فذهبت إلى محمد وسألته ما يمنعك أن تتزوج؟ قال ما بيدي ما أتزوج به قالت فإن كُفيتَ ذلك و دُعيت إلى الجمال والمال والشرف والكفاءة، ألا تجيب؟ قال فمن هى؟ قالت خديجة، فقال كيف لي بذلك؟ قالت علىَّ ذلك، فوافق على الفور، و عادت نفيسة إلى خديجة، تزفُّ إليها تلك البشرى فسُرَّت سرورًا عظيمًا.

و ذهب محمد مع أعمامه إلى بيت خديجة لإعلان الخطبة، وألقى أبو طالب خطبة قصيرة أثنى فيها على ابن أخيه، وأنه لا يعدله شاب فى قريش، فى خلقه وصدقه وأمانته، وإن كان قليل المال، فالمال عرض زائل، ثم وجَّه كلامه إلى أهل خديجة فقال: إن محمدًا له فى خديجة رغبة، ولها فيه مثل ذلك، فوافقوا على الخطبة، وأقاموا وليمة بهذه المناسبة السعيدة، وقدَّم محمد لخديجة صداقًا قدره عشرون بكرة، ثم تم الزواج، وانتقل محمد إلى بيت خديجة حيث عاش معها.

وهـكذا شـــاءت الأقــدار لهــذه الســيدة الكريمــة أن تقترن بسيد الخــلق أجــمعــين، و أن تــصبــح أول أُم للمـــــؤمــنيــن، وأن تــكون خير عون له، فكـــانت أول من آمن به وكـــانت تواسيه بمالها، كما كانت حياته معها التـــي دامت نحو خمســة وعشرين عـــامًا تمــلؤهـــا السعـــادة، ورزقه الله منهـــا بستـــة أولاد ؛ اثنين من الذكور همـــا: القاسم وعبد الله، وقد مـــاتـــا قبـــل البعثـــة، وأربع بنات، هن: زينب وقد تزوجها ابن خالتها أبـــو العــــاص بـــن الربـــيع، ورقـــيـــــة وأم كـــــلثوم وقد تزوجهمـــا عثمان بن عفان، واحدة بعد الأخرى، و فاطمة وتزوجت بعلي بن أبي طالب.

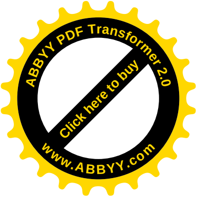
من الزواج إلى البعثة

كـــان عمر النبي ص حين تزوج السيدة خديجـــة خمسًا وعشرين سنة، و كـــان عمره حين بعثه الله بـــالرســـالة عـــلى رأس الأربعين، فمـــاذا كان يعمل فى المدة التي بين الزواج والبعثة؟إن مصادر السيرة النبوية لم تمدنا بمعلومات كثيرة عن هذه الفترة من حيـــاته، سوى أنه كـــان دائم التأمل فى الكون الفسيح، والتفكير فى القـــوة التـــــي أبـــدعـــته وأحـــكمت صنعه، وأنه رفض مـــا عـــليه قومه من عبـــادة الأصنام، وما غرقوا فيه من الفساد والمجون، فلم يسجد لصنم، و لم يحضر مجـــلس لهو وعبث، بـــل كـــان يعتكف شهرًا من كـــل سنة فى غـــار حراء، يتعبد فيه، و يجد فيه فرصـــة منـــاسبـــة للتفكر والتـــأمـــل، بعيدًا عن صخب مكـــة وضجيجهـــا. وكان شهره المفضل الذى يقضيه فى الغار هو شهر رمضان المبارك.

ويبدو أنه فى تأمله هذا كان ينشد مخرجًا للعالم مما هو فيه من شرك و وثـــنيـــــة؛ لأن مـــا بقـــى من الشرائع القديمـــة لم يكن كـــافيًا.

بـــعـــثـــة الرســـول

بدء الوحي:ظـــــل محمد صـــلي الله عليه وســـلم يتردد على غـــار حراء حتـــى شــــــارف على الأربعين من عمره، وكـــان أول مـــا بدئ به من الوحـــي الرؤيـــا الصـــادقة، كما جاء في حديث عائشة، فكان لا يري رؤيا في نومه إلا جـــاءت كفـــلق الصبح، وزادته رؤاه الصـــادقة أملا في قرب الوصول إلى الحقيقة.وبـــيـــنـــمــــــا هـــو فـــي غـــار حراء غـــارق فـــي تـــأمـــله وتدبره؛ إذ جـــاءه جبريـــل – عليه الســـلام – فـــي ليلة من ليالي رمضان، فقال: اقرأ، قـــال: مـــا أنـــا بقـــارئ، قـــال: فـــأخذنـــي فغطنـــي، حتى بـــلغ مني الجهد، ثم أرســـلنـــي، فقـــال: اقرأ ، قـــلت: مـــا أنـــا بقارئ، فأخذني فـــغطنـــي الثـــانيـــة حتى بـــلغ منـــي الجهد، ثم أرســـلنـــي، فقـــال: اقرأ، فقـــلت:مـــا أنـــا بقـــارئ، فـــأخذنـــي فغطني الثالثة، ثم أرسلني فقال اقرأ بـــاسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم سورة العـــلق: ١-٣ فرجع بهـــا رسول الله يرجف فـــؤاده، فدخـــل على خديجـــة بنت خويـــلد –رضـــي الله عنهـــا – فقـــال: زمـــلونـــي زمـــلوني فـــزمـــــلوه حتى ذهب عنه الروع، فقـــال لخديجـــة وأخبرهـــا الخبر لقد خشيت على نفســـي، فقالت خديجة: كلا والله ما يخزيك الله أبدًا، إنـــك لتـــصــــــلُ الرحم، وتحمـــل الكـــل، وتَكسِبُ المعدوم، وتَقرِي الضيف، وتعين على نوائب الحق. [صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي.طمأنت خديجة محمدًا بتلك الكلمات الصادقة والعبارات المواسية، و ذهبت به إلى ابن عمهـــا ورقة بن نوفل أحد الحنفاء العرب، وكان قـــد اعـــتـــنـــق الـــنـــصرانـــيـــة، فقـــالت له: يـــا ابن عم، اسمع من ابن أخيك، فقـــال له ورقـــة: يـــا ابن أخـــي ماذا رأيت، فأخبره رسول الله صلي الله عليه وســـلم خبر مـــا رأي، فقـــال له ورقة: هذا الناموس جبريل أمين الوحـــي الذي نزله الله على موســـي، يـــا ليتنـــي فيهـــا جَذَعًا، ليتنـــي أكون حيـــا، إذ يخرجك قومك، فقال رسول الله صلي الله عليه و سلم: أو مخرجي هم؟ قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئتَ به إلا عُودي، وإن يـــدركـــنــــــي يـــومـــك أنـــصرك نـــصرًا مـــــؤزرًا، ثم لم يـــلبث ورقة أن تُوفِّي وفتر الوحي. توقف الوحي بعد ذلك فترة من الزمن حتى شق على محمد فأحزنه ذلك، فـــجـــاءه



ريل بسورة الضحي، يقسم له ربه – وهو الذي أكرمه بما أكرمه به – ما ودعه وما قلاه.

المسلمون الأوائل:

أخذ النبي صلي الله علىه وسلم يدعو إلى الإسلام سرا، فكانت خديجة بنت خويلد رضي الله عنها – أول الناس إسلامًا وإيمانًا بالله ورسوله، ثم تلاها على بن أبي طالب –رضي الله عنه – وكان في نحو العاشرة من عمره، ثم زيد بن حارثة مولي رسول الله صلي الله عليه وسلم، ثم أسلم أبو بكر بن أبي قحافة، وكان رجلا مألفًا لقومه، محببًا سهلا، فأسلم على يديه طائفة من كبار الصحابة، أمثال: عثمان بن عفان، والزبير بن العوام، و عبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبيد الله.

ثم أسلمت بعد هؤلاء طائفة أخري، عد منهم ابن إسحاق نحو خمسة عشر فردًا ما بين رجل وامرأة، هم: أبو عبيدة بن الجراح، وأبو سلمة ابن عبد الأسد وعثمان بن مظعون، و أخواه قدامة و عبد الله، وعُبيدة بن الحارث ابن المطلب وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، وامرأته فاطمة بنت الخطاب، وأسماء وعائشة بنتا أبي بكر، وخباب بن الأرت، وعمير بن أبي وقاص، و عبد الله بن مسعود، ومسعود ابن القاري – رضي الله عنهم – وكان ذلك في مرحلة الدعوة السرية.

الدعوة السرية:

كان النبي صلي الله عليه وسلم يعلم تمام العلم عناد قريش وكبرياءها وإصرارها على التمسك بالقديم، واعتزازها بآبائها وأجدادها وعبادتها للأصنام؛ لذا فلن تُسلِّم بسهولة، أو تذعن لدعوته، بل ستقاومه حتى آخر سهم في جعبتها، لأنها اعتقدت أن الإسلام يهدد مصالحها ويقضي على سيطرتها على مكة وما حولها، ولو علمت أن الإسلام سيجعلها سيدة العالم ما قاومته لحظة واحدة ولرحَّبت بدعوته.

أدرك النبي صلي الله عليه وسلم ذلك، فقرَّر أن تكون دعوته لدينه سرا في بادئ الأمر، وبدأ في دعوة أصدقائه وأقرب الناس إليه ومن يأنس فيهم خيرًا واستعدادًا لقبول الحق والهُدي، فآمن به – إلى جانب من ذكرنا – عدد من رجالات قريش ونسائها، وطائفة من العبيد والفقراء والضعفاء الذين رأوا في الدين الجديد الخلاص مما هم فيه من شقاء وبؤس، مثل: بلال بن رباح، و صهيب الرومي، وآل ياسر، وكان النبي صلي الله عليه وسلم يجتمع بمن أسلم سرا في دار الأرقم بن أبي الأرقم يتلو عليهم آيات القرآن الكريم، ويعلمهم شرائع الإسلام، واستمرت هذه الدعوة السرية نحو ثلاث سنوات، ازداد فيها عدد المسلمين زيادة يسيرة.

ويبدو أن خبر الدعوة لم يعد سرا بصورة مطلقة بالنسبة إلى قريش، فقد تسرَّب إليها، لكنها لم تعبأ بهذا في البداية، ولعلها كانت واثقة بقوتها وقدرتها على مقاومة هذه الدعوة من ناحية، و واثقة بأن حملها على ترك دين آبائها وأجدادها أمر صعب من ناحية أخري.

الجهر بالدعوة وموقف قريش:

أمر الله تعالى نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم أن يجهر بالدعوة بعد مضي ثلاث سنوات من الدعوة سرا، فقال:[*فاصدع بما تؤمر و أعرض عن المشركين* [الحجر: ٩٤ ، و قال تعالى [*وأنذر عشيرتك الأقربين واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين فإن عصوك فقل إني بريء مما تعملون*] الشعراء: ٢١٤ – ٢١٦.

وامتثالا لهذا الأمر الإلهي بدأ النبي بدعوة الأقربين من أهله وعشيرته إلى الإسلام، وصنع لهم طعامًا في بيته، وبعد أن تناولوه، حدَّثهم قائلا: ما أعلم إنسانًا في العرب جاء قومه بأفضل مما جئتكم به، فقد جئتكم بخيري الدنيا والآخرة، وقد أمرني ربي أن أدعوكم إليه فأيكم يؤازرني على هذا الأمر؟ فأعرضوا عنه جميعًا، وهمُّوا بتركه عدا على بن أبي طالب، وانصرفوا دون أن يستجيبوا لدعوة النبي، غير أنهم لم يبادئوه بأذي في أول الأمر، غير أن عداوتهم له بدأت حين شرع في تسفيه آلهتهم.



جهاد في العهد المكي:

قد يفهم بعض الناس أن المقصود بالجهاد الحرب فقط، لكنه يعني كثيرًا من أنواع الجهاد، فالصبر على الأذي و المكاره لا يقل أهمية عن الجهاد بالسلاح، وقد تحمَّل النبي صلي الله عليه وسلم هو و أصحابه صنوفًا من الأذي صبَّها عليهم المشركون في الفترة المكية، فكانوا يسبونه ويتعرضون له، ويرجمونه بالحجارة، ويلقون عليه القاذورات، وأشهر من صنع ذلك معه: عقبة بن أبي معيط، و أبو جهل الذي حاول قتل النبي صلي الله عليه وسلم عند الكعبة.

وكان موقفهم هذا من النبي صلي الله عليه وسلم عنادًا له وحسدًا من عند أنفسهم، لأنهم كانوا يعرفون أن دينه حق، وأن الذي يأتيه وحي من السماء، ولكن حال الحسد بينهم وبين اتباعه وتصديقه، وصبَّ المشركون جام غضبهم على المستضعفين من المسلمين، و أذاقوهم ألوانًا من العذاب، مثل: بلال بن رباح الذي لم ينقذه من العذاب إلا أبو بكر الصديق الذي اشتراه من سيده أمية بن خلف وأعتقه، وآل ياسر وكانوا يُعذَّبون إذا حميت الظهيرة برمضاء مكة، وكان الرسول يمر بهم و لا يملك أن يمنع عنهم العذاب، فيقول لهم: صبرًا آل ياسر فموعدكم الجنة، فصبروا واحتملوا ولم يتخلوا عن دينهم، حتى إن أم عمار طعنها أبو جهل بحربة فقتلها وهي على إسلامها.

الهجرة إلى الحبشة:

اشتد الأذي والتعذيب بأصحاب النبي صلي الله عليه وسلم دون أن يقدر على الدفاع عنهم، وكان هو في منعة من أهله إلى حد ما، يقف بجانبه أبو طالب يدفع عنه الأذي، ففكَّر لهم في مخرج مما يلاقونه من التعذيب، فقال لهم: لو خرجتم إلى أرض الحبشة، فإن بها ملكًا لا يُظلم عنده أحد، وهي أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فرجًا مما أنتم فيه فخرج بعض المسلمين إلى أرض الحبشة مخافة الفتنة، وفرُّوا إلى الله بدينهم، وكانت هجرتهم أول هجرة في الإسلام، وبلغ عددهم عشرة رجال وأربع نسوة، منهم: عثمان بن عفان وزوجته رُقية بنت رسول الله صلي الله عليه وسلم، ثم خرجت مجموعة أخري من المسلمين إلى الحبشة، كان عددها أكبر من الأولي؛ إذ بلغوا نحوً من ثمانين رجلا وامرأة، وظلوا مدة طويلة في الحبشة، بعد أن وجدوا الأمن والحماية من ملكها، وعادت آخر مجموعة من هناك مع جعفر في أول السنة السابعة من الهجرة.

إسلام عمر بن الخطاب:

بعد هجرة المسلمين الأولي إلى الحبشة أسلم عمر بن الخطاب، وكان إسلامه حدثًا كبيرًا في مكة، ونصرًا عظيمًا للإسلام؛ إذ كان من الشخصيات القوية في مكة، ومن أشد أعداء المسلمين، حتى إنه أسلم في الوقت الذي عزم فيه على الذهاب لقتل الرسول صلي الله عليه وسلم، فأراد الله به الخير، واستجاب الله لدعوة النبي الذي كان دائمًا يردد: اللهم أعز الإسلام بأحد العمرين، عمر بن الخطاب، أو عمرو بن هشام أبي جهل .

وبإسلام عمر قَوِي موقف المسلمين كما اشتد من قبل بإسلام حمزة بن عبد المطلب عمِّ النبي صلي الله عليه و سلم، و أهاب بالمسلمين أن يصلوا عند الكعبة تحت حمايته، فغلبت قريش على أمرها، لمعرفتها بقوة شكيمة عمر ومضاء عزيمته، فلم تتعرَّض لهم، وبدأت تلجأ إلى أسلوب آخر في مواجهة الدعوة، وهو أسلوب المقاطعة.

أسلوب المقاطعة:

استعملت قريش مع النبي صلي الله عليه وسلم وأصحابه أساليب العنف والتعذيب والاضطهاد، فلم تنجح في ردهم عن دعوتهم، فلجأت إلى أسلوب الترغيب والمساومة، فعرضت على النبي صلي الله عليه و سلم الملك والسيادة والمال، فرفض عرضهم، لأنه لم يكن طالب ملك أو جاه، بل رسولا جاء من الله برسالة سماوية، تحمل الخير والعدل، ولابد من تبليغها، ثم وسَّطوا أبا طالب ليكف محمدًا عن تسفيه آلهتهم في مقابل ما يريد من ملك أو جاه، فكلمه قائلا: إن القوم

يطلبون منك أن تكف عن سب آلهتهم، فأبق علي و على نفسك فأجابه النبي بكلمات قليلة، لكنها قاطعة وحاسمة: والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلِكَ دونه.

سمع أبو طالب هذا الرد الحاسم، وأدرك إصرار النبي صلي الله عليه وسلم على السير في طريق الدعوة مهما تكن الصعاب والمشاق، فقال له في رقةٍ بالغة: يا ابن أخي امضِ فيما أنت فيه، فوالله لن أسلمك لشيء تكرهه أبدًا.

ولما لم تنجح كل هذه الوسائل في ثني النبي صلي الله عليه وسلم عن تبليغ دعوته، ورد أصحابه عن دينهم الجديد، لجأت قريش إلى أسلوب المقاطعة، ولم يكن هذا مألوفًا في بلاد العرب، ولعله لم يكن مألوفًا كذلك في أي مكان في العالم آنذاك، ففرضت حصارًا على بني هاشم وبني المطلب جميعًا، ممن يقفون مع النبي صلي الله عليه وسلم ويذودون عنه، سواء من أسلم منهم أو لم يسلم، وقررت ألا تبيع لهم أو تشتري منهم، وألا تزوجهم أو تتزوج منهم، وألا تتزاور معهم، عقابًا لهم على مساندهم للنبي صلي الله عليه وسلم،وكتبوا بتلك المقاطعة وثيقة في صحيفة، علقوها في الكعبة، ليكون لها احترام والتزام.

واستمر هذا الحصار القاسي المجرد من الإنسانية نحو ثلاث سنوات، عاني منه بنو هاشم وبنو المطلب أشدَّ المعاناة، و هم صابرون صامدون، لم يتخلَّ أحدٌ منهم عن النبي صلي الله عليه وسلم، حتى تحركت النخوة والشهامة في نفوس بعض رجالات قريش، كزهير بن أبي أمية المخزومي، و المطعم بن عدي، وأبي البُختري بن هشام، لما رأوا ما يعانيه بنو هاشم وبنو المطلب من هذه المقاطعة الظالمة، فسعوا في نقضها وإلغائها، وأقسموا على تمزيق الصحيفة، وكان لهم ما أرادوا، فخرج النبي وأصحابه من شعبهم الذي كانوا محاصرين فيه؛ ليستأنف رسول الله صلي الله عليه وسلم دعوته إلى دين الله.

عام الحزن:

استأنف النبي صلي الله عليه وسلم دعوته بعد انتهاء المقاطعة، واستبشر المسلمون خيرًا بعهد جديد يمارسون فيه حياتهم الطبيعية، لكن وقع للنبي حدثان جليلان في عام واحد وهو العام العاشر من البعثة، فقد مات كل من عمه أبي طالب، وزوجته خديجة، وكانا نعم العون له والمساندة في تبليغ رسالته، وعلى الرغم من ذلك فإن النبي صلي الله عليه وسلم لم يضعف ولم تهن له عزيمة؛ ومضي واثقًا بنصر الله يبلغ رسالة الله إلى العالمين.

رحلته إلى الطائف:

أراد النبي صلي الله عليه وسلم أن يخرج بالدعوة من نطاق مكة، لعله يجد نصيرًا أو معينًا بعد المضايقات الشديدة التي لقيها من قريش وبخاصة بعد موت خديجة وأبي طالب، فقرر الذهاب إلى الطائف؛ لعرض دعوته على ثقيف رجاء إيمانها به وبرسالته، لكنهم رفضوا ما عرضه على هم، ولم يكتفوا بذلك بل سبُّوه وأهانوه، وسلطوا عليه سفهاءهم وصبيانهم؛ ليضربوه بالحجارة، فتأثر بذلك رسول الله صلي الله عليه وسلم، وبلغ إحساسه بالألم مداه، فجأر بالشكوي إلى الله قائلا: *اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تكلني ؟ إلى بعيد يتجهمني، أم إلى عدو ملكته أمري ؟ إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، من أن تنزل بي غضبك، أو يحل علي سخطك، لك العتبي حتى ترضي، ولا حول ولا قوة إلا بك*، وبعد أن قال الرسول هذا الكلام المؤثر جاءه جبريل ومعه ملك الجبال عليهما السلام، فقال له ملك الجبال: إن شئتَ أن أُطبق عليهم الأخشبين٢، فقال النبي صلي الله عليه وسلم بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله لا يشرك به شيئًا، ودعا لهم قائلا: *اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون*.



إسراء والمعراج:

في هذا الجو الذي بدا قاتمًا وحزينًا بعد موت أبي طالب وخديجة بنت خويلد، وما لقيه النبي من أهل الطائف والقبائل من عنت وإيذاء، أراد الله تعالى أن يسرّي عنه صلي الله علىه وسلم وأن يعلمه ويطمئنه، فأسري به إلى المسجد الأقصي وعرج به إلى السماء وموجز هذه الحادثة كما ترويها كتب الحديث والسيرة: أن النبي صلي الله عليه وسلم كان في بيت أم هانئ بنت أبي طالب فجاءه جبريل ومعه البراق وهي دابة أصغر من البغل وأكبر من الحمار وأخذه إلى بيت المقدس في فلسطين، حيث وجد في استقباله جمعًا من الأنبياء، فيهم إبراهيم و موسى و عيسى – عليهم السلام – جميعًا، فصلي بهم إمامًا ركعتين، ثم عرج إلى السماوات العلي، حيث التقي بعدد من الأنبياء، وتحدث إليهم وحيوه وهنئوه، ثم ارتقي فوق السماوات العلي لمناجاة ربه، وتلك مكانة لم يبلغها نبي ولا رسول ولا ملك من الملائكة المقربين، و في هذا اللقاء فرضت الصلوات الخمس، وقد أراه الله من آياته الكبري، فرأي الجنة و ما أعده الله من نعيم للمتقين، ورأي النار وما أعده الله من عذاب للكافرين. ثم عاد إلى مكة في الليلة نفسها، مزودًا بهذه الطاقة الروحية الهائلة.

أبو لهب يحذر القبائل من دعوة النبي:

على الرغم مما تعرض له النبي صلي الله عليه وسلم من إساءات أهل الطائف، فإنه لم ييأس من دعوة الناس إلى الإسلام، فكان يتصدي لوفود القبائل التي تأتي إلى مكة في موسم الحج، يعرض عليهم رسالة الإسلام، ومن الوفود التي التقي بها: وفد كندة، وبني حنيفة وبني عامر بن صعصعة، غير أنه لم يجد منهم مجيبًا، خاصة أن عمه أبا لهب كان يتتبع خطي رسول الله صلي الله عليه وسلم، فإذا رآه جلس إلى وفد قبيلة من قبائل العرب؛ جاءهم قائلا لهم: لا تصدقوه إنه كذَّاب ولا تطيعوه ولا تسمعوا له. واستمر هذا الوضع حتى أذن الله بالفرج من ناحية يثرب.

الهجرة إلى المدينة:

بيعة العقبة الأولي:

بدأت بشائر النصر تأتي ريحها من يثرب، فقد التقي النبي صلي الله عليه وسلم أثناء عرض دعوته على القبائل بوفد من أهل يثرب في موسم الحج، وعرض عليهم الإسلام، فلم يرفضوا ولم يسلموا، عدا واحدًا منهم هو إياس بن معاذ فقد أسلم، لكنهم حين عادوا إلى قومهم تحدثوا بما سمعوا من النبي، فنبهوهم إلى أنه من المعقول أن يكون محمد هو النبي الذي كانت اليهود تحدثهم عنه دائمًا، وكان في يثرب كثير من قبائل اليهود بنو قينقاع وبنو النضير و بنو قريظة، الذين علموا من كتبهم المقدسة أن هناك نبيًا قد قرب زمانه وهو آخر الأنبياء.وهذه المعلومات التي عرفها أهل يثرب من الأوس والخزرج كانت مفيدة لهم وللإسلام، فقد ذهب وفد منهم في الموسم التالي – العام الثاني عشر من البعثة – والتقوا برسول الله صلي الله عليه و سلم وهم على استعداد للاستجابة له والتجاوب معه، فحدَّثهم عن الإسلام فآمنوا وبايعوه عند العقبة في مِني البيعة الأولي، على أن يؤمنوا بالله وحده، ولا يشركوا به شيئًا، وألا يسرقوا، وألا يزنوا، وألا يعصوا الله في معروف. وأرسل النبي معهم عند عودتهم إلى يثرب مصعب بن عمير، يعلمهم القرآن ويفقههم في الدين.وكان هذا اللقاء بداية النصر وفاتحة الخير، فإذا كانت مكة قد تحجرت عقولها وصمت آذانها عن سماع صوت الحق، فإن يثرب تفتح له قلوبها وعقولها وآذانها.

بيعة العقبة الثانية:

نجح مصعب بن عمير فيما كُلِّف به نجاحًا عظيمًا، فازداد عدد المسلمين في يثرب على يديه زيادة كبيرة، ولم يبق بيت فيها إلا ولذكر الإسلام والنبي فيه نصيب، وعاد مصعب في الموسم التالي العام الثالث عشر من البعثة، ليزف

النبي صلي الله عليه وسلم بشري نجـاحه، وإقبـال أهـل يثرب على الإسلام، وأن وفدًا كبيرًا منهم سوف يـأتـي إلى مكـة لمقـابـلته، فقدم ثـلاثـة وسبعون رجـلا وامرأتـان لهذا الغرض، وتم اللقـاء سرا عند العقبـة في مني، وسط أيـام التشريق الثـلاثـة الأيـام الأولي من عيد الأضحـي، وحضر اللقـاء العباس بن عبد المطلب، وكان لا يزال مشركًا، لكنه رغب في حضور هذا الاجتماع؛ ليطمئن على ابن أخيه.وفـي هذا اللقـاء بـايع الحـاضرون النبي صلي الله عليه و سلم بيعة العـقبـة الثـانيـة أو بيعـة القتـال، لأن أهم مـا تضمنته التزام أهـل يثرب بالدفاع عن النبي عندما يهاجر إليهم، و منعه مما يمنعون منه أنفسهم ونسـاءهم وأبنـاءهم. وبعد أن تمت البيعة اتفقَ على ترتيبات هجرة أصحـاب النبـي صلي الله عليه وسلم إلى يثرب، وما يلتزمه أهل يثرب تجاههم من توفير المأوي والمعاش.وقـد أثـبت أهـل يثرب أهم أهـل كرم وشهـامـة وتضحيـة، فقدموا لإخوانهم المهاجرين كل ما يحتاجون إليه، بل و آثروهم على أنفسهم.

المؤامرة الكبري:

بدأ أصحـاب النبـي صـلي الله عليه وسـلم من أهل مكة يهاجرون إلى مـوطـنهـم الجديد، أفرادًا وجمـاعـات متخفين عن أعين قريش، وبقـي الرسول في مكة، ووقعت قريش في حيرة شديدة؛ لأنها لم تـكن تـعرف مـا هو صـانع؛ هـل سيبقـي فـي مكـة، أم سيـلحق بـأصحـابه إلى يثرب ؟ وفي هذا خطر شديد عليهم، لأنه سيجد في يثرب المنعـة والحمـايـة والاستعداد للدفاع عنه، مما قد يجرُّهم إلى الدخول في عداء سافر مع يثرب.

وأمـام هذه التطورات المتلاحقة قررت قريش أن تحزم أمرها سريعًا قبـل أن يهـاجر النبـي ويفـلت من بين يديها، فعقدوا اجتماعًا في دار الندوة لم يحضره أحد من بنـي هاشم سوي أبي لهب عم النبي، وبحثوا فيه الأمر، وعُرِضَت ثلاثة اقتراحات لمواجهة الموقف، الأول: أن يـضعـوا مـحمـدًا فـي السجن، والثـانـي: أن ينفوه من مكـة، و الثـالث: أن يـقتـلوه، وحـاز الاقتراح الثـالث الموافقـة على تنفيذه، و هذه هي المؤامرة التي عبَّر عنها القرآن الكريم، في قوله تعالي: [*وإذ يـمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتـلوك أو يخرجوك ويمكرون و يمكر الله والله خير الماكرين*] الأنفال: ٣٠.

وبـعد أن اتـفقـوا على قـتـلـه، نـاقشوا كيفيـة تنفيذ ذلك، فرأوا أن تشترك جميع القبـائـل فـي قتله، بأن تختار كل منها فتي شابا قويا من بين أبنـائهـا، وتعطيه سيفًا بتـارًا، وأن يرابط هـؤلاء جميعًا أمـام بـيت النـبـي صـلي الله عليه وسـلم ليـلا، حتى إذا خرج عليهم فـي الصبـاح ضربوه ضربـة رجل واحد، فيتفرَّق دمه في القبائل، ولا يقوي بنو هاشم على محاربة أهل مكة جميعًا.علي في فراش النبي صلي الله عليه وسلم:

علم رسول الله بما بيتته له قريش، فأعد العدة للهجرة، وأسر بذلك إلى صـاحبه أبـي بكر الصديق الذي كـان ينتظر هذا بلهفة وشوق، فأعد لذلك الأمر عدته من قبل، للقيام بأعظم رحلة في تاريخ البشرية.

دعـا النبـي صـلي الله عليه وسـلم على بن أبي طالب، لينام في فـراشه فـي تـلك الليـلة، ليضـلل قريشًا من جهـة، ومن جهـة أخري لكـي يـتخـلف فـي مكـة، ليـؤدي للنـاس ودائعهم التـي كـانت عند الرسـول، وخـرج النبـي صـلي الله عليه وسـلم فـي عمـايـة الصبح، و المـتـآمرون واقفون على بـابه، ينتظرون لحظـة خروجه، للانقضـاض عليه، لكن الله أعمـي أبصـارهم، وأخذ النبـي صلي الله عليه وسلم حفنـة من الحصـي وقذفهـا فـي وجوههم، وقال شاهت الوجوه، ثم تـلا قـوله تـعـالي: <<*وجـعـلنـا مـن بين أيديهم سدًا ومن خـلفهم سدًا فأغشيناهم فهم لا يبصرون*>> يس: ٩.قصد النبـي صـلي الله عليه وسـلم بيت أبـي بكر الذي كـان فـي انتظـاره و معه الرواحـل، والزاد، وكـل مـا يلزم الرحلة المباركة، وكان دليلهم في رحلتهم عبد الله بن أريقط.

النبي في غار ثور:انطـلقت الرحـلة المباركة قاصدة غار ثور في جنوب مكة، مع أن وجهتهم كـانت يثرب فـي الشمال؛ لأن النبي صلي الله عليه وسلم يـعرف أن قـريـشًا عـندمـا تكتشف أنه نجـا من كيدهم ستتجه فـي بحثهـا عنه إلى الشمـال، عندئذ يكون هو قد وصـل إلى الغار واختبأ فيه.والحق أن خطـة الهجرة كـانت دقيقـة وسريـة إلى أقصي حد، ووضعَ لهـا كـل مـا فـي وسع البشر أن يفعلوه لضمان نجاحها، فإذا لم يفلح هذا كـله، فستـأتـي عنـايـة الله فـي اللحظة المناسبة

إنقاذ الموقف، فالذين علموا بأمر الهجرة كان عددهم محدودًا وكانوا موضع ثقة، منهم: عامر بن فهيرة مولى أبي بكر وراعي غنمه، وعبد الله بن أبي بكر، وأخته أسماء، وكل واحد من هؤلاء له عمل محدد وفي غاية الأهمية والخطورة، فعبد الله بن أبي بكر كانت مهمته أن يتسمع أخبار قريش بالنهار في أنديتها، ثم يبلغها الرسول صلي الله عليه وسلم إذا جاء الليل، وكانت مهمة أسماء إعداد الطعام، و لما لم تجد مرة حبلا تربط به حقيبة الزاد، شقت نطاقها الذي كانت تشد به وسطها، وربطت بأحد الشقين الحقيبة فلقبت بذات النطاقين، أما عامر بن فُهيرة فكانت مهمته أن يرعى الأغنام بالقرب من الغار، فإذا ما حلَّ الظلام ذهب إلى الغار؛ ليزود النبي صلي الله عليه و سلم و أبابكر باللبن، ويسير بأغنامه على آثار أقدام عبد الله بن أبي بكر حتى يمحوها، فلا يفطن أحد إلى مكانهم.جن جنون قريش حين علمت أن النبي صلي الله عليه وسلم أفلت من قبضتها، وأن النائم في الفراش لم يكن سوي على بن أبي طالب، فأخذت تبحث عن محمد في كل مكان، وبعد أن أعياهم البحث في طريق يثرب؛ عادوا إلى الجنوب، ووصلت طلائع بحثهم إلى باب الغار، ففزع أبوبكر، حتى إنه بكي من شدة خوفه على حياة النبي صلي الله عليه وسلم، فسأله: ما يبكيك يا أبا بكر؟ فقال: يا رسول الله، لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا، فقال له الرسول صلي الله عليه وسلم مطمئنًا: يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما.

وقد سجل القرآن الكريم هذا المشهد، فقال تعالى : [*إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلي وكلمة الله هي العليا و الله عزيز حكيم*.[التوبة : ٤٠ .

استئناف الرحلة:ظل النبي صلي الله عليه وسلم، وصاحبه في الغار ثلاثة أيام، حتى هدأت قريش، وتعبت من البحث دون جدوي، بعد أن كانت قد رصدت جائزة كبري قدرها مائة من الإبل لمن يأتيها بمحمد حيا أو ميتًا، لكن الله – سبحانه– عصمه من ذلك أيضًا، ثم استأنف الرسول رحلته المباركة في غرة ربيع الأول، وأخذ دليلهما طريقًا غير طريق القوافل المعروف، لئلا يستدل عليهم أحد. وكانت الرحلة شاقة واكتنفها كثير من المخاطر، من ذلك أن سُراقة بن مالك الجشمي علم أن النبي صلي الله عليه وسلم وأبا بكر سلكا ذلك الطريق، فأراد اللحاق بهما، والقبض عليهما ليفوز بالجائزة، فلما اقترب منهما غاصت أقدام حصانه في الرمال، وعجز عن النهوض، فدهش سراقة، فلم يعهد من حصانه هذا من قبل، وحاول أكثر من مرة اللحاق بهما، ولكن تكرر فشله، والنبي صلي الله عليه وسلم ينظر إليه في إشفاق، و سراقة يظن أن النبي منتقم منه لا محالة، فتوسل إليه أن يعفو عنه، و عاهده على ألا يدل عليه أحدًا، فعفا عنه النبي صلي الله عليه و سلم.

وكان أهل يثرب منذ أن علموا بقرب مقدم النبي صلي الله عليه وسلم إليهم ينتظرونه بحب وشوق ولهفة إلى رؤيته، وكانوا كل يوم يخرجون إلى مشارف المدينة، يلتمسون وصوله، فما إن وقعت عليه عيونهم حتى كادوا يطيرون من الفرح، وهتفوا مرحبين منشدين:

طلع البدر علينا   من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا   ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا   جئت بالأمر المطاع
جئت شرفت المدينة   مرحبًا يا خير داع

كـان وصوله صلي الله عليه وسلم إلى يثرب، التي أصبحت عندئذ تسمي مدينة الرسول، أو المدينة المنورة يوم الجمعة الموافق الثاني عشر من شهر ربيع الأول؛ لأنه قضي أربعة أيام في قُبَاء قبل دخوله يثرب، فقد وصلها يوم الاثنين الثامن من شهر ربيع الأول، وبقي فيها إلى يوم الجمعة، حيث صلَّي الجمعة في المدينة، وصلي خلفه المهاجرون و الأنصار في مشهد عظيم، وحادث الهجرة هو أعظم حدث في التاريخ الإسلامي، لذلك اتخذه الخليفة عمر بن الخطاب –رضي الله عنه – مبدأ للتاريخ الإسلامي؛ لأن الهجرة هي التي فتحت أمام الإسلام ذلك العالم لرحيب، ومكنت النبي صلي الله عليه و سلم من بناء دولته وتكوين جيشه الذي سيدافع عن دعوته، وأتاحت له أن يعلم أصحابه أصول دينهم وعلوم السياسة والحرب والسلام، والإدارة والقيادة، وهيَّأهم ليقودوا الدنيا كلها إلى الخير والعدل والحق، وينشروا فيها الحرية والعزة والكرامة لكل الناس .

قيام الخلافة

أدرك الصحابة – رضوان الله عليهم – أهمية اختيار خليفة لرسول اللهصلى الله عليه وسلم بعد وفاته، وضرورة أن يختاروا لدولتهم رئيسًا يخلف النبى فى إدارة أمورهم، فاجتمع الأنصار فى سقيفة بنىساعدة، التى كانت لهم مثل دار الندوة لقريش فى مكة؛ لاختيار خليفة منهم، ظانين أنهم أحق الناس بذلك الأمر من غيرهم، فالمدينة بلدهم، والدولة قامت على أرضهم، فرشحوا سعد بن عبادة الخزرجى لهذا المنصب الجليل، وفى أثناء ذلك جاء عويم بن ساعدة، ومعن بن عدى، وهما من الأنصار إلى أبى بكر الصديق وعمر بن الخطاب، وأخبراهما بما يجرى فى السقيفة، فاتجها معهما على الفور إليها، وفى الطريق لقيا أبا عبيدة بن الجراح فذهب معهم، ولما وصلوا إلى السقيفة حيث الأنصار مجتمعون، وسعد بن عبادة يتكلم على الرغم من مرضه، مبينًا أحقية الأنصار بالخلافة؛ أراد عمر بن الخطاب أن يتكلم، لكن أبا بكر طلب منه أن ينتظر، فامتثل لأمر أبى بكر الذى تكلم، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه وعلى نبيه: إن الله بعث محمدًا رسولا إلى خلقه؛ ليعبدوا الله ويوحدوه، وهم يعبدون من دونه آلهة شتى... فعظم على العرب أن يتركوا دين آبائهم، فخص الله المهاجرين الأولين من قومه بتصديقه والإيمان به والمواساة له.. فهم أول من عبد الله فى الأرض، وآمن بالله وبالرسول، وهم أولياؤه وعشيرته، وأحق الناس بهذا الأمر من بعده، لا ينازعهم إلا ظالم. وأنتم يا معشر الأنصار من لا يُنكر فضلهم فى الدين ولا سابقتهم العظيمة فى الإسلام، رضيكم الله أنصارًا لدينه ورسوله،وجعل إليكم هجرته، وفيكم جلة أزواجه وأصحابه، فليس بعد المهاجرين الأولين عندنا أحد بمترلتكم، فنحن الأمراء وأنتم الوزراء، لاتفتاتون فى مشورة، ولا تنقضى دونكم الأمور، ثم قال: ولن تعرف العرب هذا الأمر إلا لهذا الحى من قريش،هم أوسط العرب نسبًا ودارًا، وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين، فبايعوا أيهما شئتم يقصد عمر وأبا عبيدة، ولكنهما رفضا أن يتقدما على أبى بكر، وقالا: لا والله لا نتولى هذا الأمر عليك، فإنك أفضل المهاجرين، وثانى اثنين إذ هما فى الغار، وخليفة رسول الله على الصلاة، والصلاة أفضل دين المسلمين، فمن ذا ينبغى له أن يتقدمك، أو يتولى هذا الأمر عليك

فقام الحاضرون فى السقيفة بمبايعة أبي بكر بيعة عُرفت بالبيعة الخاصة، لأن كثيرًا من المسلمين لم يحضروها، وبخاصة آل بيت النبى صلى الله عليه وسلم الذين كانوا مشغولين فى مراسم دفنه، وتمت البيعة فى جو من السكينة والإخاء والود، بعد مشاورة ونقاش هادئ ورزين، مما دل على إحساس عميق بالمسئولية من كبار الصحابة وضرورة استمرارية الدولة، وكراهيتهم أن يبيتوا ليلة واحدة بعد وفاة نبيهم بدون إمام يدير أمورهم، ويواجه الموقف، ويتخذ ما يلزم من قرارات، وقدموا ذلك على تجهيز النبى ودفنه صلى الله عليه و سلم .

البيعة العامة : وفـــى اليوم التــالى بعد الانتهــاء من دفن رسول الله صــلى الله عــليه وســلم اجتمع المســلمون فــى مسجده وبــايعوا أبا بكر بيعة عامة، حضرهــا جمهور الصحــابــة، وكــأن البيعة الأولى كانت بمثابة ترشيح، احتاجت إلى تصديق من عامة المسلمين وتوثيقهم و الذى عــليه جمهور علماء أهل السنة أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يــعيــن خــــليــفــة له، ولم يوصِ بتعيين أحد، فــلو أنه حدد لهم شخصًا بــعيــنه وجــعـــله خــــليــفــــة عــــليهم؛ لظن بعض النــاس أنه تعيين من الله ورسوله، وسيضفــى عــلى هذا الشخص نوعًا من القداســة تجعــله فوق النقد والمحــاسبــة، وهذا أمر خطير لا محالة، فولىُّ الأمر عند المسلمين بشر، يخطئ ويصيب، فإذا أصاب أعانوه، وإذا أخطأ قوموه وكمــا لم يعين النبــى صــلى الله عليه وسلم شخصًا بعينه لتولّى الأمر من بعده، فــإنه لم يحدد للمسلمين أيضًا الطريقة التى يختارون بها من يتولى أمورهم؛ لأنهــا تخضع لتطور الظروف والأحوال، ومن هنــا كــان فــى ترك النبــى لهذا الأمر مصــلحة للمسلمين، حتى لا يقيدهم بشخص، أو بــطريــقــــة مــعيــنــة، وقد فهم الصحــابــة مراد نبيهم وقصده من عدم التعيين، وتصرفوا على أساسه وكــل مــا يمكن قوله فى هذه المسألة الخطيرة أن النبى أومأ إيماءة خفيفــة ذات مغزى بتقديمه أبا بكر ليؤم المسلمين فى الصلاة أثناء مرضه، وكــأنه – عــليه الصــلاة والســلام – قد رشح أبــا بكر للخــلافة مــجرد تــرشــيح وليس إلزامًا، وكــأنه أراد أن يقول: إذا رأيتموه جديرًا بالخلافة وأهلا لها وقادرًا على تحقيق مصلحتكم فى دينكم ودنياكم، فأنتم وذاك، وإلا فلتروا رأيكم .

و الخــلاصــة أن بيعــة أبــى بكر العامة فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فى اليوم التالى لوفاته قامت دولة الخلفاء الراشدين،نحو ٣٠ عاما من ١١–٤٠ هـــ .

الخليفة الأول ١٣١١ -

هو عبد الله بن عثمــان بن عــامر، من قبيــلة تيم بن مرة بن كعب، وفــــى مرة بن كعب يــلتقــى نسبه مع نسب النبــى صــلى الله عــليه و ســـلم، وأمه أم الخير ســلمــى بنت صخر بن عــامر، تيميــة كــأبيه وكنيته: أبو بكر، ولقبه :عتيق

وُلِد أبو بكر سنـــة ٥٧٣م بعد مولد الرسول صــلى الله عــليه وســلم بثــلاثــة أعوام، ونشــأ فى مكة، وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لغير واحد من الأمر؛ لعلمه وتجارته وحسن مجالسته وعُرف أبو بكر بترفعه عن عــادات الجــاهــليــة، وما كانوا يقترفونه من مجون وشرب خمر، وارتبط قبــل البعثة بصداقة قوية مع رسول الله صـــلى الله عــليه وســلم، وكــان الاتفــاق فى الطباع وصفاء النفس من أقوى الروابط بين النبى وأبى بكر.

إسلامه

تُجمع مصــادر السيرة والتــاريخ على أن أبا بكر كان أول من أسلم وآمن بــالنبــى صلى الله عليه وسلم من الرجال الأحرار، وكان لسلامة فطرته التــى كــانت تعــاف مــا عــليه قومه من عبــادة الأوثــان أثر فــى تبكيره بــالدخول فــى الإســلام، و مــا إن دعــاه النبــى صــلى الله عليه وســلم إلى الإســلام حتــى أسلم على الفور؛ لثقته بصدق النبى صلى الله عــليه وســلم وأمــانته، يقول النبــى صــلى الله عــليه وســلم: مــا دعوت أحدًا إلى الإســلام إلا كــانت فيه عنده كبوة - تأخر فى الإجابة–إلا مــا كــان من أبــى بكر بن أبــى قحــافــة، مــا عكم عنه – تأخر عنه - حين ذكرته له، وما تردد فيه.

ومــنذ أن أســلم وهو يهب نفسه ومــاله لله ورسوله، فكــان يشترى من أســــلم مـــن العـــبيـــد الذيـــن كـــانت قريش تعذبهم، ويعتقهم كبــلال بن ربــاح، وكــان يذود عن النبى صلى الله عليه وسلم بكل ما أوتى من قوة، فيروى البخارى عن عبد

بن عمرو ابن العاص قوله: رأيت عقبة بن أبي معيط جاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم وهو يصلى، فوضع رداءه في عنقه، وخنقه به خنقًا شديدًا، فجاء أبو بكر – رضى الله عنه – حتى دفعه عنه، فقال: أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم. صحيح البخارى. ومن أجَلِّ مواقف أبى بكر تصديقه للنبى صلى الله عليه وسلم.

فى حادث الإسراء، فحين أخبر النبى صلى الله عليه وسلم بذلك أسرعوا إلى أبى بكر يخبرونه، ظنا منهم أنه لن يصدق، فقال لهم: والله لئن كان قاله لقد صدق، فإنى أصدقه فى أبعد من هذا، أصدقه فى خبر السماء يأتيه فى ساعة من ليل أو نهار، فلُقب بالصديق من يومئذٍ. واختاره النبى صلى الله عليه وسلم –لثقته– به ليرافقه فى رحلة الهجرة دون غيره من الصحابة، ثم لازم النبى بعد الهجرة فى ليله ونهاره، فلم يتخلف عن غزوة من غزواته أو مشهد من مشاهده، وكان مجاهدًا بنفسه وماله حتى وصفه النبى بقوله: ما لأحد عندنا يدٌ إلا وقد كافأناه بها، إلا أبا بكر، فإن له عندنا يدًا يكافئه الله بها يوم القيامة، وما نفعنى مال أحد قط ما نفعنى مال أبى بكر

ومما لاشك فيه أن أبا بكر الصديق عند علماء الأمة أفضل المسلمين مطلقًا بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ودليل ذلك أنه جعله أميرًا على الحج فى العام التاسع من الهجرة، وأنابه فى الصلاة عند مرضه – دون غيره –، وكان هذا أقوى مرشح له لتولى الخلافة بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم.

أبو بكر الصديق ومسؤوليات الخلافة

بعد أن بويع أبو بكر الصديق البيعة العامة قام فخطب الناس خطبة قصيرة، وضح لهم فيها منهجه فى الحكم، فقال بعد أن حمد الله و صلى على نبيه: أما بعد أيها الناس فإنى وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينونى، وإن أسأت فقومونى، الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوى عندى حتى أزيح عليه حقه إن شاء الله، والقوى فيكم ضعيف حتى آخذ الحق منه إن شاء الله، لا يدع قوم الجهاد فى سبيل الله إلا ضربهم الله بالذلّ، ولا تشيع الفاحشة فى قوم قط إلا عمهم الله بالبلاء، أطيعونى ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله كلمات قليلة وبسيطة، لكنها في غاية الأهمية، تحمل اعتراف الخليفة الأول بحق الأمة فى مراقبة تصرفات حاكمها ونقده وتقويمه إن جانب الصواب كان أول القرارات التى اتخذها أبو بكر وأصعبها قراره بإنفاذ جيش أسامة إلى جنوبى الشام، كما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم، وذلك لأن الصديق أقدم عليه فى ظروف دقيقة وحرجة، فالعربُ قد ارتدت عن الإسلام، حتى مكة نفسها همت بالردة، لولا أن سهيل بن عمرو روَّعهم، قائلا: لماذا ترتدون والنبوة كانت فيكم، والخلافة أصبحت فيكم؟، وحاولت الطائف أن ترتد، فمنع من حدوث ذلك عقلاؤها؛ إذ قالوا لقومهم: لقد كنتم آخر من أسلم، فلا تكونوا أول من يرتد كما استفحل أمر مدعى النبوة مسيلمة الكذاب فى اليمامة شرقى شبه الجزيرة العربية، وطليحة بن خويلد الأسدى فى بنى أسد، فى منطقة بذاخة –ماء لبنى أسد يقع إلى الشرق من المدينة المنورة – ولقيط بن مالك فى عمان جنوبى شرقى بلاد العرب، والأسود العنسى فى اليمن وكل أولئك ظهروا فى أواخر حياة النبى صلى الله عليه وسلم، لكنه لم يحفل بهم كثيرًا؛ لثقته بالقدرة على القضاء على تلك الحركات، وفى الوقت نفسه أمر بإنفاذ جيش أسامة بن زيد إلى جنوب الشام؛ لتأديب القبائل القاطنة هناك، التى تعادى المسلمين، ولتثبيت هيبة الإسلام فى أعين الروم، التى فرضها عليهم فى غزوة تبوك، وللفت أنظار أصحابه إلى خطورة دولة الروم على الإسلام، لكن هذا الجيش لم يذهب لأداء مهمته؛ لمرض النبى صلى الله عليه وسلم ووفاته، فكان أول قرار للصديق، هو تنفيذ ما عزم عليه الرسول صلى الله عليه

وسلم لكن الصحابة جميعًا عارضوا أبا بكر فى قراره بإرسال جيش أسامة، وتعللوا بأن الردة قد عمت شبه جزيرة العرب، وأن الخطر داهم ومحدق بهم، حتى لم تسلم منه المدينة نفسها، واشرأبت أعناق أعداء الإسلام من يهود ونصارى وغيرهما، وتحفزوا للقضاء على الإسلام، ولذا فإن بقاء الجيش فى المدينة ضرورة ملحة؛ لحمايتها من الأخطار المحدقة بها لكن ذلك كله لم يثن عزيمة الصديق عن إرسال جيش أسامة، ووقف كالأسد الهصور يذود عن الإسلام باتخاذ ذلك القرار الصعب قائلا: و الذى نفس أبى بكر بيده، لو ظننت أن السباع تخطفتنى لأنفذت بعث أسامة، كما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولو لم يبق فى القرى غيرى لأنفذته و قد ظهرت نتائج سياسة الصديق الموفقة، عندما ذهب جيش أسامة وحقق ما قصده الرسول صلى الله عليه وسلم من أهداف، و عاد محمَّلا بالغنائم، وألقى الرعب والفزع فى قلوب القبائل العربية التى مرَّ عليها فى شمالى شبه الجزيرة العربية وهو فى طريقه إلى الشام؛ لأنهم قالوا: لو لم يكن بالمسلمين قوة لما أرسلوا هذا الجيش الكبير إلى هذا المكان البعيد فى مثل هذا الوقت؛ ولذا كانت حركة الردة فى المناطق التى مرّ بها أسامة بجيشه أضعف منها فى أى مكان آخر من شبه الجزيرة العربية.

حركة الردة

يعد موقف الصديق من حركة الردة ومواجهته لها من أروع المواقف فى التاريخ، لأنه آمن إيمانًا عميقًا بانتصار الحق مهما تكن قوة أعدائه، وأظهر تصميمًا على الدفاع عن الإسلام مهما يبذل من جهد. و قد بدأت حركة الردة بالقبائل التى منعت الزكاة كعبس وذبيان وغطفان وغيرها، حيث أرسلت وفدًا إلى المدينة، يعرض على الصديق مطالبهم، وأنهم لم يرفضوا الإسلام، ولكنهم يرفضون دفع الزكاة لحكومة المدينة؛ لأنها فى ظنهم معرَّة، ويعدُّونها إتاوة تدفع لأبى بكر، ولم تدرك تلك القبائل أثر الزكاة فى التكافل الاجتماعى بين المسلمين كان رأى فريق من الصحابة وعلى رأسهم عمر بن الخطاب أن يستجيب أبو بكر لتلك القبائل، ولا يجبرها على دفع الزكاة، وخاصة أن المدينة مكشوفة، وليس بها قوة تحميها وتدافع عنها؛ لأن جيش أسامة لما يعد بعد من شمالى بلاد العرب، لكن الصديق لم يقتنع بهذا الرأى، ورد على عمر بن الخطاب ردا جازمًا قائلا له: والله لو منعونى عقالا –الحبل الذى يجرُّ به الحمل – لجاهدتهم عليه. وكان هذا الموقف الثابت من الصديق رائعًا كل الروعة، فماذا لو وافق أبو بكر عمر ومن معه على رأيهم ؟ ربما شجع هذاالتنازل قبائل أخرى، فتمتنع عن دفع الزكاة أسوة بهؤلاء، ولربما تطور الموقف إلى أبعد من هذا، فتمتنع قبائل عن إقامة الصلاة أو غيرها من أركان الإسلام، ويكون هذا هدمًا للدين من أساسه. وكأن الصديق حين فعل هذا تمثل واقتدى بموقف لرسول الله صلى الله عليه وسلم عندما جاءه وفد ثقيف يعلنون إسلامهم، ويطلبون منه إعفاءهم من أداء الصلاة، فرفض النبى صلى الله عليه وسلم ذلك، و قال لهم: لا خير فى دين لاصلاة فيه، ولعل الصديق قصد ذلك حين قال :والله لأقاتلن من فرَّق بين الصلاة والزكاة ولم يكن الصديق صاحب قرارات صائبة فحسب، بل كان يقرنها بالعمل على تنفيذها، فلما رأى الغدر فى عيون مانعى الزكاة أدرك أنهم سيهاجمون المدينة على الفور؛ لأنهم عرفوا غياب معظم الرجال مع جيش أسامة، وأعلن حالة الاستعداد للدفاع عن المدينة عقب عودة المانعين إلى ديارهم، واتخذ مسجد رسول الله، مقرا لغرفة عمليات عسكرية، وبات ليلته يُعد للمعركة ويستعد لها، و أمر عددًا من كبار الصحابة بحراسة مداخل المدينة، على رأسهم على بن أبى طالب، و طلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام، وعبد الله بن مسعود رضى الله عنهم وحدث ما توقعه الصديق فبعد ثلاثة أيام فقط هاجم مانعو الزكاة المدينة، فوجدوا المسلمين فى انتظارهم، فهزمهم المسلمون و ردوهم على أعقابهم إلى ذى القصة – شرقى المدينة. ثم تعقبهم الصديق وألحق بهم هزيمة منكرة، وفرت فلولهم، وغنم المسلمون منهم غنائم كثيرة، واتخذ الصديق من ذى القصة مكانًا لإدارة المعركة ضد حركة الردة كلها، وفى هذه الأثناء

ءت الأخبار بوصول جيش أسامة سالمًا غانمًا، فأسرع الصديق بنفسه لاستقبال قائد الجيش الشاب الذى قام بهذه المهمة الخطيرة خير قيام، وبعد أن احتفى به وهنأه على عمله، أنابه عنه فى حكم المدينة، وعاد هو إلى ذى القصة ليدير المعركة مع المرتدين بعزيمة لا تلين .

أسباب حركة الردة

قبل الخوض فى الحديث عن مواجهة أبى بكر لحركة الردة، ينبغى معرفة أسبابها، التى جعلت تلك القبائل ترتد بعد أن أعلنت إسلامها أمام الرسول صلى الله عليه وسلم فى السنة الأخيرة من حياته -السبب الأول: أن إسلام أغلب هذه القبائل كان ضعيفًا، فقد أذعنوا لقوة المسلمين، التى لم يكن لهم قِبَل بمواجهتها؛ فاستسلموا ولم يسلموا إسلامًا حقيقيًا، فظنوا أن وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ستفتُّ فى عضد المسلمين، ولن يستطيعوا مواجهتهم

-والسبب الثانى: أن العصبية القبلية كانت عندهم قوية، فمعظم المرتدين الذين التفوا حول مدعى النبوة كانوا يعلمون صدق النبى صلى الله عليه وسلم، ولكن كل قبيلة كانت تريد أن يكون لها نبى من أبنائها ولو كان كذابًا، كما لقريش نبى من أبنائها، وعبروا عن ذلك بوضوح وصراحة، فيقول أحد بنى حنيفة لمسيلمة: أشهد أنك كذاب، ولكن كذاب ربيعة - التى منها مسيلمة – خير من صادق مضر– التى منها محمد ، وقال عيينة بن حصن الفزارى عن طليحة بن خويلد الأسدى: نبى من الحليفين خير من نبى من قريش، ومحمد مات، وطليحة حى.

-والسبب الثالث: أن زعماء القبائل وشيوخها كانوا مستفيدين من الوضع القبلى القديم؛ إذ كانت حياة معظم القبائل تقوم على الإغارة و السلب و النهب، ويأخذ شيوخها ربع ما تحصل عليه من تلك الغارات، ولذا تزعموا حركة الردة، وحرضوا أبناء القبائل عليها، ليستمروا فى السيطرة على قبائلهم

-والسبب الرابع: أن الفرس والروم حاولا القضاء على الإسلام باستخدام العرب وتحريضهم ومساعدتهم، فلما فشلا فى ذلك تدخلا تدخُّلا مباشرًا، فحرَّض الفرس عرب الخليج على الردة، ثم أمدوا سجاح بنت الحارث اليربوعية – مدعية النبوة – بجيش كبير، قوامه أربعون ألف رجل، جاءت بهم من العراق التى كانت تحت الحكم الفارسى لمحاربة المسلمين، فلما فشلت تدخلوا مباشرة ضد المثنى بن حارثة، الذى كان يحارب المرتدين على حدود العراق

وفعل الروم البيزنطيون ما فعله الفرس، فاعتدوا فى حروب الردة على جيش خالد بن سعيد بن العاص فى منطقة تيماء شمالى الحجاز، وألحقوا به هزيمة كبيرة وقتلوا معظم جنوده.

المواجهة السلمية

أراد أبو بكر الصديق أن يبصِّر المرتدين بخطورة ما أقدموا عليه، فواجههم مواجهة سلمية بأن دعاهم إلى العودة بدون قتال إلى الإسلام، الذى أكرمهم الله به، وأرسل إليهم كتابًا يقرأ على القبائل كلها؛ لعلهم يعقلون، جاء فى أخره

وإنى بعثت إليكم فلانًا فى جيش من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان، وأمرته ألا يقاتل أحدًا ولا يقتله حتى يدعوه إلى داعية الله، فمن استجاب له وأقرَّ وكف وعمل صالحًا، قبل منه وأعانه عليه، ومن أبى أمرت أن

يقاتله على ذلك، ثم لا يبقى على أحد منهم قدر عــليه، ولا يقبــل من أحد إلا الإســلام فمن اتبعه فهو خير له، ومن تــركــه فــــلن يعجز الله، وقد أمرت رسولى أن يقرأ كتــابــى فــى كــل مجمع لكم، والداعيــة الأذان، فــإذا أذن المســـلمون فأذَّنوا كفوا عنهم، وإن لم يؤذنوا عاجلوهم.

الاستعداد العسكرى

وفـــى الوقت الذى كان يأمل فيه أن يستجيب المرتدون، ويعودوا إلى دين الله دون قتــال؛ كــان يعد أحد عشر جيشًا فى وقت واحد، تغطى المناطق التى ارتد أهلها فى شبه جزيرة العرب، جاهزة للانطلاق إلى كــل منطقــة؛ ليشغــل كــل قبيــلة بـــالدفـــاع عن نفسها فى ديارها، ولا تـــأخذ فرصــة للتجمع والتكتــل ضده، وكــان هذا تصرفًا بــارعًا وحكيمًا من الصديق

واختـــار الصديق لهذه الجيوش أمهر القـــادة وأكثرهم خبرة بالقتال، وهــم: خــــالد بــن الوليــد، ســيف الله وعــبقرى الحرب، وأمره بقتــال المرتدين من بنـــى أسد وغطفـــان وحـــلفـــائهم بقيـــادة طـــليحة بن خويـــلد فى بذاخة، فإذا انتهى من مهمته توجه لقتال المرتدين من بنى تميم فى البطاح، إلى الشرق من ديار بنى أسد

-وعـــكرمـــة بن أبـــى جهـــل وأردفه بشرحبيـــل بن حسنـــة، وأمرهمـــا بـــالتوجه إلى مسيـــلمة الكذاب ومن معه فى اليمامة، وأمرهما ألا يـــقـــاتـــلاه حـــتــــى يـــأمـــرهـــمـــا بذلك، لمعرفــة أبـــى بكر بقوة جيش مسيــلمـــة، وأنهمـــا لن يقدرا على هزيمته بسهولة، بل يشغلاه حتى يحين الوقت المنـــاسب لإرسال قوات أكبر؛ لمواجهة بنى حنيفة فى جموعهم الكبيرة

-والعـــلاء بن الحضرمـــى، وأمره بقتال المرتدين فى البحرين وما والاها

-وحذيفـــة بن محصن، وأمره بقتال المرتدين فى دبا فى جنوبى شرقى شبه الجزيرة

وعـــرفـــجـــــة بـــن هـــرثـــمـــة، وأمره بقتـــال المرتدين فـــى مهرة فـــى جنوبى شبه الجزيرة

والمـــهـــــاجر بن أبـــى أميـــة المخزومـــى، وأمره بقتـــال المرتدين فـــى جنوبى اليمن

وسويد بن مقرن، وأمره بقتـــال المرتدين فـــى تهـــامـــة اليمن على ساحل البحر الأحمر

-وعمرو بن العاص، وأمره بقتال قبائل قضاعة فى الشمال

-ومـــعن بـــن حـــــاجـــز وأمـــره بقتـــال المرتدين فـــى هوازن وبنـــى سليم

وخـــــالد بن سعيد بن العـــاص، وأمره أن يعسكر فـــى تيمـــاء، ولا يقاتل أحدًا إلا إذا قوتل.

أهم معارك حروب الردة

لم يستجب المرتدون لدعوة أبـــى بكر الســـلميـــة، فبدأ قادته ينفذون مـــــا عـــهد إليهم من مهـــام، وخـــاض خــــالدبن الوليد أول معـــارك الردة فـــى بذاخـــة ضد المرتدين من غطفان وبنى أسد وحلفائهم ممن التفوا حول طـــليحـــة بن خويـــلد الأسدى مدعـــى النبوة، وكـــان النصر حـــليف خـــالد، بعد أن ألحق بهم هزيمـــة منكرة وغنم كثيرًا، وأرسل عددًا من

ـمـــائهم أسرى إلى الخــليفـــة، وفر طــليحة، وظهر كذبه، و يجدر بـــالذكرى أن طـــليحـــة قد أسلم بعد ذلك، وحسن إسلامه فى عـــهد أبــــى بـــكر الصديق، واشترك فـــى الفتوحـــات الإســـلاميـــة فـــى فارس، فى عهد عمر بن الخطاب، وكان له دور بارز فيهاوبـــعد ذلك تـــوجه خـــالد بن الوليد إلى البطـــاح فـــى نجد لقتـــال المرتدين من بنـــى تميم بزعامة مالك بن نويرة، ونجح فى إلحاقالهزيمة بهم، والقضاء على الردة فى بلادهم.

معركة اليمامة

اليمـــامـــة مصطـــلح جغرافـــى قديم، يشمـــل المناطق الشرقية من شبه الجزيرة العربيـــة التى تقع فيها الآن مدينة الرياض عاصمة المملكة العربيـــة السعودية. ووقعت معركة اليمامة نفسها فى مكان قريب من هذه المدينة وســـبق أن ذكـــرنـــا أن أبـــا بـــكر أرســـل عكرمـــة بن أبـــى جهـــل وشرحبيـــل بن حسنـــة للوقوف فـــى وجه مسيـــلمـــة، ولم يـــأمرهمـــا بقتـــال؛ لكنهمـــا تعجلا مخالفين أوامر الخليفة، واشتبكا مع مسيلمة فـــى حرب لم يصمدا فيهـــا، وعـــادا منهزمين، ولعـــلهما أرادا أن يتشبها بخالد بن الوليد حتى يحوزا أكاليل النصر، كما حازها هوومـــا إن وصـــلت أنبـــاء هزيمتهمـــا إلى أبـــى بكر حتـــى غضب غضبًا شديدًا، وطـــلب منهمـــا ألا يعودا إلى المدينة، وقرر فى الوقت نفسه أن يـــرســـل خـــالد بـــن الوليـــد إلى اليـــمـــــامـــة للقضـــاء عـــلى فتنـــة مسيـــلمـــة، فهو أصـــلح الناس لهذه المهمة. وكان خالد قد فرغ من القـــضــــاء عـــلى فتنـــة المرتدين من بنـــى أسد وغطفـــان وتميم، فجـــاءته أوامر من أبـــى بكر بـــالتوجه إلى اليمـــامـــة للقضاء على فتنة مسيلمة الكذاب امتثـــل خـــالد بن الوليد لأوامر الخـــليفة، وسار فى صحراء وعرة نحو ألف كيـــلو متر، حتـــى التقـــى بجيوش مسيـــلمـــة – وكانت نحو أربعين ألفًا – فـــى مكـــان يسمى عقرباء فى حين كانت قوات خالد تبلغ نحو ثـــلاثـــة عشر ألفًا، فيهم عدد كبير من المهاجرين والأنصار، ودارت الحـــرب بـــين الفـــريـــقيـــن، وكـــانت حربًا شرســـة، اشتدت وطـــأتها عـــلى المســـلمين فـــى البدايـــة، وكادوا ينهزمون، لولا أن زأر خالد كالأسد الهصور، ونـــادى بـــأعـــلى صوته وامحمداه، وكـــان شعـــار المسلمين فـــى المعركـــة، فـــاشتعـــلت جذوة الإيمـــان فـــى القـــلوب، وهانت الحياة على النفوس، وأقبل المسلمون على القتال دون خوف أو وجل، طمعًا فـــــى النـــصر أو الشـــهـــــادة، وصبروا لأعداء الله حتـــى هزموهم هزيمـــة مـــنكـــرة، وقـــتـــلوا مسيـــلمـــة الكذاب مع نحو عشرين ألفًا من رجـــاله، واستسلم من بقى من قواته أسرى للمسلمين، واستشهد من المسلمين أكثر من ألف ومـــائتـــى رجـــل، منهم عدد كبير من القراء وحفظة القرآن الكريم

وحـــين تـــرامت إلى المرتدين أخبـــار انتصـــارات خـــالد ومـــا فعـــله فـــى بنى حنيفة، وقر فى أذهانهم أن المسلمين لا ينهزمون؛ ولذا كانت مهمـــة بقيـــة القـــادة فـــى المنـــاطق التـــى توجهوا إليها أقل صعوبة مما واجهه خالد بن الوليد فى اليمامة

وقبـــل أن يمضـــى عـــام عـــلى بدء حركة الردة كان أبو بكر الصديق قـــد نـــجح فـــى القضـــاء عـــليهـــا فـــى كـــل مكـــان، وعـــادت شبه الجزيرة العـــربـــيـــة موحدة دينيًا وسيـــاسيًا تحت لواء المســـلمين وحكومتهم فـــى المدينة على ما كانت عليه فى آخر حياة الرسول.

الفتوحات الإسلامية فى عهده

أسبابها

من يتتبع حركـــة الفتوحـــات الإســـلاميـــة خارج شبه الجزيرة العربية يجد أنـــهـــا جـــاءت استطرادًا، وجـــاءت تحت ضغط الظروف، وأن المســـلمين اضطروا إليهـــا اضطرارًا؛ إذ لم يكن لهم برنـــامج أو خطـــة معدة من قبل للفـــتح أو التصـــادم مع الآخرين؛ لأن نشر الإســـلام، وهو الغـــايـــة الأولى للمســـلمين، لا يتطـــلب أعمـــالا حربيـــة أو الدخول فـــى معارك

عسكرية، وكل ما كان يطلبه المسلمون هو أن يفسح لهم الآخرون الطريق ليدعوا إلى دينهم بالحكمة والموعظة الحسنة، ولكن الفرس والروم لم يعطوا المسلمين هذه الفرصة، فكادوا لهم واعتدوا عليهم، مما اضطر المسلمين إلى خوض الحروب معهم، ورد عدوانهم، وتحقيق الحرية لنشر العقيدة الإسلامية دون عوائق، وليس لنشر العقيدة، والفرق كبير بين المعنيين.

فتح العراق

فى أثناء حروب الردة طارد المثنى بن حارثة – أحد قادة المسلمين – المرتدين إلى الشمال، على الساحل الغربى للخليج العربى، فلما وصل إلى حدود العراق تكاثرت عليه قوات الفرس، بعد أن رأوا فشل عملائهم من المرتدين فى القضاء على الإسلام فألقوا بثقلهم فى المعارك ضد المسلمين ولما رأى المثنى أنه غير قادر بمن معه على مواجهة القوات الفارسية، أرسل إلى الخليفة يشرح له الموقف، ويطلب منه المدد، فأدرك الخليفة خطورة الموقف، ورأى أن يردع الفرس ويرد عدوانهم، فرماهم بخالد بن الوليد أعظم قواده، وأردفه بعياض بن غنم و فى المحرم من العام الثانى عشر من الهجرة تحرك خالد بن الوليد من اليمامة، وكان لايزال بها، بعد أن قضى على فتنة مسيلمة الكذاب، وتوجه إلى العراق. حيث خاض سلسلة من المعارك ضد الفرس فى خلال عدة شهور، فى ذات السلاسل والمذار، و الولجة، وأليس، وهذه أسماء الأماكن التى دارت فيها الحروب، وكان النصر حليفه فيها، ثم توَّج انتصاراته بفتح الحيرة عاصمة العراق فى ذلك الوقت،واستقر بها فى شهر ربيع الأول من العام نفسه، ثم فتح الأنبار وعين التمر إلى الشمال من الحيرة، ثم جاءته أوامر من أبى بكر أن يعود إلى الحيرة ويستقر بها إلى أن تأتيه أوامر أخرى وخلاصة القول أنه فى خلال بضعة أشهر نجح خالد فى فتح أكثر من نصف العراق،وصالح أهله على دفع الجزية، و لم يجبر أحدًا على الدخول فى الإسلام.

فتح الشام

كان خالد بن سعيد بن العاص، أحد قادة حروب الردة، معسكرًا بقواته فى تيماء شمالى الحجاز بأمر من الخليفة الذى ألزمه بألا يقاتل أحدًا إلا إذا قوتل، وقصد الخليفة بذلك أن يكون هذا الجيش احتياطيًا، يمد –عند الضرورة – القوات المحاربة فى جهات أخرى، و أن يراقب تحركات الروم؛ لأنه كان على يقين أنهم سوف يستغلون فرصة انشغاله بحروب الردة، ويكرروا عدوانهم و حدث ما توقعه أبو بكر الصديق، فقد هجم الروم على جيش خالد، ومعهم القبائل العربية القاطنة فى الشام، وألحقوا به هزيمة قاسية، وقتلوا معظم جنوده، واستشهد ابنه فى المعركة، فلما وصلت أخبار الهزيمة إلى الخليفة أبى بكر جمع كبار الصحابة لدراسة الموقف، فاستقر رأيهم على ضرورة صد العدوان، وشرع أبو بكر فى حشد أربعة جيوش لتحقيق ذلك

-جيش بقيادة أبى عبيدة بن الجراح وجهه إلى حمص شمالى الشام

-وجيش بقيادة يزيد بن أبى سفيان، ووجهه إلى دمشق فى وسط الشام

-وجيش بقيادة شرحبيل بن حسنة، ووجهه إلى الأردن

-وجيش بقيادة عمرو بن العاص، ووجهه إلى فلسطين

ـال أبو بكر لقادة جيوشه: إذا عملتم منفردين، فكل واحد منكم أمير على من معه من قوات وكان مع كـ واحد منهم نحو ثمانية آلاف جندى – ثم أمير على المنطقة التى يفتحها، أما إذا ألجأتكم الظروف إلى الاجتماع فى مكان واحد، فالقائد العام أبو عبيدة بن الجراح.

موقعة اليرموك

تحرك القادة الأربعة بجيوشهم، فلما دخلوا جنوبى الشام، وجدوا جيشًا روميًا، قوامه نحو ٢٥٠ ألف جندى، بقيادة تذراق أخى هرقل، يساندهم نحو ستين ألفًا من العرب – تقريبًا بقيادة جبلة بن الأيهم الغسانى، فلم يستطيعوا الالتحام مع هذه الجموع الحاشدة، فدارت بينهم مراسلات تجمعوا بعدها فى وادى اليرموك، تحت قيادة أبى عبيدة بن الجراح لكن تجمعهم لم يؤدِ إلى تحريك للموقف ضد الروم، فأخبروا الخليفة أبا بكر بما هم فيه، وطلبوا المدد منه، فرأى أنه لن ينقذ الموقف فى الشام سوى خالد بن الوليد، وقال عبارته المشهورة: والله لأُنسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد، ثم كتب رسالة إليه: أما بعد فإذا جاءك كتابى هذا، فدع العراق، وأخلف فيه أهله الذين قدمت عليهم وهم فيه وامضِ متخففًا فى أهل القوة من أصحابك الذين قدموا العراق معك من اليمامة، وصحبوك من الطريق، وقدموا عليك من الحجاز، حتى تأتى الشام، فتلقى أبا عبيدة بن الجراح ومن معه من المسلمين، فإذا التقيتم فأنت أمير الجماعة والسلام عليك.

امتثل خالد لأوامر الخليفة، وسار من العراق فى سبعة آلاف جندى فى واحدة من أجرأ المسيرات العسكرية فى التاريخ وأكثرها خطرًا، حيث قطعوا أكثر من ألف كيلو متر فى ثمانية عشر يومًا، فى صحراء قاحلة مهلكة، حتى وصلوا إلى وادى اليرموك فتسلم خالد بن الوليد القيادة من أبى عبيدة وخاض معركة مع الروم تُعد من أعظم المعارك وأبعدها أثرًا فى حركة الفتح الإسلامى، و سحق جيش الروم الذى كان يعد يومئذٍ أقوى جيوش العالم، إذ قتل منه نحو مائة وعشرين ألفًا، وقد أدرك هرقل إمبراطور الروم حجم الكارثة التى حلت بجيشه، فغادر المنطقة نهائيًا، وقلبه يقطر دمًا، ويتحسر على جهوده التى بذلها فى استرداد الشام من الفرس، ثم ها هى ذى يفتحها المسلمون، و قال :السلام عليك يا سوريا، سلامًا لا لقاء بعده، ونعم البلد أنت للعدو وليس للصديق، ولا يدخلك رومى بعد الآن إلا خائفًا

وقد استشهد من المسلمين نحو ثلاثة آلاف، وقد فتح هذا النصر العظيم الطريق لفتح بقية الشام، الذى تم فى عهد عمر بن الخطاب

الجمع الأول للقرآن فى عهد أبى بكر الصديق

فزع عمر بن الخطاب لاستشهاد عدد كبير من حفظة القرآن فى حروب الردة، وبخاصة معركة اليمامة، فأشار على أبى بكر بضرورة جمع القرآن فى مصحف واحد؛ خشية أن يُستشهد عدد آخر من الحفاظ، فيضيع القرآن، أو يدخله تحريف إذا تباعد الزمن بين نزوله وجمعه، كما حدث للكتب السابقة

تردد أبو بكر فى بادئ الأمر من اقتراح عمر، وقال: كيف أفعل شيئًا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال له عمر: أرى والله أنه خير، فلم يزل عمر بأبى بكر حتى قبل، ثم استدعى أبو بكر زيد بن ثابت الأنصارى، وكلفه بمهمة جمع القرآن، قائلا له: إنك رجل شاب عاقل، لا نتهمك، وقد كنت تكتب الوحى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فتتبع القرآن فاجمعه، فقبل زيد هذه المهمة الثقيلة، وبدأ فى تتبع القرآن، وجمعه من

ABBYY PDF Transformer 2.0
Click here to buy
www.ABBYY.com

لرقاع والعظام، والعسب سعف النخل التى كان مكتوبًا عليها و من صدور الرجال، وجعل ذلك فى مصحف واحد. وقد ظل هذا المصحف عند أبى بكر، ثم انتقل بعد وفاته إلى عمر بن الخطاب، ثم انتقل بعد وفاته إلى ابنته أم المؤمنين حفصة، و فى عهد عثمان دعت الضرورة إلى جمع الناس على قراءة واحدة، فأخذه عثمان منها، ونسخ منه عدة نسخ و وزعها على الأمصاروهكذا توَّج أبو بكر الصديق أعماله الجليلة بجمع القرآن.

وفاة أبى بكر الصديق

قضى أبو بكر فى الخلافة سنتين وثلاثة أشهر وعشرة أيام قام فيها بجلائل الأعمال، ونهض بمسئولية قيادة الدولة على خير وجه، و عاش حياته للإسلام وللمسلمين، ووهب حياته لخدمة رعيته، والدفاع عن عقيدتها، دون أن يأخذ أجرًا على تحمله تبعات هذا المنصب الجليل، منصب الخليفة، وعاش مثل بقية رعيته دون أن يمتاز عنهم فى مسكن أو ملبس، بل إنه رد ما خصصه له كبار الصحابة من راتب ضئيل، كى يترك التجارة ويتفرغ لمنصبه

وفى أواخر شهر جمادى الآخرة من العام الثالث عشر للهجرة، فاضت روح أبى بكر إلى بارئها بعد مرض استمر أسبوعين، كان سببه الحمى، وتولى بعده الفاروق عمر بن الخطاب .

خلافة عمر بن الخطاب ١٣ - ٢٣ هـ

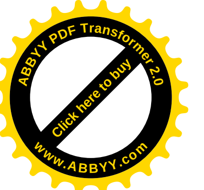
نسبه وصفته وإسلامه

هو عمر بن الخطاب بن نُفيل بن عبدالعُزى بن رباح وأمه حنتمة بنت هشام بن المغيرة ، أسلم فى العام الخامس من البعثة، وعمره سبع وعشرون سنة، بعد أربعين رجلا، وإحدى عشرة امرأة، أسلموا قبله، وكان قبل إسلامه معاديًا للإسلام شديدًا فى عداوته، لكن الله شرح صدره للإسلام استجابة لدعاء النبى صلى الله عليه وسلم له: اللهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب وعُرف عمر بن الخطاب بشخصية قوية، و إرادة لا تلين، وحزم وعزم فى الأمور، وهيبة فى القلوب، وكان سفير قريش فى الجاهلية، وهى مهمة تحتاج إلى علم وعقل، وكياسة وحسن تصرف

عمل عمر فى بداية نشأته بالرعى، ثم عمل فى التجارة إلى الشام وإلى اليمن، وكان يحرص على مقابلة ذوى الشأن فى تلك البلاد؛ ليزداد علمًا وخبرة بالحياة، وكان واحدًا من سبعة عشر رجلا من قريش يعرفون القراءة والكتابة فى مكة واشتهر عمر بن الخطاب أنه كان قوى البنية، طويل القامة، إذا مشى بين الناس أشرف عليهم، كأنه راكب على دابته، أبيض اللون تعلوه حمرة، جهورى الصوت، قليل الضحك، لا يمازح أحدًا، مقبلا على شأنه

أما صفاته الأخلاقية فهي الإحساس الكامل بالمسئولية، والشدة والفراسة، والعدل والهيبة، وواضح أن هذه الصفات هى نتاج عوامل كثيرة متنوعة، مثل نشأة عمر الأولى وثقافته، والقيم التى غرسها الإسلام فى نفسه أما إحساس عمر الكامل بمسئوليته قِبَل الرَّعية، فذلك ما لاحاجة بنا إلى التدليل عليه، ويمكن إرجاعه إلى

النزعة الدينية التى ملكت عليه شغاف نفسه، و التي شهد له بها الجميع، وعلى رأسهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فالعقيدة وحدها هى التى تبلغ بالمرء هذا المستوى القدسى، و هي التي تجعل الإنسان رقيبًا على نفسه فى جميع حركاته و سكناته، و لن تغنى عنها أية رقابة أخرى.



ر والرسول صلى الله عليه وسلم:

احتـــل عمر بن الخطـــاب منذ أن أســـلم المكـــانـــة التـــالية لمكانة أبي بكر الصديق عند النبـــى صـــلى الله عـــليه وسلم، لصفاته العالية التى سبق أن ذكرنـــا بعضهـــا، ولدعوة النبى صلى الله عليه وسلم أن يُعز الله الإســـلام بعمر بن الخطـــاب، وكـــانت دعوة نـــاشئة عن معرفة دقيقة بخصائص الرجل الذى سيكون ثالث ثلاثة فى الإسلام قدرًا ومنزلة وعـــلى أية حال فإن أخلاق عمر وصفاته مهما تكن لم تكن لتبلغ به مـــا بـــلغ من المكـــانـــة العالية والقدر الرفيع إلا بإسلامه وبصلته برسول الله صـــلى الله عـــليه وســـلم، الذى تعهده بـــالتربية والرعاية، وأفسح لمواهبه أن تنطـــلق إلى أفـــاق عـــاليـــة، لتـــؤدى دورهـــا الخـــلاق لا فـــى تاريخ الإسلام فحسب، بل فى تاريخ البشرية، وليكون صاحبها واحدًا من عظمـــاء الدنيـــا، وقد وضعه الكـــاتب الأمريكـــى مايكل هارت بين الخالدين المائة فى التاريخ الإنسانى كله ومـــنذ أن أســـــلم عمر بن الخطـــاب، وهو من أكثر الصحـــابـــة مـــلازمـــة للنبي صـــلى الله عـــليه وســـلم، حتـــى إن الصحابة أطلقوا عليه وعلى أبى بكر الصديق: وزيرَى محمد واشـــتهر عمر دون غيره من الصحـــابـــة بمواقف كثيرة، كـــان ينـــاقش النبى صلى الله عليه وسلم فيها ويعترض عليه فى صراحة، مثل: موقفه من أسرى بدر، وصـــلح الحديبيـــة والصـــلاة عـــلى عبد الله بن أبى بن سلول رأس النفاق، ولم يكن النبى صلى الله عليه وسلم يـــضيـــق بـــذلك، بـــــل يـــسمع برحـــابـــة صدر وسعـــة أفق، ويشجع عمر وغـــيره عـــــلى إبـــداء آرائـــهم دون خـــوف أو وجـــل، يعـــلمهم بذلك حريـــة.

الرأى، والمشاركة فى صنع القراروكثير من تـــلك الآراء التـــى عـــارض فيهـــا النبـــى صلى الله عليه وسلم نزل القرآن مـــؤيدًا لهـــا لفرط إخـــلاصه لدينه، وشفـــافيـــة روحه، وقد عدَّ العـــلمـــاء نحو عشرين موقفًا من هذا القبيـــل منها: تحريم الخمر، وضرب الحجاب على زوجات النبى صلى الله عليه وسلم .وقـــد وردت أحـــاديث كثيرة فـــى فضـــل عمر، منهـــا قوله صـــلى الله عليه وسلم: إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه

توليه الخلافة:

أراد الصديق أبو بكر أن يختـــار المســـلمون خـــليفتهم بـــأنفسهم دون قيد، وبإرادتهم الحرة بلا تدخل، فقال لهم وهو على فراش المرض: إنى قد نزل بى ما ترون، ولا أظننى إلا ميتًا لما بى من المرض، وقد أطلق الله أيمانكم من بيعتى، وحلَّ عنكم عقدتى، ورد عليكم أمركم، فـــأمروا عـــليكم من أحببتم، فإنكم إن أمّرتم فى حياة منى كان أجدر ألا تختلفوا بعدى لكـــنهـــم طـــــلبوا منه أن يرشح لهم من يراه أهـــلا لتولى الخـــلافـــة بعده، وأقدر عـــلى تحمل تبعاتها الجسام، فقبل ذلك، وطلب منهم مهلة حتى يـــنظـــر لله ولدينـــه ولعبـــــاده، وبـــعد تـــفكـــير عميق، واستشـــارة لكبـــار الصـــحـــــابـــــة مـــثـــــل: عـــثمـــــان بـــن عـــفـــــان وعـــــلى بن أبـــى طـــالب و عبدالر حمن بن عوف استقر رأيه على عمر بن الخطاب ولم يكن ترشيح كبـــار الصحـــابـــة عمر بن الخطـــاب للخلافة وتزكيتهم له، بـــعد أبـــى بكر غريبًا أو مفـــاجـــأة، فهم يعرفون قدره ومنزلته، وقد سبق أن ذكرنـــا تقديم النبـــى صـــلى الله عـــليه وســـلم أبـــا بكر ليؤم الناس فى الصلاة، ورفضه أن يقوم بهذا عمر بن الخطاب، فلما تـــــأخـــر أبـــو بكر يومًا عن الصـــلاة، قدَّم بـــلال عمر بن الخطـــاب اجتهـــادًا منه ليـــؤم النـــاس، فلما سمع الرسول عمر يقيم الصلاة رفض ذلك، وقال أين أبو بكر؛ يأبى الله ذلك والمسلمون وعـــلى الرغم من ذلك فـــإن هذا التصرف التـــلقائى من بلال يدل على أن الصحـــابـــة كـــانوا يعـــلمون أن أفضل الناس بعد أبى بكر الصديق هو عمر بن الخطاب ولم يـــعتـــرض عـــــلى تـــرشـــيح عـــمر للخـــلافـــة إلا عدد قـــليـــل من كبـــار الصحـــابـــة، وعـــللوا ذلك بغـــلظته وشدته، لكن أبـــا بكر طمأنهم وبين لهـــم أن مـــــا يجدونه من شدته، إنمـــا هو لله وفـــى الله، وإنه يشتد لأنه يـــرانـــــى أحيـــانًا لينًا، حتـــى يحدث نوعًا من التعـــادل، وأنه لو أفضـــى الأمر – أى الخلافة - إليه لترك كثيرًا مما هو فيه ولا يقـــلل هذا الاعتراض من سداد

رأى أبي بكر فى عمر، ولا من شـــأن عمر نفسه، بـل يدل ذلك عـلى حريـة الرأى تجـاه الشخصيـة التـى ستلى أمر الخلافة، فلن يضير عمر أن نفرًا من ذوى الرأى لم يـؤيدوا ترشيحه، بـل يكفيه أن أغـلب الصحـابة أجمعوا على تزكيته، ورضـوا به لهذا المنصب الجـليـل، وهذا مـا تسير عـليه الآن الأمم الحرة فى اختيار حكامها، فالإجماع ليس شرطًا ضروريًا فى اختيار الحاكم اطمـأنت نفس أبـى بكر الصديق بعد أن استشار كبار الصحابة إلى اختيـار عمر بن الخطـاب خـليفـة من بعده، فأشرف على الناس وهو مريض، وقـال: أترضون بمن أستخلف عليكم ؟، فإنى والله ما آلوت مـن جـهد الرأى، ولا وليـت ذا قـربـة، وإنـى قد وليت عـليكم عمر بن الخطاب، فاسمعوا له وأطيعوا فقالوا:سمعنا وأطعنا بايع المسلمون عمر بن الخطاب، وبذا أصبحت خلافته شرعية وبعد الفراغ من دفن أبي بكر الصديق صعد عمر بن الخطاب منبر رسول الله صـلى الله عليه وسلم، ووقف على درجة أدنى من الدرجة التـى كـان يقف عـليهـا أبو بكر الصديق، فحمد الله وأثنـى عـليه وصـلى عـلى النبـى صـلى الله عـليه وسلم، وذكر أبا بكر –رضىالله عنه – بكـل خير، وقـال: أيهـا النـاس مـا أنا إلا رجل منكم، ولولا أنـى كرهت أن أرد أمر خـليفـة رسول الله مـا تقلدت أمركم، فأثنى المسـلمون عليه خيرًا، وزاد ثناؤهم حين رأوه يرفع بصره إلى السماء ويقول :اللهم إنى غليظ فليّنّى، اللهم إنى ضعيف فقونى، اللهم إنى بخيل فسخّنى

وفـى اليوم التـالى لتوليه الخـلافة خطب خطبة أخرى، أراد أن يوضح فيهـا طريقته فـى الحكم، ويزيل ما قد علق فى نفوسهم من خوفٍ من شدته التـى صرحوا بهـا لأبـى بكر حين رشحه للخلافة، فقال: بلغنى أن النـاس هابوا شدتى وخافوا غلظتى، وقالوا: كان عمر يشتد علينا ورسول الله بين أظهرنـا، ثم اشتد علينا وأبو بكر والينا دونه، فكيف وقـد صـارت الأمـور إليـه ؟ ومـن قـال ذلك فقد صدق إننـى كنت مع رسول الله فكنت عبده وخـادمه، وكـان من لا يبلغ أحد صفته من اللين والرحمـة، وكـان كمـا قـال الله تعالى بالمؤمنين رءوفًا رحيمًا، فكنت بين يديه سيفًا مسـلولا، حتـى يغمدنـى أو يدعنـى فأمضى، فلم أزل مـع رسـول الله حتـى توفـاه الله، وهو عنـى راضٍ، والحمد لله كثيرًا، وأنـا به أسعد، ثم ولى أمر المسـلمين أبو بكر، فكـان من لا تنكرون دعته وكرمه ولينه، فكنت خـادمه وعونه، أخـلط شدتى بلينه، فأكون سيفًا مسـلولا، حتـى يغمدنى أو يدعنى فأمضى، فلم أزل معه كذلك حـتـى قـبضـه الله عـزَّ وجـل، وهو عنـى راضٍ، فـالحمد لله عـلى ذلك كثيرًا، وأنـا به أسعد، ثم إنـى وليت أموركم أيها الناس، فاعلموا أن تـلك الشـدة قـد أضـعفت – أى زادت - فـارتعد بعضهم من الخوف لكنه طـمـأنهم فقـال: ولكنهـا إنمـا تكون عـلى أهـل الظـلم والتعدى عـلى المسـلمين، فـأمـا أهـل السلامة والقصد – أى الاعتدال – فأنا ألين لهم مـن بـعضـهم عـلى بعض، ولست أدع أحدًا يظـلم أحدًا أو يتعدى عـليه حـتـى أضع خده عـلى الأرض، وأضع قدمـى عـلى الخد الآخر، حتـى يـذعـن بـالحق، وإنـى بعد شدتـى تـلك أضع خدى عـلى الأرض لأهـل العفـاف وأهـل الكفـاف، ولكم عـلى أيهـا النـاس خصال أذكرها لكم، فخذونـى بهـا، لكم على ألا أجبى شيئًا من خراجكم، ولا ما أفاء الله عـليكم إلا من وجهه، ولكم عـلى إذا وقع فـى يدى ألا يخرج منـى إلا فـى حـقه، ولكـم عـلى أن أزيـد عطـايـاكم وأرزاقكم إن شـاء الله– تعالى – وأسد ثغوركم، ولكم على ألا ألقيكم فى المهالك، وإذا غبتم فـى البـعوث فـأنـا أبو العيـال – أى يرعـاهم - فـاتقوا الله عبـاد الله وأعينونـى على أنفسكم بكفها عنى، وأعينونى على نفسى بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وإحضارى النصيحة فيما ولانى الله من أمركم، أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم.

الفتوحات فى عهد عمر بن الخطاب:

مواصلة فتح العراق:

بعد أن رحل خالد بن الوليد من العراق إلى الشام؛ ليتولى قيادة الجيوش فـــى اليرموك؛ تنمَّر الفرس بـــالمثنى بن حارثة خليفة [illegible] عـــلى قيادة الجيش فى العراق وبدءوا فى الضغط عليه، فطلب مددًامن أبى بكر، الذى كان مشغولا بحرب الروم فـــلمـــا تـــأخر رد الصديق أبى بكر على المثنى جاء بنفسه ليعرف سبب ذلك، فوجد الخـــليفـــة عـــلى فراش المرض، فـــلم يستطع أن يكلمه، ولمـــا عـــلم بذلك الخـــليفة أدرك أن المثنى لم يأت إلا لضرورة، فكان أخـــر كـــــلامـــه لعـــمر بـــن الخـــطـــاب أن أوصـــاه بتجهيز جيش، يرســـله مع المـــثنـــــى إلى العراق، لصد عدوان الفرس، فعمـــل عمر بوصيـــة أبـــى بكر، وأرســـل جيشًا عـــلى الفور إلى العراق بقيـــادة أبى عبيد بن مسعود الثقفى.

موقعة الجسر:

وفـــى شهر شعبان من سنة ١٣هـــ خاض أبو عبيد بن مسعود معركة ضـــد الفـــرس سميت بموقعـــة الجسر، لأن المســـلمين أقـــاموا جسرًا عـــلى نهر الفرات لعبور قواتهم البـــالغة تسعة آلاف جندى، وكان عبورهم النـــهر خـــطـــأ عـــسكـــريًا جسيمًا وقع فيه أبو عبيد، ولم يستمع إلى نـــصيـــحـــة قـــادة جيشه ومنهم المثنـــى بن حـــارثـــة، الذين نبهوه إلى خـــطورة ذلك، وأن مـــوقـــف المـــســـلمين غربـــى النهر أفضـــل وضع لهم، وليتركوا قوات الفرس تعبر إليهم، فـــإذا انتصروا كـــان عبور النهر إلى الشـــرق أمـــرًا ســـهـــــلا، وإذا انهزموا كـــانت الصحراء وراءهم يتراجعون فـــيهـــــا، ليـــعيـــدوا تـــرتيب أوضـــاعهم، لكن أبـــا عبيد لم يستجب لهم، فحـــلت الهزيمـــة بـــالمســـلمين عـــلى يد القائد الفارسى بهمن جاذويه، وقُتل أبو عبيد نفسه، واستشهد أربعة آلاف مسلم.

موقعة البويب:

بـــذل المـــثنـــى بن حـــارثـــة جهدًا كبيرًا فـــى تـــأمين عبور من بقـــى من قوات المســـلمين إلى الناحية الأخرى، وأدرك أنه لابد من خوض معركة أخـــرى مـــع الفـــرس، حـــتـــى لا تـــؤثر الهزيمـــة فـــى معنويـــات المســـلمين، وبخـــاصـــة أنها كـــانت أول مرة يهزمون فيهـــا فى هذه الجبهة منذ أن بدأت الفتوحات اســـتدرج المـــثنـــــى بـــن حـــــارثـــة قوات الفرس للعبور إلى غرب النهر، فـــعبـــروا إليـــه مدفوعين بنشوة النصر الســـابق، وظنوا أن تحقيق نصر آخر سيكون أمرًا سهـــلا، لكن المثنـــى فاجأهم بعد أن استثار حمية العـــرب القـــــاطنين فـــى المنطقـــة، وأوقع بـــالفرس هزيمـــة كبيرة، عـــلى حافة نهر يُسمى البويب الذى سميت المعركة باسمه وعـــلى الرغم من هذا النصر الذى أعـــاد به المثنـــى الثقة إلى قواته، فـــــإنـــه أدرك بـــعد طـــول تـــجربـــة أنه لن يستطيع بمن معه من قوات أن يواجه الفرس الذين ألقوا بثقـــلهم كله فى الميدان، فتراجع إلى الخلف، ليكون بمأمن من هجمات الفرس، وأرسل إلى عمر يخبره بحقيقة الموقف.

معركة القادسية:

لمـــا وصـــلت إلى عمر بن الخطـــاب تقـــارير المثنـــى عن الوضع فى جـــبهـــــة العـــراق عـــزم عـــــلى الخـــروج بـــنفسه عـــلى رأس جيش كبير، لينســـى الفرس وســـاوس الشيطـــان كمـــا أنســـى خالد بن الوليد الروم تلك الوساوس، لكن الصحابة لم يوافقوه على رأيه، ورأوا أن الأفضل أن يـــبقـــى هو فـــى المدينـــة يدير أمور الدولة، ويشرف عـــلى تجهيز الجـــيوش، ويـــختـــــار واحـــدًا لقيـــادة الحرب ضد الفرس، فقبـــل نصيحتهم، وقال لهم: أشيروا على، فأشاروا عليه بسعد بن أبى وقاص، وقالوا عنه: هو الأسد فـــى عرينه، فـــاستدعـــى سعدًا وأمَّره عـــلى الجيش، فاتجه به سعد إلى العراق حيث عسكر فى القادسية

وقبل نشوب المعركة أرسل سعد وفدًا إلى بلاط فارس، ليعرض الإسلام على يزدجرد الثالث أخر ملوكهم، فإذا قبله فسيتركونه ملكًا على بلاده، كما ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم باذان ملكًا على اليمن، وإذا رفض الدخول فى الإسلام، فلن يكرهه عليه أحد، ولكن لابد من دفع الجزية دليلا على عدم المقاومة، فإذا امتنع عن دفعها، حاربوه، لأن رفضه دفع الجزية يعنى عزمه على حرب المسلمين، ومنعهم بالقوة من تبليغ دعوة الإسلام إلى الناس سمع يزدجرد هذا الكلام، فأخذه العجب، وعلته الدهشة؛ لأنه لم يتعود سماع مثل هذا الكلام من هؤلاء الناس، فخاطب رئيس الوفد قائلا :إنى لا أعلم أمة كانت أشقى، ولا أقل عددًا، ولا أسوأ ذات بين منكم، قد كنا نوكل بكم قرى الضواحى –الحدود– فيكفوناكم، لا تغزون فارس، ولا تطمعون أن تقوموا لهم وإن كان الجهد – الجوع – دعاكم فرضنا لكم قوتًا إلى خصبكم، وأكرمنا وجوهكم وكسوناكم، وملكنا عليكم ملكًا يرفُق بكم فقام زعيم الوفد ورد على الملك الذى كان لا يزال يتحدث بروح السيادة، ومنطق الاستعلاء، قائلا: إن ماقلته عنا صحيح قبل بعث النبى صلى الله عليه وسلم، الذى قذف الله فى قلوبنا التصديق له واتباعه، فصار فيما بيننا وبين رب العالمين، فما قال لنا فهو قول الله، وما أمرنا فهو أمر الله وقال: من تابعكم على هذا فله مالكم وعليه ما عليكم، ومن أبى فاعرضوا عليه الجزية، ثم امنعوه مما تمنعون منه أنفسكم، ومن أبى فقاتلوه رفض الملك هذا العرض فى كبرياء وصلف، ثقة منه بقدرة جيوشه بقيادة رستم على سحق هؤلاء العرب، وعاد الوفد إلى سعد بن أبى وقاص وقصوا عليه ما حدث، فاستعد هو للمعركة الحاسمة وفى القادسية دارت رحى الحرب بين الفريقين، واستمرت ثلاثة أيام ونصف اليوم الرابع، وأسفرت عن نصر حاسم للمسلمين، وهزيمة منكرة للفرس، وقتل قائدهم رستم، وتشتيت من نجا منهم من القتل وتُعد معركة القادسية من المعارك الفاصلة فى التاريخ؛ لأنها حسمت أمر العراق العربى نهائيا، وأخرجته من السيطرة الفارسية التى دامت قرونًا، وأعادته إلى أهله العرب المسلمين.

فتح المدائن:

انفتح الطريق أمام المسلمين بعد انتصارهم فى القادسية إلى المدائن عاصمة الفرس، فعبر سعد نهر دجلة من أضيق مكان فيه بنصيحة سلمان الفارسى، ودخل المدائن؛ ليجد الملك الفارسى قد فرَّ منها، وكان قبل أيام قليلة يهدد المسلمين ويتوعدهم من قصره الأبيض، مقر ملك الأكاسرة، الذى كان آية من آيات الفخامة والبهاء وفى ذلك القصر صلى سعد ابن أبى وقاص صلاة الشكر لله على هذا الفتح العظيم وتلا فى خشوع قول الله تعالى]: كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين كذلك وأورثناها قومًا آخرين فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين [الدخان: ٢٥ –٢٩ أرسل سعد إلى عمر بن الخطاب رسولا يبشره بالنصر وبما حازوه من غنائم، ويطلب منه السماح لهم بمواصلة الفتح فى بلاد فارس، لكن عمر رفض ذلك، وقال له: وددت لو أن بيننا وبينهم سدًا من نار، لا يصلون إلينا ولا نصل إليهم، حسبنا من الأرض السواد – أى أرض العراق– إنى آثرت سلامة المسلمين على الأنفال.

معركة نهاوند:

اعتقد عمر بن الخطاب أن الفرس سيجنحون إلى السلام بعد هزيمتهم فى القادسية، واسترداد المسلمين العراق وهى أرض عربية، لكن الحوادث كثيرًا ماتكون أقوى من الرجال، وتدفعهم دفعًا إلى تعديل سياساتهم، فقد وردت الأنباء إلى عمر أن الفرس التفوا حول ملكهم الذى هرب من المدائن، واحتشدوا فى جموع هائلة فى نهاوندتصل إلى نحو مائتى ألف جندى بقيادة الفيرزان وكانت سياسة عمر بن الخطاب أن يقف بالفتوحات الإسلامية عند حدود العراق والشام،

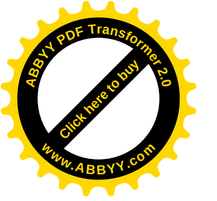
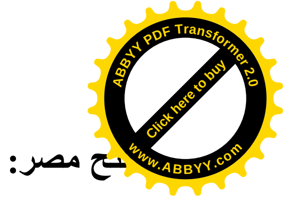
يتعداها، حيث قبائل العرب التى نزحت مـــن شبه الجزيرة العربيـــة وأقـــامت هنـــاك، أمـــا مـــا وراء ذلك من أرض الفر[س] والروم فـــلم يكن للمســـلمين مطمع فـــى غزوه وفتحه، ولكن ليس كـــل مـــا يتمنـــاه المرء يدركه، فقد حمـــلت حوادث الفتوحـــات وتطوراتها عمر بن الخطاب على تعديل سياسته تجاه الفرس والروم ولمـــا وصـــلت أخبـــار اســـتعـــداد الفـــرس جـــمع عمر كبـــار الصحـــابـــة واستشـــارهم فـــى كيفيـــة مواجهـــة هذا الموقف، فأشاروا عليه بتجهيز جيش لردع الفرس قبـــل أن ينقضوا عـــلى المســـلمين فـــى بلادهم، فعمل بـــمشـــورهم، وجهز جيشًا قوامه نحو أربعين ألف مجـــاهد تحت قيـــادة النعمان بن مقرن ودارت مـــعركـــة نـــهـــاوند، وانتهت بنصر عظيم للمســـلمين، وهزيمـــة ســـاحـــقـــة للفـــرس، وقـــد سمـــى المـــؤرخون المســـلمون هذ النصر فتح الفـــتوح، لأن الفـــرس قـــد تـــفرقـــت كـــلـــمـــتهـــم، وانفرط عقد دولتهم بهذا النصر.

الانسياح فى بلاد فارس:

كـــانت معركـــة نهـــاوند من المعارك الفاصلة فى التاريخ، فقد أزالت نهـــائيًا الإمبراطوريـــة الفـــارسية بعد معركتى القادسية ونهاوند، ولم تقم لها قائمة بعد ذلك وبعد نهـــاوند عقد عمر بن الخطاب العزم على القضاء تمامًا على التهديد الفـــارســـى للدولة الإســـلامية ودعوتها، فأعد تسعة جيوش فى وقـــت واحـــد، لفتح جميع المقـــاطعـــات الفـــارسيـــة، من خراســـان فـــى أقصـــى الشمـــال الشرقـــى إلى إقـــليم فـــارس فـــى الجنوب الغربـــى، ومـــن أذربـــيجـــان فـــى الشمـــال الغربـــى إلى مكران فـــى الجنوب الشرقـــى، وفـــى خـــلال سنـــة ٢٢هـــ كـــانت تـــلك المقـــاطعات كلها تحت السيـــادة الإسلامية، ولم يجبر المسلمون أحدًا من سكانها على الدخول فـــى الإســـلام، وإنمـــا قبـــلوا منهم الجزيـــة، وأعطوهم معاهدات، ضمنوا لهم بمقتضاها حرية العبادة، وحفظوا لهم أنفسهم وأموالهم وبدأ تـــاريخ جديد لبـــلاد فارس، ذاقت فيه طعم الحرية والعدل؛ وعرفت معنى المساواة، وتحررت من استبداد الأكاسرة وظلمهم.

استكمال فتح الشام:

بعد تولى عمر بن الخطـــاب الخلافة عزل خالد بن الوليد من قيادة جيوش الشـــام، وأعـــاد أبـــا عبيدة بن الجراح إليهـــا، وجعل خالداً تحت قيـــادته، وقد قبـــل القـــائد البطل هذا التعديل دون تذمر، لأنه كان جنديًا يعمـــل للإســـلام لا لمجده الشخصـــى، وإذا كـــان قد احتـــل المكـــان الأعـــلى بين قـــادة الفتوحـــات ببطولاته وانتصـــاراته، فإنه اعتلى ذروة أعلى بقبوله العزل، وضرب أروع الأمثلة فى الانضباط والطاعة، وتلك أهم صفات القادة العظام وكـــانت تعـــليمـــات عمر لأبى عبيدة بعد اليرموك، أن تعود الأمور إلى مـــا كـــانت عليه من قبل فى مطلع فتح الشام، حين رتب ذلك أبو بـــكر الصـــديـــق، فـــيســـير أبـــو عـــبيـــدة ومعه خـــالد بن الوليد إلىحـــمص، ويـــزيـــد بـــن أبـــى سفيـــان إلى دمشق، وشرحبيـــل بن حـــسنـــة إلى الأردن، وعمرو بن العـــاص إلى فـــلسطين، وكـــل قـــائد يكون أميرًا عـــلى منطقته التـــى يفتحها، على أن يكون ذلك بعد أن يشتركوا جميعًا فى فتح دمشق وبـــعد أن نـــجح القـــــادة جـــميـــعهـــم فـــى فتح دمشق وأعطوا أهـــلهـــا معاهدة صلح بقى يزيد بن أبى سفيان أميرًا عليها، فى حين اتجه القـــادة البـــاقون إلى منـــاطقهم، وفـــى خلال عامين فقط تم فتح الشام كله وفـــى ســـنـــة ١٥ هـــ جـــاء عمر ابن الخطـــاب إلى فلسطين؛ ليتسلم مفـــاتيح بيت المقدس من البطريك صفرونيوس، وأعطـــى معاهدة لأهـــلهـــا هـــى آية فى التسامح والعدل، أمنهم على عقائدهم وأموالهم وأنـــفســـهم، وأخـــذت مـــنهـــم نـــظيـــر ذلك الجـــزيـــــة لرفـــضهم الدخول فـــى الإسلام وقد رفض عمر بن الخطـــاب أن يصـــلى فـــى كنيسة القيامة، معللا ذلك بـــخوفه أن يـــأتـــى من المســـلمين من يقول: لقد صـــلى عمر فـــى الكنيسة فهى من حقنا، وهذا ظلم للمعاهدين لا يقره عمر.

فتح مصر:

بعد فتح بيت المقدس اتجه عمر إلى الشمال، وعقد في الجابية جنوبي دمشق مؤتمرًا حضره جميع القادة المسلمين، ناقش فيه ما تم إنجازه والترتيبات اللازمة لإدارة البلاد المفتوحة إدارة حسنة، والعمل على إشاعة العدل والحرية بين الناس بعد الظلم والاستبداد والاستعباد الذى ذاقوه من الروم

وفى هذا المؤتمر عرض عمرو بن العاص والى فلسطين على عمر بن الخطاب ضرورة فتح مصر، لأن فلول قوات الروم فى الشام لجأت إلى مصر التى كانت فى ذلك الوقت تحت حكم الروم، كما لجأ الأطربون قائد قواتهم فى فلسطين إلى مصر؛ ليستعد من جديد للانقضاض على المسلمين فى الشام، ولذا فإن بقاء مصر فى أيدى الروم سيكون خطرًا على فتوحات المسلمين فى الشام، بل قد يصل الخطر إلى شبه الجزيرة العربية نفسها

ولما اقتنع عمر بن الخطاب بما أبداه عمرو بن العاص أذن له بالسير إلى مصر لفتحها، فخرج فى أربعة آلاف جندى، ودخل العريش دون قتال، ثم توجه إلى الفرما مدينة قديمة شرقى بور سعيد ففتحها بعد معارك يسيرة مع حاميتها الرومية، ثم توجه إلى بلبيس فى محافظة الشرقية الحالية، فهزم جيشًا روميا كان يقوده الأطربون، ثم هزم الروم مرة أخرى فى عين شمس

ولما تجمعت قوات الروم كلها فى حصن بابليون بالقرب من مصر القديمة الحالية؛ طلب عمرو مددًا من الخليفة عمر، فأمده بثمانية آلاف جندى، مكنته من فتح الحصن والاستيلاء عليه، ثم اتجه إلى الإسكندرية ففتحها، وأرسل فرقة من قواته لفتح الفيوم

وفى نحو عامين ١٩ – ٢١هـ فُتحت مصر بأكملها، وكان فتحًا سهلا ويسيرًا، لأن القبط لم يشتركوا فى معارك ضد المسلمين، بل ساعدوهم وقدموا لهم يد العون، فدلوهم على أيسر الطرق، وأمدوهم بالطعام، تخلُّصًا من حكم الروم الذين اضطهدوهم دينيا، مع أنهم مسيحيون مثلهم، وأرهقوهم بالضرائب، واستغلوهم أبشع استغلال ولما تعامل أهل مصر مع الفاتحين المسلمين أدركوا أن ما سمعوه كان حقيقة، فقد منحوهم الحرية الدينية الكاملة، وأعادوا بطريركهم بنيامين إلى كنيسته بالإسكندرية، وكان الروم قد نفوه إلى وادى النطرون، و قد حفظ الرجل هذا العمل الجليل لعمرو بن العاص، فعاونه كثيرًا فى إدارة مصر إدارة حسنة وقد أتاح الفتح الإسلامى لمصر جوا من الحرية والتسامح لم تشهده البلاد منذ زمن بعيد، بنص المعاهدة التى أعطاها عمرو بن العاص لأهل مصر :بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان على أنفسهم وملتهم وأموالهم وكنائسهم وصلبهم وبرهم وبحرهم، لا يدخل عليهم شىء من ذلك ولا ينتقص، ولا يساكنهم النوب – أهل النوبة – وعلى أهل مصر أن يعطوا الجزية، ومن دخل فى صلحهم من الروم والنوب، فله مثل ما لهم، وعليه مثل ما عليهم، ومن أبى واختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه، على ما فى هذا الكتاب عهد الله، وذمة رسوله، وذمة الخليفة أمير المؤمنين، وذمة المؤمنين وقد عمل المسلمون بوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم التى أوصاهم فيها بأهل مصر خيرًا عندما يفتحوها؛ لأن لهم ذمة ورحمًا، كما نصحهم أن يتخذوا منها جندًا كثيفًا، فأجنادها من خير أجناد الأرض، لأنهم وأزواجهم فى رباط إلى يوم القيامة.

عوامل نجاح الفتوحات الإسلامية فى عهد عمر:

خلال السنوات العشر التى تولى عمر فيها الخلافة ١٣ – ٢٣هـ امتدت حدود الدولة الإسلامية من ولاية برقة – فى ليبيا حاليًا –غربًا إلى نهر جيحون شرقًا، ومن بحر قزوين فى الشمال إلى المحيط الهندى فى الجنوب وقد حار المؤرخون فى تفسير نجاح هذه الفتوحات، وتعليل أسبابها، فقد أذهلهم أن العرب الذين كانوا قبل دخولهم الإسلام قليلى الشأن، لا حول لهم ولا قوة، ولا يأبه بهم أحد ولا يحسب لهم حساب، هم فى سنوات قليلة ينجحون فى إزالة الإمبراطورية الفارسية كلها، وهى التى وقفت ندًا للإغريق والرومان نحو ألف سنة، وفى فتح الشام، ومصر وهما أعظم ولايات الدولة البيزنطية وأكثرها غنى فى الشرق بعد إنزال هزائم قاسية بجيوشها فى اليرموك وغيرها وسبب حيرة هؤلاء المؤرخين أنهم يربطون عادة بين الانتصارات والهزائم فى الحروب، وبين أعداد الجيوش المتحاربة وما معها من عدة وأسلحة، ولما كان المسلمون أقل عددًا وعتادًا على نحو لا يقارن بما كان عند الفرس والروم، راحوا يبحثون عن أسباب أخرى غير قضية العدد والأسلحة، وذهبوا فى ذلك مذاهب شتى ذهب بعضهم إلى القول بأن المسلمين واجهوا دولتى الفرس والروم، وهما فى حالة ضعف وانهيار بعد الحروب الطويلة التى دامت بينهما، وانتصروا عليهما بسهولة وفى وقت قصير غير أن هذا التفسير بعيد عن الواقع ومخالف للحقيقة، فالمعارك التى دارت فى القادسية ونهاوند و اليرموك لا تؤيد هذا التعليل؛ لأنها كانت معارك كبيرة، ولم تكن جيوش الفرس والروم فيها ضعيفة، وهى لم تهزم أمام المسلمين لضعف قوتها المادية من الرجال والأسلحة، ولكن لأن معنويات أفرادها كانت منحطة إلى أبعد الحدود، فى حين كانت معنويات المسلمين عالية، ويعرفون الهدف الذى يحاربون من أجله، وكان الموت أحب إليهم من الحياة وهذا هو السبب الرئيسى فى انتصاراتهم الذى نسيه الكتاب الغربيون أو تناسوه، فمنبع هذه القوة وسبب هذا الانقلاب العظيم الذى لا يوجد له مثيل فى التاريخ أن العرب أصبحوا بفضل رسالة الإسلام أصحاب دين ورسالة، فبعثوا بعثًا جديدًا، وخُلقوا من جديد، وعلموا أن الله قد ابتعثهم ليخرجوا الناس من الظلمات إلى النور، ومن عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، وعرفوا أن الله قد ضمن لهم النصر ووعدهم الفتح، فوثقوا بنصر الله ووعد رسوله، واستهانوا بالقلة والكثرة، واستخفوا بالمخاوف والأخطار

وفى ذلك قال المؤرخون: لما أقبل خالد بن الوليد من العراق، ليتولى قيادة الجيوش فى الشام لحرب الروم، قال رجل من نصارى العرب أمامه: ما أكثر الروم وأقل المسلمين، فنهره خالد، وقال له: ويحك بل قل: ما أكثر المسلمين وأقل الروم إن الجيوش تكثر بالنصر وتقل بالهزيمة لا بعدد الرجال وهذه الحقيقة عرفها أعداؤهم حتى إن هرقل لما انتهى إليه خبر زحف المسلمين وانتصاراتهم، قال وكان عندئذ موجودًا فى حمص: ويحكم إن هؤلاء أهل دين جديد، وإنهم لا قبل لأحد بهم، فأطيعونى وصالحوهم على نصف خراج الشام، ويبقى لكم جبال الروم، وإن أنتم أبيتم ذلك أخذوا منكم الشام، وضيقوا عليكم جبال الروم.

نتائج الفتوحات الإسلامية وآثارها على العالم:

لقد ترتب على الفتوحات الإسلامية نتائج وآثار بعيدة المدى فى تاريخ العالم،وإذا ما قورنت بغيرها – مثل فتوحات الإسكندر قبلها، وفتوحات #المغول# بعدها – فإن تلك المقارنة تظهر عظمة المسلمين، وأن فتوحاتهم كانت أكثر الفتوحات فى العالم خيرًا وبركة، ففتوحات الإسكندر وامبراطوريته التى شادها فى الشرق انهارت وتمزقت أوصالها بعد وفاته مباشرة، وأصبحت ذكرى من ذكريات التاريخ، أما غزوات المغول التى لم يعرف لها تاريخ العالم مثيلا من قبل فى همجيتها ووحشيتها، فقد دمرت معظم العالم

الإسلامى فى الشرق بما كان فيه من حضارة مزدهرة، ولم يوقف زحفها المدمر سوى الجيش المصرى فى معركة عين جالوت سنة ٦٥٨هـ

وهذه الغزوات المغولية البربرية كان يمكن أن ينساها التاريخ أو يذكرها باعتبارها عملا بربريا ألم بالإنسانية فى مسيرتها الطويلة، لولا أن الله – تعالى – أدرك برحمته الواسعة هذه الجموع الوحشية وهداها إلى دينه، فأسلم أغلب المغول، وأظلهم الإسلام بحضارته، وحولهم من قوة مدمرة إلى طاقة خيرة، ومن أعداء مهاجمين إلى أتباع مدافعين، بل مشاركين فى صنع الحضارة الإسلامية والخلاصة أن كل أرض وصلت إليها الفتوحات الإسلامية انتشر فيها الإسلام بحرية تامة، ودون إكراه، وانتشرت اللغة العربية والثقافةالإسلامية، ولم يتراجع الإسلام عن أية منطقة من العالم وصل إليها سوى الأندلس وكان تراجعه لأسباب تعود إلى المسلمين لا إلى الإسلام وعندما تراجع فى الأندلس، امتد فى مناطق أخرى فى جنوب شرق آسيا وفى أوربا وإفريقيا بدون حرب أو معارك، بل عن طريق الدعاة والتجار المسلمين، مما يدحض كلام من يقول إن الإسلام انتشر بحد السيف كما يردد أعداء الإسلام فى كتاباتهم.

عمر وإدارة الدولة:

تجلت عبقرية عمر بن الخطاب أعظم ما تجلت فى ميادين الإدارة، فقد ضبط نظم الدولة الإسلامية، وكانت مترامية الأطراف، وأحكم إدارتها بمقدرة فائقة تثير الدهشة والإعجاب، فى وقت كانت فيه وسائل الاتصال بطيئة تمامًا ويصعب على أى باحث أن يحيط بالجوانب الإدارية عند عمر بن الخطاب، ولذا سنتعرض لبعض منها

أولا: عمر واختيار الولاة

استعان عمر بن الخطاب برجال يديرون شئون الولايات البعيدة عنه، أما القريبة منه فكان يديرها بنفسه، وكان يقول: ما يحضرنى من أموركم لا ينظر فيه أحد غيرى، أما ما بعد عنى فسوف أجتهد فى توليته أهل الدين والصلاح والتقوى، ثم لا أكتفى بذلك، بل لابد من متابعتهم؛ لأعرف هل يقومون بالعدل بين الناس أم لا ؟

وكان لعمر بن الخطاب طريقة فى اختيار ولاته، فلم يكن يستعمل أحدًا من أهل بيته، وقلما استعمل كبار الصحابة على الأمصار، بل استبقاهم معه فى المدينة ليعينوه فى شئون الدولة، ويقدموا له

المشورة، ومن أهم شروط عمر فى الوالى:

-القوة والأمانة: والمقصود بالقوة قوة الدين، وقوة الإرادة والحزم فى الأمور، ومن أقواله المأثورة: إنى لأتحرج أن أستعمل الرجل وأنا أجد أقوى منه، ولذا فقد عزل شرحبيل بن حسنة عن الأردن، وعمير بن سعد عن حمص، وضم ولايتهما إلى معاوية بن أبى سفيان، وكان المعزولان أسبق إسلامًا من معاوية وأفضل، فلما كلمه الناس فى ذلك قال إنه لم يعزلهما عن سخط أو خيانة، ولكنه كان يريد رجلا أقوى من الرجل

الهيبة مع التواضع: أدرك عمر بن الخطاب حاجة ولى الأمر إلى الهيبة واحترام الناس، حتى يستطيع أن يقود ولكن لا ينبغى لها أن تتجاوز الحد لتصبح تسلطًا وتعاليًا، وكان يقول: أريد رجلا – أى واليًا – إذا كان فى القوم وليس أميرهم، كان كأنه أميرهم، وإذا كان أميرهم كان كأنه واحد منهم

-الرحمة بالناس: كان عمر يختار للولاية من اشتهر بالرحمة ولين الجانب وحب الخير للناس، وحين كان يولى أحدًا يكتب له كتاب تولية، ويشهد عليه بعض الصحابة، ويشترط عليه ألا يظلم أحدًا فى جسده ولا فى ماله، ومن وصاياه لعماله: ألا وإنى لم أبعثكم أمراء ولاجبارين، ولكن بعثتكم أئمة الهدى، يهتدى بكم فادرءوا على المسلمين حقوقهم، ولا تضربوهم فتذلوهم، ولاتغلقوا الأبواب دونهم،فيأكل قويهم ضعيفهم، ولا تستأثروا عليهم فتظلموهم، ولا تجهلواعليهم

ثانيًا: قواعد العمل بالنسبة إلى العمال والولاة:

لم يكن عمر يقنع بحسن اختيار الولاة وفق شروطه، وإنما كان يحدد لهم أسلوب العمل، والقواعد التى يسيرون عليها، إما فى صورة خاصة محددة كما كان يحدث فى عهد الولاية، وإما فى توجيهات عامة كما فى المؤتمرات التى كان يعقدها للعمال والولاة، وبخاصة فى موسم الحج

ثالثًا: المتابعة:

فطن عمر بن الخطاب إلى فاعلية المتابعة، وأثرها فى حسن سير الإدارة، ولذا لم يكتفِ بالتدقيق فى اختيار الولاة، وإنما وضع عليهم العيون والأرصاد، يحصون عليهم حركاتهم وسكناتهم، ويسجلون أعمالهم وينقلونها إلى الخليفة فور وقوعها، لأنه أدرك أن الخطأ قد يقع بدون قصد، وأن الانحراف لا يبدأ كبيرًا، وأن كل شىء يمكن وقفه فى أوله قبل استفحاله، عملا بالحكمة الخالدة:الوقاية خير من العلاج

رابعًا: سياسة الباب المفتوح:

أدرك عمر بن الخطاب أن آفة الإدارة فى كل عصر هى احتجاب كبار المسئولين عن أصحاب الحاجات فتضيع مصالح الناس أو تتعطل، ولذا لم يكن يتهاون مع أى أمير أو والٍ يسمع أنه يحتجب عن الناس مهما يكن شأنه، وحين بلغه أن سعد بن أبي وقاص قد بنى بيتًا فى الكوفة من طابقين، وسماه الناس قصر سعد، لأن بقية البيوت كانت من طابق واحد، وأنه اتخذ لمكانه الذى يباشر منه أعمال الولاية بابًا، أرسل إليه محمد بن مسلمة الأنصارى، وكان مبعوث عمر فى المهمات الكبيرة، وأمره أن يحرق ذلك الباب الذى يحول بين الأمير وبين الناس، وأن يقدم بسعد معه، فلما قدم عليه وبخه ولم يقبل اعتذاره بأن داره قريبة من السوق وأنه كان يتضايق من ارتفاع أصوات الناس وجلبتهم، ثم رده إلى عمله بعد أن أكد عليه ألا يعود إلى مثل هذا أبدًا

خامسًا: المؤتمرات العامة:

ابتكر عمر عقد المؤتمرات العامة لمناقشة أمور الدولة، حتى يتيح لأكبر عدد من المسلمين المشاركة فى صنع السياسة والقرار بالحوار والمشاورة، فاهتدى إلى استثمار مناسبة الحج، وتجمع الناس فى البلد الحرام، وقرر أن يحج كل عام، عدا

لسنة الأولى من خلافته، وأن يحج معه كل ولاة الأمصار، وهناك يدور النقاش والحساب مع الولاة عما ص في عامهم الذى مضى، وما ينوون عمله فى العام القادم، وفوق ذلك تكون تقارير عيونه بين يديه قبل مجيء الولاة، بحيث تكون أمورهم كلها واضحة، ولا يستطيع أحد منهم أن ينكر شيئًا، ولما كانوا يعرفون ذلك فإنهم حرصوا على أن تكون سجلات أعمالهم نظيفة، فالخليفة لا يتهاون فى حساب المقصر أو من تثبت عليه مخالفة لشرع الله

سادسًا: محاسبة الولاة والأمراء:

دأب عمر بن الخطاب على محاسبة كل والٍ مقصر، أو من يشتبه أنه قصر فى عمله، لا يمنعه من ذلك كون الوالى كبير القدر أوصاحب سابقة فى الإسلام، وقلما نجا والٍ من ولاته من المحاسبة، وإذا كان الجرم صغيرًا يمكن إصلاحه؛ اكتفى بالتوبيخ، ورد الوالى إلى عمله كما فعل مع سعد بن أبى وقاص، أما إذا كان الجرم كبيرًا من وجهة نظره؛ فإنه يأمر بعزل الأمير على الفور، ومن أشهر إجراءاته فى هذا المجال: عزله خالد بن الوليد حين علم بأنه أعطى الأشعث بن قيس عشرة آلاف درهم، فساورته شكوك فى أن من يعطى عشرة آلاف مرة واحدة لرجل واحد، كم يكون لديه ؟ فأمر أبا عبيدة بن الجراح أمير الأمراء فى الشام بمحاكمة خالد ومقاسمته ماله، فامتثل خالد لهذا العزل كما امتثل من قبل للعزل الأول عن القيادة العامة ولم يكن عمر يقصد بهذا التصرف الإساءة إلى خالد قط، وإنما كان يريد أن يعلم الجميع أن الإسلام فوقهم، وليس هناك استثناء لمخالف، ولو كان قائدًا عظيمًا فى مكانة خالد.

سابعًا: القدوة الحسنة:

أدرك عمر أثر القدوة فى سياسة الناس، وأن عليه أن يعلم الناس بأعماله قبل أن يعلمهم بأقواله وكثيرًا ما كان يردد للناس قوله :سأسوكم بالأعمال وليس بالأقوال، وأن الرعية مؤدية إلى الإمام ما أدى الإمام إلى الله، فإن رتع الإمام رتعوا وكان عمر قدوة فى حياته الخاصة، يعيش كما يعيش عامة الناس دون تمييز، وحين فرضوا له عطاءً راتبًا من بيت مال المسلمين، ليعول منه أسرته قدروا له راتبًا يمكنه من معيشة رجل من أوسط الناس، لا أغناهم ولا أفقرهم وفوق ذلك هو يشارك المسلمين ويواسيهم إذا أصابهم ضر، كما حدث فى عام الرمادة المشهور سنة ١٨هـ الذى أصاب الناس فيه مجاعة شديدة فى شبه الجزيرة العربية لقلة الأمطار، فكان يجلب إليهم الأقوات من الأمصار، ويأكل مما يأكله الناس، حتى ساءت صحته، فنصحه بعض أصحابه بأن يحسِّن من طعامه، ليقوى على العمل وإنجاز مصالح المسلمين، لكنه أجاب بقوله: كيف يعنينى

شأن الرعية إذا لم يصبنى ما أصابهم؟

ولا شك أن ما عبر عنه الخليفة عمر هو مفتاح الحكم الصالح فى كل عصر وزمان فيوم يحس الحاكم بإحساس شعبه فسوف يستقيم الحكم، وينصلح حال الرعية، ويوم ينفصل الحاكم عن شعبه، وتكون له حياته الخاصة، فحينئذٍ ينفتح باب الفساد، وقد حرص عمر على أن يجعل من أبنائه وأهله قدوة كذلك،

فأخذهم بما أخذ به نفسه، لأنه الناس ينظرون إليهم، وكان يقول لهم إذا عزم على أمر يهم المسلمين: لقد عزمت على كذا وكذا، أو نهيت الناس عن كذا وكذا، وأقسم بالله لو خالفنى أحد منكم لأضاعفن له العقوبة

بهذه الإجــراءات حصن عمر نفسه وأولاده وكــل من يــلوذون به ضد أيــة انحرافــات أو إغراءات، فأطاعه المسلمون وأحبوه سواء أكانوا أمــراء أم مــن عــــامــــة النــاس، ولم يعرف التــاريخ رجــلا بعد رسول الله صـــلى الله عـــليــه وســلم وأبــى بكر الصديق أطــاعه كبــار الأمراء وصــغــــارهــم كمــا أطــاعوا عمر بن الخطــاب، لا لهيبته فــى عيونهم فحسب، بــل للقدوة الحسنــة فــى حيــاته وانضباطه الشديد، ولهذا كله احتل مكانة عالية فى التاريخ الإنسانى.

عدل عمر بن الخطاب:

لم ترتبط صفــة من صفــات عمر الكثيرة بــاسمه كمــا ارتبطت به صفــة العــدل، فــإذا ذُكــر عــمر ذكــر النــاس عدله، الذى كــان لا يفرِّق بين قــريــب وبــعيد، أو كبير وصغير، أو صديق وعدو، والأخبــار المتواترة

فــى ذلك أكثر من أن تحصــى، ولعــل قصته مع أبي مريم السلولى قــاتــل أخيه زيد فى معركة اليمامة أصدق مثال على تجرده فى عدله، وعدم خــلطه بين عواطفه ومسئوليــاته بــاعتبــاره حــاكمًا يُجرى العدل بين الناس

فحين قابل عمر – وهو خليفة – قاتل أخيه بعد أن أسلم، قال له :أأنت قــاتل زيد بن الخطاب؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، قال: والله لا أحبك أبدًا، فقال أبو مريم : أو تمنعني بذلك حقا لي، قال: لا قــال: إذًا يــا أمير المــؤمنين إنمــا يــأســى عــلى الحب النساء يريد أنه مــادام لا يظلمه الخليفة فلا يعنيه أحبه أم كرهه، لأن النساء هن اللائى

يأسفن على الحب ولا لوم عــــلى عــمر فــى التعبير عن عواطفه التــى لا يمــلكهــا تجــاه قــاتــل أخيه، فقد ورد أن النبــى صــلى الله عــليه وسلم قال لوحشى قــاتــل عمه حمزة بن عبدالمطلب حين رآه بعدما أسلم: غيِّب وجهك عنــى يــا وحشى لا أراك ولكن للقصة دلالة على ضبط النفس والتجرد المطلق لعمر ابن الخطاب، فلم يحمله غضبه من قاتل أخيه على ظلمه

وامــتد عــدل عــمر ليشمــل كــل من يعيش عــلى أرض الإســلام، سواء أكــــانــوا مســلمين أم غير مســـلمين، فحين رأى يهوديــا يتسول أحزنه ذلك وأخذ الرجــل من يده، وأعطــاه معونــة عاجلة من بيت الدقيق،وأمر له براتب دائم من بيت مال المسلمين.

إحساسه بالمسئولية:

بـــلغ مــن شــدة إحــســـاس عمر بــالمسئوليــة أنه لم يكتفِ بــأن يكون مــسئــولا عــن حــيــــاة البشر الذين يعيشون فــى دولته، بــل مسئولا عن البــهــائم والدواب أيضًا وذلك فــى مقولته الشهيرة: والله لو أن بغــلة عــثرت بــشط الفــرات لكـــنت مــسئــولا عــنهــــا أمــام الله، لــماذا لم أعبد –أسوى – لها الطريق وأعــمـــــال عــمر العــظيــمــــــة مــن الفــتوحـــــات واستكمــال بنــاء الدولة ومــؤسســـاتهــا لم تشغله عن متابعة أحوال الناس وتفقدها؛ ليقف على أوجه النقص ليتــلافــاهــا أولا بــأول، فكان كثير الطواف ليلا بالمدينة، وسمع ذات ليــلة طفلا يبكى بكاء مستمرا، فسأل عن أمره، فعرف أن أمه منعت عنه الرضــاع، لأنه لا يُفرض عطــاء من بيت المــال إلا للأطفال المــفطــومــين، فــانزعج عمر، وأصدر أوامره أن يفرض عطــاء لكــل مولود فى الإسلام، ونادى مناديه: لا تعجلوا فطام أولادكم

وحــوادث عمر التــى من هذا القبيــل كثيرة، وقد يظنهــا بعض النــاس أنهــا من المبــالغــات، ولكنهــا متواترة فــى المصـــادر التى أرَّخت لعمر وعصره، فمن يصدق أن خــليفــة المسلمين يأخذ امرأته أم كلثوم بنت عــلى بن أبي طالب ومعها كل

ما تحتاج إليه عملية ولادة، لمساعدة امرأة غريبــة جــاءهــا المخــاض، فيشترك هو معهــا فى الإشراف على ولادهــا؛ وصنع الطعــام لها، ولما أنجز مهمته، قال لزوج المرأة: إذا كان الغد فأتنا نأمر لك بما يصلحك، ففعل الرجل فأجازه وأعطاه.

عمر والقضاء:

عندما بويع أبو بكر بالخلافة شكى لعمر من كثرة أعبائها وخوفه مــن عــدم النــهوض بــكــل مسئوليــاهــا، فقــال له عمر: أنــا أكفيك القــضـــــاء وأبــو عــبيدة يكفيك الأموال، ومعنـــى ذلك أن عمر كــان قاضيًا لأبى بكر

وفــى عهد عمر اتسعت الدولة، واحتــاج كل إقليم إلى قاضٍ، فعين عمر القضــاة وكــان يدقق في اختيارهم، فعين: شريح بن الحارث الكندى عــلى قضــاء الكوفــة، وأبا الدرداء على قضاء الشام، وعثمان بن قيس على قضاء مصر

ولم يــكن عمر فــى حــاجــة إلى سن قوانين للقضــاة، لأهم يحكمون طبقًا لكتــاب الله وسنــة رسوله، ولكنه كــان فــى حــاجــة إلى تعــليمهم كيف يتصرفون حين يلتبس الأمر عليهم، وقد كتب لأحدهم يقول له: فــإن جاءك أمر ليس فى كتاب الله ولم تكن فيه سنة من رسول الله، ولم يتكلم فيه أحد قبلك، فاختر أى الأمرين شئتَ، إن شئتَ أن تجتهد رأيك وتقدِّم فتقدم، وإن شئتَ أن تأخَّر فتأخر

ومن أعظم وصــأيــاه للقضــاة وصيته لأبي موسى الأشعرى، ومما جاء فيهــا: آس – أى سوِّ بين النــاس فــى مجــلسك ووجهك – حتى لا يطمع شريف فى حيفك - ظلمك – ولا ييأس ضعيف من عدلك، والبينة على من ادعــى واليمين عــلى من أنكر، والصــلح جــائز بين المســلمين إلا صلحًا حرَّم حلالا أو حلل حرامًا

إصلاحات عمر بن الخطاب وإنشاءاته:

لعمر بن الخطــاب كثير من الإصلاحات والإنشاءات التى لم يُسبق إليها، وســمـــــاهـــــا مــــؤرخو سيرته أوليــات عمر، فهو أول من سُمــى أمير المــؤمنين، وأول من اتخذ حادث الهجرة مبدأ التاريخ للدولة الإسلامية، بــعد أن اســتشــــــار فـــــى ذلك كــبــار الصحــابــة، وهو أول من اتخذ بيت المال، وهو يشبه خزانة الدولة، وأول من مصَّر الأمصار، أى بنى مدنًا جديدة كــالبصرة والكوفــة فى العراق، والفسطاط – حى مصر القديمــة حــاليــا – فى مصر، وأول من وسَّع مسجد رسول الله صلى الله عـــليه وســلم، وأدخــل فيه دار العبــاس بن عبدا لمطــلب، وفرشه بـــالحــصبـــاء، أى الحجــارة الصغيرة، وكــانوا قبــل ذلك يصــلون عــلى التراب

وهو أول من دوَّن الدواوين، وهى تشبه الوزارات فى الوقت الحاضر، وقــد اقــتبس هذا النظــام من الفرس والروم، فــأنشــأ ديوان العطــاء، وكــان مختصًا بــالعطــاء الذى فرضه عمر للمسلمين، وأنشأ ديوان الجــند – وزارة الدفـــاع حــــاليًا - وديــوان الخــراج – وزارة المــاليــة – ونظام البريد الذى كان يُستخدم فى أمور الدولة

ومــن أعــظم اجــتهـــــاداتــه إبــقــاؤه الأرض المفتوحــة فــى أيدى أهــلهــا يــزرعــوهــا، ويدفعون خراجًا –إيجــارًا – للدولة، تنفق منه عــلى الجيش والمــرافــق العــــامـــــة، كــمــــا أمــر بــإعــادة مسح الأرض – أى قيــاسهــا واختبارها - ووضع الخراج المناسب عليها حسب جودة الأرض

هو أول من قنن الجزية على أهل الذمة، فوضع على الأغنياء ثمانية وأربعين درهما للفرد الواحد فى السنة، وعلى متوسطى الحال أربعة وعشرين درهمًا، وعلى الفقراء القادرين على الكسب اثنى عشر درهمًا، وأعفى منها الشيوخ والنساء والأطفال ورجال الدين والعاجزين عن الكسب، وقد سبق القول إنه فرض للعاجزين عن الكسب من أهل الذمة عطاءً من بيت المال وكما ترك عمر بن الخطاب الأرض لأهلها يزرعونها؛ ترك معظم الدواوين – وبخاصة ديوان الخراج – فى أيدى أبناء البلاد المفتوحة يزاولونها بلغاتها؛ لأنها كما يقول العقاد: ليست من أسرار الدولة، وليس من الميسور أن ينصرف إليها فتيان العرب عما هو أولى بهم، وهو فرائض الدفاع والجهاد

ولاشك أن ترك تلك الأعمال فى أيدى أبناء البلاد المفتوحة كان مبعث ارتياح لهم، فاطمأنوا للحكم الإسلامى، بل أخذوا يعتنقون الإسلام، ويتعلمون اللغة العربية

استشهاده:

فى يوم الأربعاء الموافق ٢٦ من شهر ذى الحجة سنة ٢٣هـ وبينما عمر بن الخطاب يسوِّى صفوف المسلمين فى صلاة الفجر كعادته كل يوم، وبدأ ينوى مكبرًا للصلاة، إذا بأبي لؤلؤة المجوسى يسدد للخليفة عدة طعنات بخنجر مسموم، فقطع أمعاءه، وسقط مغشيًا عليه، واضطرب المسلمون فى الصلاة اضطرابًا شديدًا من هول المفاجأة، وأقبلوا على القاتل محاولين القبض عليه، لكنه أخذ يضرب

شمالا ويمينًا بدون هدى، فأصاب اثنى عشر من الصحابة، مات ستة منهم، ثم أتاه رجل من خلفه وألقى عليه رداءه وطرحه أرضًا فلما أيقن أبو لؤلؤة أنه مقبوض عليه لا محالة، طعن نفسه بالخنجر الذى طعن به أمير المؤمنين، ومات على الفور قبل موت الخليفة نفسه ومات معه السر الخفى الذى دفعه إلى هذه الجريمة البشعة

حمل المسلمون الخليفة إلى بيته، وظل فاقد الوعي فترة طويلة، فلما أفاق كان أول سؤال سأله للمسلمين: هل صليتم الصبح ؟ قالوا: نعم، قال: الحمد لله، لا إسلام لمن ترك الصلاة، ثم سأل: من الذى قتلنى ؟ قالوا: أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة قال: الحمد لله الذى جعل منيتى على يد رجل كافر، لم يسجد لله سجدة واحدة يحاجنى بها عند الله يوم القيامة.

المؤامرة:

كان أبو لؤلؤة غلامًا مجوسيا، أُسِرَ فى معركة نهاوند، ووقع من نصيب المغيرة بن شعبة، وكان يجيد حرفًا كثيرة كالحدادة والنجارة، وكان سيده يتركه يعمل ويأخذ منه درهمين فى اليوم

فاشتكى إلى أمير المؤمنين عمر مستكثرًا الدرهمين، فسأله عمر عن صناعته، فأخبره، فقال: لا أرى ذلك كثيرًا، وكانت تلك المهن رائجة فى ذلك الوقت وتدرُّ عليه مالا وفيرًا، فحقدها العبد المجوسى وعزم على قتله

هذا هو السبب الظاهر الذى روته كتب التاريخ والسير، لكنه لا يقنع وحده بارتكاب جريمة خطيرة كهذه، فالأمر أكبر من ذلك وأبعد مدى، ووراءه تدبير واسع ومؤامرة محكمة نُسجت خيوطها فى بلاد

فارس وكان فيها أبو لؤلؤة أداة تنفيذ فحسب، وكان هو مستعدًا بتكوينه للقيام بها، فقد رُوى عنه أنه كان كلما رأى أسرى بلاده فى المدينة، يقول: أكل عمر كبدى، لأن عمر هو الذى أزال دولة الفرس وأنزل الأكاسرة من على عروشهم

ولم تكن الجريمة فارسية فقط باشتراك أبي لؤلؤة، والهرمزان الذى كان أميرًا فارسيا وأُسِرَ فى إحدى الحروب وجاء إلى المدينة وأظهر الإسلام، بل كانت يهودية باشتراك كعب الأحبار، ونصرانية باشتراك جفينة، وكان كعب الأحبار يهوديا ادعى الإسلام، جاء إلى عمر قبل طعنه بثلاثة أيام، وقال له: يا أمير المؤمنين اعهد – أى اختر لك خلفًا يعقبك فى الحكم – فإنك ميت بعد ثلاثة أيام، فتعجب عمر وسأله كيف عرفت ذلك ؟ قال: أجده فى التوراة، فقال عمر :يا سبحان الله ! هل تجد عمر بن الخطاب مذكورًا فى التوراة، قال: أجدك بصفتك لكن عمر لم يعط لهذا الحديث اهتمامًا، فهل كان كعب الأحبار على علم بما دبره أبو لؤلؤة المجوسي وبقية شركائه ؟

يقول الدكتور هيكل: لابد إذًا أن يكون كعب الأحبار عرف بسر ما كان يجرى، فوجه النذير إلى عمر، وأغفل عمر أمر هذا النذير فحدث ما حدث، ونذير كعب وطعنات أبى لؤلؤة تدل على أن فى الأمر سرا لم يظهر ساعة ارتكاب الجريمة؛ لكنه ظهر من بعدأما الهرمزان و جفينة فأمرهما أوضح من أمر كعب الأحبار، واشتراكهما فى الجريمة لا لبس فيه، فقد شهد عبد الرحمن بن عوف أنه رأى الخنجر الذى طُعِن به عمر مع الهرمزان و جفينة فى اليوم السابق ليوم الجريمة، وسألهما ماذا يصنعان به ؟ فقالا: نقطع به اللحم، وشهد عبدالرحمن بن أبى بكر الصديق أنه مرَّ فى الليلة التى طعن أبو لؤلؤة عمر فى صبيحتها فى أحد طرق المدينة، فوجد أبا لؤلؤة و الهرمزان و جفينة يتناجون – يتحدثون سرا – فلما طلع عليهم فجأة، قام أبو لؤلؤة مرتبكًا، فسقط منه الخنجر نفسه الذى طعن به عمر

ومما يؤكد أن قتل عمر بن الخطاب كان مؤامرة انتحار أبى لؤلؤة نفسه، فليس هناك رجل يقدم على عمل كهذا من أجل بضعة دراهم، حتى لو رأى أن عمر لم ينصفه، فقد كان بإمكانه أن يعاود الشكوى ويأخذ حقه، ولكن العبد المجوسي مُلئ حقدًا، وأوعز عليه فأقدم على جريمته إقدام من يؤمن بأنه يقوم بعمل بطولى يستحق أن يدفع من أجله حياته وهناك أمر آخر يؤكد المؤامرة، وأنها نُسجت خيوطها فى بلاد فارس نفسها، وهو ثورة معظم بلاد فارس على المسلمين، ونقض معاهدات الصلح، التى وقعها معهم الفاتحون المسلمون، فور سماعهم خبر مقتل عمر، وكأنهم كانوا ينتظرون ذلك بصبر نافد؛ لأنهم ظنوا أن وفاة عمر هى فرصتهم لإعادة الأمور إلى ما كانت عليه قبل الفتوحات.

تفكير عمر فى أمر الخلافة ووفاته:

أيقن عمر بن الخطاب بعد طعنه أنه لم يبق من عمره سوى ساعات، وكذلك أيقن المسلمون، ولذا ألحوا عليه أن يختار لهم من يخلفه فيهم، فرشَّح لهم ستة من الصحابة، هم بقية العشرة المبشرين بالجنة، يختارون من بينهم واحدًا للخلافة، ومع أن ابن عمه سعيد بن زيد بن عمرو بن نُفيل واحد من العشرة المبشرين بالجنة، فقد استبعده من الترشيح، خوفًا أن يقع عليه الاختيار لقرابته منه، كما استبعد ابنه عبد اللهمن الترشيح تمامًا، بل رد على من اقترح عليه ترشيحه ردا قاسيًا، إبعادًا لشبهة الوراثة عن نظام الحكم الإسلامى، وجعل الأمر فى يد الأمة تختار الأصلح ليتولى أمرها قال عمر لهم: عليكم هؤلاء الرهط الذين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنهم من أهل الجنة، سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل منهم، ولست مدخله فيهم، ولكن الستة، هم: على بن أبى طالب، وعثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وسعد بن أبى وقاص، و عبد الرحمن بن عوف، و طلحة بن عبيد الله واهتم عمر وهو فى تلك الحال بأمر دفنه، وطلب أن يُدفن إلى جوار الرسول صلى الله عليه وسلم وأبى بكر

الصديق– رضى الله عنه – فـــى بيت عـــائشة، لينعم بصحبته فى الآخرة كما نعم بها فى الدنـــيـــا، فـــأرســـل ابنه عبد الله إلى عـــائشـــة– رضـــى الله عنهمـــا – وقـــال له: قـــل لهـــا : عمر يقرأ عـــليك السلام ويستأذنك فى أن يُدفن مع صـــاحبيه، فـــأتاها عبد الله فوجدها تبكى، فسلم عليها، ثم قال لهـــا مـــا أمره به أبوه، فقالت:كنت والله أريده لنفسى – أى المكان – ولأوثرنه به اليوم عـــلى نفسى، فلما رجع عبد الله، وأخبر أباه أن عـــائشـــة أذنت له، تهـــلل وجهه، وقـــال :الحمد لله مـــا كان شيء أهم إلى من ذلك المضجع وفـــى اليوم التـــالى لطعنه أى يوم الخميس الموافق ٢٧ من ذى الحجـــة سنة ٢٣هـــ فاضت روح عمر بعد أن قضى فى الخلافة عشر سنوات وبـــضعـــــة شـــهور، وكُفـــن فـــى ثـــــلاثـــة أثواب أسوة بكفن رسول الله، وصـــلى عليه صهيب الرومى –رضى الله عنه – وكان عمر قد أمر هأن يـــصـــــلى بـــالنـــاس بعد طعنه، ودُفن مع رسول الله صـــلى الله عليه و سلم .

خلافة عثمان بن عفان: ٢٤ - ٣٥هـ

نسبه

هو عثمـــان بن عفـــان بن أبـــى العـــاص بن أميـــة بن عبد شمس بن عبد منـــاف، ولِد بعد عام الفيل بست سنوات ٥٧٦م، وأمه أروى بنت كريز بن ربيعـــة بن حبيب بن عبد شمس،فعثمـــان يلتقى فى نسبه من جهة أمه وأبيه مع النبيصلى الله عليه وسلم فى عبد مناف

صفاته

كـــان ربعـــة من الرجـــال، ليس بـــالقصير ولا بالطويل، حسن الوجه أبيض مشربًا بحمرة، غزير الشعر يكسو ذراعيه شعر طويـــل، طويـــل اللحيـــة، ومن أحسن الناس ثغرًا

أخلاقه

أجـــمعـــت المصـــادر التـــى أرخت له عـــلى وصفه بسمـــاحـــة النفس، ورقـــة المشـــاعر، وكـــان رضـــى الخـــلق، كريمًا، شديد الحيـــاء، صوَّامًا قوَّامًا، محبوبًا من الناس فى جاهليته وإسلامه

وتـــحدث هـــو عـــن نفسه فقـــال: لقد اختبـــأت لى عند ربـــى عشرًا، إنـــى لرابع أربعـــة فـــى الإســـلام، ولقد ائتمننـــى رسول الله صـــلى الله عـــليه وســـلم عـــلى ابنته – رقيـــة – ثم توفيت، فزوجنـــى الأخرى – أم كـــلثوم – ووالله مـــا سرقت ولا زنيت فـــى جـــاهـــليـــة ولا إسلام قط ولا تغنيت، ولا تـــمنيت ولا مسحت فرجـــى بيمينـــى منذ بـــايعت رسول الله، ولقد جمعت القرآن عـــلى عهد رسول الله، ولا مرت بـــى جمعـــة منذ أســـلمت إلا وأنا أعتق فيهـــا رقبـــة، فـــإن لم أجد فيهـــا رقبـــة أعتقت فـــى التـــى تـــليهـــا رقبتين

إسلامه

أســـلم عثمـــان مبكرًا، وكـــان الذى دعـــاه إلى الإســـلام هو أبو بكر الصديق، وجاء به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم على يـــديـــه بعد إســـلام أبـــى بكر مبـــاشرة، ولذا كـــان يقول: إنـــى لرابع أربعـــة فـــى الإســـلام بعد أبـــى بكر وخديجـــة وزيد بن حـــارثـــة، وحرص عثمان على إسلامه أشد الحرص، على الرغم من الضغوط التى تعرض لهـــا، فعندمـــا

ABBYY PDF Transformer 2.0 Click here to buy www.ABBYY.com

علم عمه الحكم بن أبي العاص بإسلامه أوثقه بالحبال، وقال له: ترغب عن دين آبائك إلى دين محدث؟ والله لا أد
حتى تدع ما أنت فيه فأجابه عثمان: والله لا أدعه أبدًا ولا أفارقه

مصاهرته للرسول صلى الله عليه وسلم

تزوج عثمان بن عفان من ابنتي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فتزوج رقية، وظلت معه حتى تُوفيت يوم انتصار المسلمين في غزوة بدر، ولهذا لم يحضر عثمان بدرًا، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم أمره بالبقاء معها لتمريضها، وقد عده النبي صلى الله عليه وسلم من المدريين رغم غيابه عن المعركة، وفرض له في غنائمها، ثم زوجه النبي صلى الله عليه وسلم ابنته أم كلثوم، ولهذا لُقب بذى النورين، فلما توفيت في العام التاسع من الهجرة؛ حزن عُثمان حزنًا شديدًا؛ لانقطاع مصاهرته للنبى صلى الله عليه وسلم، فواساه مواساة رقيقة قائلا: لو كانت لنا أخرى لزوجناكها يا عثمان

عثمان مع النبي صلى الله عليه وسلم

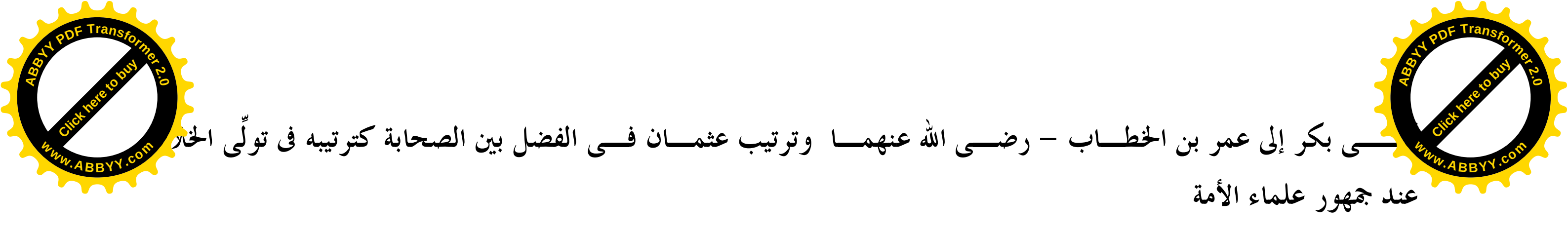
جاهد عثمان بن عفان منذ أن أسلم مع النبي صلى الله عليه وسلم بماله ونفسه، فهاجر الهجرتين: إلى الحبشة وإلى المدينة، وصاحبته زوجه رقية بنت النبيصلى الله عليه وسلم، وتحمل كثيرًا من الأذى

بذل عثمان ماله في سبيل الله ونصرة دعوته، وكان من أكثر قريش مالا، فاشترى بئر رومة باثنى عشر ألف درهم، وجعلها للمسلمين في المدينة، وكانوا يعانون من قلة المياه، و غلاء أسعارها كما أنفق ماله في تجهيز الجيوش وبخاصة جيش العسرة في غزوة تبوك في العام التاسع من الهجرة، فقد جهز وحده ثلث الجيش، وكان عدده نحو ثلاثين ألفًا، فدعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم بخير، وقال: ما ضر عثمان ما فعل بعد اليوم، قالها مرتين. وشهد عثمان المشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، عدا غزوة بدر، فقد تخلف عنها بأمر من النبيصلى الله عليه وسلم، وأرسله النبيإلى مكة عام الحديبية لمفاوضة قريش، بعد اعتذار عمر بن الخطاب لرسول الله بقوله: إنى أخشى على نفسى من قريش لشدتى عليها وعداوتى إياها، ولكنى أدلك على رجل أمنع وأقوى بها منى، عثمان بن عفان ولما أشيع أن قريشًا قد قتلت عثمان، قال النبيصلى الله عليه وسلم: لو كانوا فعلوها فلن نبرح حتى نناجزهم، وبايعه أصحابه بيعة الرضوان تحت الشجرة، وبايع النبينفسه نيابة عن عثمان، وقال: إن عثمان بن عفان فى حاجة الله وحاجة رسوله وضرب بإحدى يديه على الأخرى مشيرًا إلى أن هذه بيعة عثمان، فكانت يد النبيصلى الله عليه وسلم لعثمان خيرًا من أيديهم لأنفسهم. وكان من كُتاب الوحى كما هو معلوم.

ثناء النبي صلى الله عليه وسلم على عثمان

الأحاديث الواردة في فضل عثمان بن عفان وثناء النبيعليه كثيرة، من ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: ألا أستحى من رجل تستحي منه الملائكة ؟

وكان عثمان بن عفان قريبًا من الخليفتين، أبى بكر الصديق وعمر بن الخطاب، وموضع ثقتهما وأحد أركان حكومتهما، ومن كبار مستشاريهما، وكان يكتب لهما، وهو الذى كتب كتاب ولاية العهد من



ـــى بكر إلى عمر بن الخطـــاب – رضـــى الله عنهمـــا وترتيب عثمـــان فـــى الفضل بين الصحابة كترتيبه فى تولّى الخلا
عند جمهور علماء الأمة

أهل الشورى وبيعة عثمان

لم يشأ عمر بن الخطاب أن يعهد بالخلافة إلى شخص بعينه، وقال: إن أعـــهد – يـــعنــــــى لشخص محدد – فقد عهد من هو خير منـــى – يقصد أبـــا بكر عندما عهد إليه هو نفسه – وإن لم أعهد فلم يعهد من هو خير منـــى – يقصد رسول الله صلى الله عليه وسلم حين تركها شورى بين المسلمين

ولعـــــل اجتهـــاده أدَّاه إلى أن تصرف الرسول وأبـــى بكر يعطـــى له الفرصـــة أيضًا أن يختـــار طريقـــة أخرى لاختيـــار من يخلفه، ليثرى بذلك طرق الاختيـــار، وليرسخ فى أذهان الناس أن أمر اختيار الحاكم منوط دائمًا بـــالأمـــة وإرادتهـــا ورضـــاها، وهى التى تملك محاسبته وعزله إن ارتكب ما يوجب العزل

رشح عمر بن الخطـــاب ستـــة من الصحـــابة، ليتولى واحد منهم منصب الخـــلافـــة، ولم يـــأمر أحدًا منهم أن يصـــلى بـــالنـــاس إمامًا، حتى لا يظن النـــاس أنه يميل إليه، بل أمر صهيبا أن يصلى بالناس، لتكون فرصتهم فـــى الاختيار متساوية، وشدد على ألا تمضى ثلاثة أيام بعد وفاته إلا ويكون عـــليهم أمير من هـــؤلاء الستـــة يتولى مسئولية الخلافة ويتحمل تبعاتها

وبعد أن فرغ المســـلمون من دفن عمر، شرع المرشحون الستـــة فى التفـــاوض، وبعد نقـــاش طويـــل اقترح عليهم عبد الرحمن بن عوف أن يتنازل عن حقه فى الخلافة. ويتركوا له اختيار الخليفة، فوافقوا على ذلك، فشرع فى معرفة آرائهم واحدًا بعد واحد على انفراد، فرأى أن الأغـــلبيـــة تميل إلى عثمان، ثم أخذ يسأل غيرهم من الصحابة، فلا يخلو به رجل ذو رأى فيعدل بعثمان

اطـــمـــأن عـــبد الرحـــمن إلى أن الأغـــلبيـــة تزكـــى عثمـــان بن عفـــان فـــأعـــلن ذلك عـــلى مـــلأ من الصحـــابـــة فى مسجد النبي صلى الله عليه وســـلم، ولمـــا كـــان يـــعـــلم أن الذى يـــلى عثمـــان فـــى المنزلة عند الصحـــابـــة، هو عـــلى بن أبى طالب، الذى مال إليه عدد منهم، فإنه رأى أن يـــوضـــح له أن الأغـــلـــبـــيـــة مع عثمـــان، فقـــال له: أمـــا بعد يا على، فإنى نظرت فى الناس، فلم أرهم يعدلون بعثمان، فلا تجعلن عـــلى نفسك سبيـــلا – كأنه يحذره من المخالفة– ثم أخذ بيد عثمان، فـــقـــال: نـــبـــايعك عـــلى سنـــة الله ورسوله، وسنـــة الخـــليفتين بعده، فبـــايعه عبد الرحمن، وبـــايعه المهـــاجرون والأنصـــار؛ ولم يتخلف أحد عن بيعته من الصحابة، وكان ذلك بعد وفاة عمر بثلاثة أيام.

خطبة البيعة

اســـتقبـــل عثمـــان بخـــلافته أول المحرم سنـــة ٢٤هـــ، وصعد المنبر بعد تمـــام البيعة، وخطبهم قائلا –بعد حمد الله والصلاة على رسوله :-إنكم فـــى دار قلعة –أى دار الدنيا – وفى بقية أعمار، فبادروا آجالكم بخير ما تقدرون عليه.. ألا وإن الدنيا طويت على الغرور، فلا تغرنكم الحياة الدنـــيـــا، ولا يـــغرنـــكم بـــالله الغـــرور، اعتبروا بمـــا مضـــى، ثم جدوا ولا تـــغفـــلوا، فـــإنـــه لا يـــغفُل عـــنكـــم، أين أبنـــاء الدنيـــا وإخوانهـــا: الذين أثـــاروها وعمروها، ومتعوا بها طويلا، ألم تلفظهم ؟ ارموا الدنيا حيث رمى الله بها، واطلبوا الآخرة

ABBYY PDF Transformer 2.0
Click here to buy
www.ABBYY.com

وأول مـــا يُلاحـــظ عــــلى الخـــطبــــة الأولى، التـــى افتتح بهـــا عثمـــان خـــــلافته، خــلوهـــا من الإشـــارة إلى الم[illegible] الذى سيسير عــليه، ولعــله اكتفـــى بمـــا قـــاله لعبد الرحمن بن عوف لحظـــة البيعـــة، من أنه سيعمـــل بكتاب الله، وسنة نبيه، وسيرة الخليفتين بعده

كتبه إلى العمال والولاة

كتب عثمـــان – رضى الله عنه – فى الأيام الأولى من خلافته عددًا من الكتب إلى الولاة وأمراء الجند، بل وإلى عامة الناس، تتضمن نصائحه وإرشاداته، يقول الطبرى: أول كتاب كتبه عثمان إلى عماله أمـــا بعد فـــإن الله أمر الأئمة أن يكونوا رعاة – يرعون مصالح الأمة – ولم يـــتقـــدم إليهم – أى لم يطـــلب منهم - أن يكون جبـــاة، وإن صدر هذه الأمـــــة خـــلقوا دعـــاة، ولم يخـــلقوا جبـــاة، وليوشكن أئمتكم أن يصيروا جــبـــــاة ولا يـــكونوا دعـــاة، فـــإن عـــادوا كذلك انقطع الحيـــاء والأمـــانـــة والوفـــاء، ألا وإن أعدل السيرة أن تنظروا فـــى أمور المســـلمين فيمـــا عـــــليـــهم، فتعطوهم مـــالهم، وتـــأخذوهم بمـــا عـــليهم، ثم تثنوا بـــالذمـــة، فـــتعـــطوهـــم الذى لهـــم، وتـــــأخـــذوهـــم بـــــالذى عـــــليـــهم، ثم العدو الذى تنتابون، فاستفتحوا عليهم بالوفاء وكـــتب إلى أمـــراء الأجـــنـــاد وقـــادة الجيوش: أمـــا بعد، فـــإنكم حمـــاة المسلمين و ذادتهم، وقد وضع لكم عمر ما لم يغب عنا، بل كان عن ملإ منـــا، فـــلا يبـــلغنـــى عن أحد منكم تغيير ولا تبديـــل، فيغير الله ما بكم، ويـــســـتبـــدل بـــكم غـــيركـــم، فـــانظروا كيف تكونون، فـــإنـــى أنظر فيمـــا ألزمنى الله النظر فيه، والقيام عليه وكتب إلى عمال الخراج المسئولين عن الشئون المالية :أما بعد فإن الله خـــلق الخلق بالحق، ولا يقبل إلا الحق، خذوا الحق، وأعطوا الحق، والأمـــانـــة الأمـــانة، قوموا عليها، ولا تكونوا أول من يسلبها.. والوفاء الوفاء، ولا تظلموا اليتيم ولا المعاهد، فإن الله خصم لمن ظلمهم وكتب إلى عـــامة الرعية: أما بعد فإنكم إنما بلغتم ما بلغتم بالاقتداء والاتبـــاع، فـــلا تفتنكم الدنيـــا عن أمركم، فإن أمرهذه الأمة صائر إلى الابتداع بعد اجتماع وهذه الكتب توضح سيـــاســـة عثمـــان بن عفـــان العـــامـــة، التـــى كـــان يتوخـــى أن يتبعها عماله وولاته فى إدارة شئون الأمة، وهى سياسة طـــابعهـــا الرفق بـــالرعيـــة، والسهر على مصالحها، والإنصاف فى جمع الخراج، وإيصـــال الحقوق إلى أصحـــابهـــا، والإحسان إلى أهل الذمة، ورعاية جميع طوائف الأمة.

الفتوحات فى عهد عثمان بن عفان

المسلمون والفرس

كـــان عمر بن الخطـــاب قد أمر المســـلمين بـــالانسيـــاح فى بلاد فارس بـــعد مـــوقـــعـــــة نـــهــــاوند سنـــة ٢١هـــ وكـــلمـــة الانسيـــاح من تعبيرات المـــؤرخين القدماء، وهى تدل على سهولة الفتح بعد نهاوند؛ إذ لم يلق المسلمون هناك مقاومة تذكر وقـــد نجح قـــادة الجيوش التـــى أرســـلهـــا عمر فـــى فتح المقـــاطعـــات الفـــــارســـيـــــة كـــهمـــذان، وخـــراســــــان وأذربـــيجــــــان، واصطخر، وأصـــبهـــان، وكـــان أمراؤهـــا الفرس قد رأوا عدم جدوى المقـــاومـــة، فســـلموا بـــلادهم عـــلى شروط المســـلمين، وقبـــلوا دفع الجزية، ووقعت مـــعهـــم مـــعـــاهدات، هـــى آيـــة فـــى الرحمـــة والعدل والتســـامح، من ذلك معاهدة عتبة بن فرقد لأهل أذربيجان بسم الله الرحمن الرحيم، هذا مـــا أعطـــى عتبة بن فرقد عامل عمر بن الخطـــاب أمير المـــؤمنين أهـــل أذربيجـــان : سهـــلهـــا وجبـــلهـــا وحواشيها و شفـــارهـــا، وأهـــل مـــللها كلهم، الأمان على أنفسهم وأموالهم ومللهم و شرائعهم، عـــلى أن يـــؤدوا الجزية على قدر طاقتهم، ليس على صبى ولا امرأة ولا زمن مريض – ليس فـــى يديه شـــىء من الدنيـــا، ولا متعبد مـــتخـــــل ليـــس فــــى يـــديـــه شــــىء من الدنيـــا لهم ذلك ولمن سكن معهم، وعـــــليـــهم قِرَى المـــســـــلم من جنود المســـلمين يومًا وليـــلة ودلالته – عـــلى الطريق –ومن حشر منهم –

من يُستعان به فى خدمات الجيش - فى سنة، وضع عنه جزاء تلك السنة – أى لا يدفع جزية – ومن أقام
مثل ما لمن أقام من ذلك، ومن خرج فله الأمان حتى يلجأ إلى حرزه وبعد مقتل عمر نقضت معظم المقاطعات الفارسية معاهداتها مع المسلمين، ظنا من أمرائها أن فى مقتل عمر فرصة لطرد المسلمين من البلاد التى فتحوها، فوقف عثمان بن عفان لهذه الثورة وقضى عليها، كما فعل أبو بكر حيث قمع الردة فى شبه الجزيرة العربية، وأعاد إليها وحدتها الدينية والسياسية، وأخذ عثمان يجهز الجيوش، ويصدر أوامره إلى أمراء الأمصار الوليد بن عقبة فى الكوفة، و عبد الله بن عامر فى البصرة، للتصدى بحزم لحركة الردة الفارسية، وإعادة الفرس إلى الطاعة والنظام وكانت إعادة فتح تلك المقاطعات أصعب من فتحها الأول فى عهد عمر بن الخطاب؛ لأنها حينذاك سلمت بدون قتال تقريبًا بعد هزيمتهم فى نهاوند فى حين بذل المسلمون فى عهد عثمان جهدًا كبيرًا، وخاضوا معارك شرسة فى بضع سنوات ٢٤ – ٣١هـ لإعادة فتح بلاد فارس مرة أخرى، وقد شهدت تلك المعارك الفصل الأخير من حياة آخر ملوك آل ساسان يزدجرد الثالث، حيث لقى مصرعه على يد رجل فارسى فى مرو سنة ٣١هـ، وبموته طويت صفحة دولة فارس من التاريخ ومما يجدر ذكره ويثير الإعجاب أن المسلمين لم يقسوا على الفرس ولم ينكلوا بهم بعد ثورتهم وخروجهم، بل قبلوا اعتذارهم، ولم يفرضوا عليهم التزامات جديدة، واستمروا فى معاملتهم طبقًا للمعاهدات الأولى وبدأت بلاد فارس تشهد تاريخًا جديدًا تحت راية الإسلام، يملؤه العدل والتسامح والرحمة، وأسلمت الأمة الفارسية، وأصبحت جزءاً مهما من العالم الإسلامى وأسهمت إسهامًا كبيرًا فى بناء الحضارة الإسلامية.

المسلمون والروم فى عهد عثمان

بعد وفاة عمر بن الخطاب، قام الروم بمحاولة لطرد المسلمين، فهاجموا الشام – فى السنة الأولى من خلافة عثمان بقوات كبيرة من آسيا الصغيرة، جعلت والى الشام القدير معاوية بن أبى سفيان يطلب المدد من عثمان بن عفان، الذى أمر بتحريك قوات من العراق لنجدة الشام وكتب عثمان بن عفان إلى والى الكوفة الوليد بن عقبة كتابًا يقول فيه: أما بعد فإن معاوية بن أبى سفيان كتب إلَىَّ يخبرنى أن الروم قد أجلبت على المسلمين بجموع عظيمة – أى هاجمت – وقد رأيت أن يمدهم إخوانهم من أهل الكوفة، فإن أتاك كتابى هذا، فابعث رجلا ممن ترضى نجدته وبأسه وشجاعته وإسلامه، فى ثمانية آلاف، أو تسعة آلاف، أو عشرة آلاف، إليهم من المكان الذى يأتيك فيه رسولى، والسلام ولما بلغ الكتاب والى الكوفة، جمع الناس وخطب فيهم وأبلغهم أمر الخليفة، وقال: قد كتب إلَىَّ أمير المؤمنين يأمرنى أن أندب منكم ما بين العشرة الآلاف إلى الثمانية الآلاف، تمدون إخوانكم من أهل الشام، فإنهم قد جاشت عليهم الروم، وفى ذلك الأجر العظيم والفضل المبين، فانتدبوا رحمكم الله مع سلمان بن ربيعة الباهلى، فانتدب الناس، فلم يمض ثالثة – أى ثلاثة أيام – حتى خرج ثمانية آلاف رجل من أهل الكوفة، فمضوا حتى دخلوا مع أهل الشام إلى أرض الروم، وعلى جند أهل الشام حبيب بن مسلمة بن خالد الفهرى، وعلى جند أهل الكوفة سلمان بن ربيعة، فشنوا الغارات على أرض الروم، فأصاب الناس م اشاءوا من سبى، وملئوا أيديهم من المغنم، وافتتحوا بها حصونًا كثيرة.

محاولات الروم العودة إلى مصر

لم يكف الروم عن محاولاتهم الهجوم على المسلمين، على الرغم من هزيمتهم فى الشام، وما إن اعتلى الإمبراطور قسطانز الثانى ٤٨٢٢ - - هـ =٦٤٢ – ٦٦٨م حتى سيطرت عليه فكرة استرداد الشام و مصر من أيدى

ABBYY PDF Transformer 2.0 Click here to buy www.ABBYY.com

المسلمين، كما استردها جده هرقل من الفرس قبل سنوات قليلة من الفتح الإسلامى، فأرسل فى سنة ٢٥ هـ = ٦٤٥ م حملة بحرية كبيرة إلى مصر، بقيادة مانويل، تمكنت من الاستيلاء على الإسكندرية، بمساندة من بقى فيها من الروم والإغريق، وبدأت تتوغل جنوبًا قاصدة حصن بابليون، فكلف الخليفة عثمان قائده عمرو بن العاص بمهمة الدفاع عن مصر وطرد الروم، وكان عمرو قد أعفى من ولايتها بناء على طلبه فى مطلع خلافة عثمان، فلم يتردد الفاتح الكبير فى العودة إلى مصر للقيام بهذه المهمة، ونجح فى طرد الروم نهائيا، بعد أن ألحق بهم هزيمة منكرة، وقتل مانويل قائد حملتهم استمرار فتح شمال إفريقيا فى عهد عثمان

لما ولى عبد الله بن سعد بن أبى السرح ولاية مصر من قبل عثمان بن عفان؛ كتب إليه أن الروم الذين لا يزالون يسيطرون على شمال إفريقيا يغيرون على حدود مصر الغربية، ولابد من مواجهتهم قبل أن يتجرءوا ويهاجموا مصر نفسها، فاقتنع عثمان بعد أن استشار كبار الصحابة، وأذن له بتجريد حملات عسكرية لردعهم وكف عدوانهم، كما أرسل إليه جيشًا من المدينة مددًا، يضم عددًا من الصحابة كابن عباس، وعبد الله بن الزبير رضى الله عنهما

وفى سنة ٢٧هـ = ٦٤٧م انطلق جيش المسلمين بقيادة عبد الله بن سعد، وتوغل غربًا حتى وصل إلى قرطاجنة عاصمة إقليم تونس فى ذلك الوقت، ودارت عدة معارك بين المسلمين وبين ملكها جريجوار أوجرجير كما تسميه المصادر العربية، انتهت بانتصار المسلمين وقتل الملك جريجوار على يد عبد الله بن الزبير ولم تكن تلك الحملة تهدف إلى الاستقرار، بل إلى ردع العدوان، ولذا اكتفى عبد الله بن سعد بعقد معاهدات صلح مع زعماء تلك البلاد تعهدوا فيها بدفع مبلغ كبير وبعد عودة عبد الله بن سعد إلى مصر، قام بفتح بلاد النوبة جنوبًا سنة ٣١هـ = ٦٥١م، وعلى الرغم من أنها لم تخضع بلاد النوبة للمسلمين، فإنها انتهت بعقد صلح بين الطرفين، اتفقا فيهعلى تبادل التجارة والمنافع.

نشأة الأسطول الإسلامى

يُعد إنشاء الأسطول الحربى الإسلامى من أعظم الإنجازات التى تمت فى عهد أمير المؤمنين عثمان بن عفان فبعد الفتوحات الإسلامية فى مصر والشام وجد المسلمون أنفسهم قد سيطروا على الشواطئ الشرقية والجنوبية للبحر المتوسط، الذى كان يُعرَف وقتئذٍ ببحر الروم، لأن سيطرتهم عليه كانت كاملة، ولم تنازعهم فى ذلك دولة أخرى؛ ولذا كان المسلمون فى حاجة إلى قوة بحرية تمكنهم من الحفاظ على شواطئهم ضد هجمات الأسطول البيزنطى

وكان أول من تنبه إلى ذلك معاوية بن أبى سفيان والى الشام؛ لأنه اضطلع بفتح سواحل الشام، مثل: صور، وعكا، وصيدا، وبيروت منذ عهد الخليفتين أبى بكر الصديق وعمر بن الخطاب، وواجه صعوبات كثيرة فى فتح تلك المدن، لقوة تحصينها من ناحية، وتوالى الإمدادات التى تأتيها من البحر من ناحية أخرى، كما أنها كانت محطات للأساطيل البيزنطية ولما أدرك معاوية أنه بدون قوة بحرية إسلامية فلن يتمكن من الدفاع عن كل الساحل الشامى، فعرض الأمر على الخليفة عمر بن الخطاب، مصورًا له حجم الخطر بقوله: يا أمير المؤمنين، هناك قرية من قرى الروم -يقصد جزيرة قبرص - فى عرض البحر، تتخذها أساطيلهم قاعدة للعدوان علينا، وهذه القرية قريبة من حدودنا إلى درجة أن أهل حمص - من مدن الشام - يسمعون نباح كلابها وصياح دجاجها، فأذن لنا ببناء أسطول حربى بحرى، لكن عمر رفض ذلك رفضًا قاطعًا؛ لخوفه على المسلمين من أهوال البحار، وأن الوقت لا يزال مبكرًا

...خول فـــى هذا المجـــال، وقـــال لمعاوية: لمسلم واحـــد أحـــب إلى مـــمـــا حوت الروم، يقصد أن ســـلامـــة المســـلمين عنده مقدمـــة على أى شىء آخر، وطلب من معاوية أن يستعيض عن ذلك بتقويـــة حصون السواحـــل، فـــامتثـــل معاوية، لكنه لم يفقد الأمل فى تحقيق ما يصبو إليه.

بناء الأسطول

بـــادر معـــاويـــة بن أبي سفيان بعد تولى عثمان بن عفان الخلافة ســـنـــة ٢٤ هـــ إلى عرض مشروعه القديم عـــليه، الذى يقضـــى بـــإنشـــاء أسطول بحرى، لكن عثمـــان رفض فـــى البدايـــة، وذكره بمادار بينه وبين عمر بن الخطـــاب فـــى ذلك الشـــأن، وأنه حريص عـــلى ســـلامـــة المســـلمين كحرص عمر من قبـــل لكن معـــاويـــة ألح عـــليه إلحـــاحًا شديدًا، وكـــان أجرأ عليه من عمر، ولم يكف عن المحاولة حتى ظفر مـــنه بـــالإذن، وكـــان إذنًا مـــشروطًا، بـــألا يُكره أحدًا من الجنود عـــلى العمل فى الأسطول بدأ معـــاويـــة بن أبـــى سفيـــان يعمل على الفور فى بناء الأسطول، مـــتعـــاونًا مـــع عـــبد الله بـــن ســـعد بـــن أبـــى الســـرح، والى مصر، ومستثمرًا كـــل الإمكانات المتاحة والصالحة لصناعة السفن فى مصر والشـــام، حيث كـــانت فـــى مصر دور قديمـــة لصنـــاعـــة السفن، وعدد كبير من العمـــال المهرة المدربين، وأشجار السنط التى تصلح لعمل الصوارى وضـــلوع السفن، وكانت الشام تتمتع بكثير من المواد اللازمة مثـــل أخشـــاب الصنوبر والبـــلوط والعرعر، وأدى هذا التعـــاون بين مصر والشام إلى بروز الأسطول الإسلامى وظهوره.

فتح جزيرة قبرص سنة ٢٨هـ:

كـــان أول عـــمـــل بحرى نـــاجح قـــام به الأسطول الإســـلامـــى، هو فتح جزيرة قبرص التـــى كـــانت تهدد شواطئ المسلمين باستمرار لقربها مـــنهـــا من نـــاحيـــة، وبـــاعتبـــارهـــا محطـــة مهمـــة من محطـــات الأســـاطيـــل البيزنطية من ناحية أخرى وقد غزاها معاوية سنة ٢٨هـــ، أى بعد أربع سنوات فقط من بناء الأســـطول الإســـلامـــى، وهـــى مـــدة ليست بـــالطويـــلة لإنشـــاء أسطول بحرى،ولكنها عزيمة الرجال وإصرارهم على إنجاز العمل وكـــانـــت الغزوة مشتركـــة أسهمت فيهـــا قوات الشـــام، وقوات مصر بقيـــادة عبدا لله بن سعد، ونزلوا قبرص واستولوا عـــليها، فعرض أهلها الصلح، فقبل معاوية، واشترط لعقده عدة شروط

-أن يدفع أهل قبرص جزية سنوية، مقدارها سبعة آلاف دينار

-وأن يُعـــلمـــوا المســـلمين بـــأيـــة تحركـــات عدائيـــة من جـــانب الروم ضد سواحلهم

-وأن يقف أهـــل قبرص عـــلى الحيـــاد، إذا نشبت حرب بين المسلمين والروم، ولكـــن لا يـــمنـــعون المســـلمين من المرور بجزيرتهم إذا احتـــاجوا إلى ذلك ولم يـــلتزم أهـــل قبرص بمـــا تعـــاهدوا عـــليه فـــى الصـــلح، ممـــا جعـــل

معـــاويـــة يعـــاود غزو الجزيرة مرة أخرى ســـنـــة ٣٣هـــ ويضمهـــا إلى دولة الخـــلافـــة، وينقـــل إليهـــا اثنـــى عشر ألفًا من المســـلمين من أهـــل الشام، وأسكنهم فيها، وبنى لهم الدور والمساجد.

موقعة ذات الصوارى سنة ٣٤هـ:

أثـــار بروز الأسطول الإســـلامـــى فـــى البحر المتوسط حفيظة قنسطانز الثانى الإمبراطور البيزنطى، و جعله يفكر فى القضاء على الأسطول الإســـلامى وتحطيمه، قبل أن تكتمل قوته، ويزداد خطره، وحتى تظل الســـيطـــرة عـــلى البـــحر المـــتوســـط

الأسطول البيزنطي وحده دون غيره، فعبأ الإمبراطور قواته البحرية كلها، واتجه بها قاصدًا سواحل الشام، وهو لا يراود شك في قدرته على تدمير السفن الإسلامية؛ لحداثة نشأتها، وقلة خبرة رجالها، لكن المسلمين استعدوا لهذا اللقاء جيدًا وتعاون الأسطولان فى مصر والشام، لرد هذا العدوان، وأسندت قيادتهما إلى عبد الله بن سعد والى مصر. و التقى الأسطولان الإسلامى و البيزنطى – الذى كان بقيادة الإمبراطور نفسه – في شرقي البحر المتوسط، جنوبي شاطئ آسيا الصغرى تركيا الحالية، ودارت بينهما معركة بحرية كبيرة، سُميت بمعركة ذات الصوارى، لكثرة السفن التي اشتركت من الجانبين خمسمائة سفينة من جانب الروم، مقابل مائتي سفينة من جانب المسلمين وانتهت المعركة بنصر عظيم للمسلمين، وهزيمة ساحقة للأسطول البيزنطى، و نجاة الإمبراطور من القتل بأعجوبة ونتيجة لهذه الهزيمة لم يرجع الإمبراطور إلى عاصمة القسطنطينية بعد المعركة، وإنما ذهب إلى جزيرة صقلية، قبالة شاطئ تونس، في محاولة منه لحماية ما تبقى من دولة الروم فى شمال إفريقيا، لكنه قتل فى صقلية سنة ٦٨هـ = ٦٨٨م.

مصحف عثمان

إذا كان لعهد عثمان بن عفان – رضى الله عنه – أن يفخر بما أنجز فيه من الأعمال العظيمة؛ فإن له أن يفخر بما هو أعظم منها جميعًا، وهو جمع القرآن الكريم على لغة واحدة. للقرآن صورتان صورة صوتية مقروءة، وأخرى مكتوبة مدونة، وقد حرص الرسول صلى الله عليه وسلم على تدوين الآيات فور نزولها، وقبل انتقاله إلى الرفيق الأعلى راجع مع جبريل – عليه السلام ترتيب الآيات والسور مرتين. وقد حفظ الصحابة القرآن باللهجات التي درجوا عليها، وأجاز لهم النبي صلى الله عليه وسلم ذلك، و لذا ظهر الاختلاف في وجوه القراءة بين الصحابة من بدء نزول القرآن، نتيجة للهجة التي اعتادها

اللسان

ولما جُمِعَ القرآن الكريم الجمع الأول فى الصحف فى عهد أبى بكر بهيئته المكتوبة، بقيت الصورة الصوتية كما هي، و لما فُتحت البلاد وتفرق الصحابة فيها، أخذ أهل كل إقليم يقرءون القرآن بقراءة الصحابي أو الصحابة الذين عاشوا بينهم، فتمسك أهل الكوفة بقراءة عبد الله بن مسعود، وأهل الشام بقراءة أبي بن كعب، وأهل البصرة بقراءة أبي موسى الأشعرى، و مع اتساع الفتوحات، زاد الخلاف بين المسلمين حول قراءة القرآن، وتحول الأمر إلى تعصب، بل كاد أن يؤدى إلى فتنة بينهم، مما أفزع حذيفة بن اليمان الصحابي الجليل، وكان يقرأ فى أذربيجان، فرجع إلى المدينة، وأخبر عثمان بن عفان بما رأى جمع عثمان الصحابة، و أخبرهم الخبر، فأعظموه، ورأوا جميعًا ما رأى حذيفة من ضرورة جمع الناس على مصحف واحد، وأرسل عثمان إلى أم المؤمنين حفصة بنت عمر أن تبعث إليه بالمصحف الذى جُمع في عهد أبي بكر – وكان عمر بن الخطاب قد أخذه بعد وفاة أبي بكر، ثم حُفظ بعد موته عند ابنته حفصة– ثم أمر زيد بن ثابت – الذى جمع القرآن الجمع الأول في عهد أبي بكر الصديق – و عبد الله بن الزبير، و سعيد بن العاص، و عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، أن ينسخوه، وقال لهم: إذا اختلفتم – يعني في كلمة أو كلمات– فاكتبوها بلسان قريش، فإنما نزل بلسانهم، فلما نسخوه، أرسل إلى كل إقليم مصحفًا وأمر بإحراق ما سوى ذلك، و قد سمى هذا المصحف بالمصحف الإمام أو مصحف عثمان.

الفتنة وأسبابها

سارت الأمور فــى الدولة الإســلامية على خير ما يرام فى الشطر الأول من خــلافة عثمان – رضى الله عنه – ٢٤ – ٣٠هـ، و لكن مع بداية سنة ٣١هــ هبت عــلى الأمــة الإســلامية ريــاح فتنة عاتية، زلزلت أركانها، وكــــلفــتهــا تضحيــات جسيمــة، واستمرت هذه الفتنــة نحو عشر سنين، شمــلت مــا تبقى من خلافة عثمان بن عفان، وكل زمن خلافة على

بن أبي طالب –رضى الله عنهما– ٣١–٤٠هـ

وممــا لاشك فيه أن تــلك الفتنــة كــانت نتيجــة لمــؤامرة واسعــة النطاق كــانت أحكم فى تدبيرها، وأوسع فى أهدافها، وأخطر فى نتائجها من مــؤامرة اغتيــال عمر بن الخطــاب – رضــى الله عنه –، لأن اغتيال عــمر لم يــخــــلف آثــــارًا خــطيــرة بــين المــســلمين، ولم يقسمهم شيعًا وأحــزابًا كمــا حدث فــى آخر عهد عثمــان، ولأن الذين خططوا لقتــل عمر والذين قــاموا بتنفيذ ذلك كــانوا غير مســلمين وغير عرب، فى حين أن الذين قتــلوا عثمــان وعليا من بعده كانوًا عربًا مسلمين، وهذا هو وجه الخطورة، حتى وإن كان التخطيط من غيرهم

و الذى لاشــك فــيه أن الذى تــولى التــخطيط للفتنــة، وقتــل عثمــان، وإغراق الأمــة فــى بحر من الدمــاء، هو عبد الله بن سبــأ اليهودى، الذى ادعــى الإســلام؛ ليتمكن من الكيد له من داخــله، و الذى لُقِّب بــابن السوداء وقبــل الحديث عنه يحسن تنــاول الظروف والأجواء التــى كانت سائدة فــى عهد عثمــان – رضــى الله عنه – واستغــلهــا ابن سبــأ لتحقيق أهدافه المدمرة

أولا: تغيرت الظروف فــى آخر حيــاة عثمــان بــل وفــى بداية خلافته عمــا كــانت عــليه فى خلافة عمر بن الخطاب، وربما كان هذا تطورًا طبيعيــا فــى حيــاة الأمــة، فقد كثرت الغنائم فى أيدى الناس، و بدءوا يتوسعون فــى المــأكــل والمــلبس والمشرب، وبخاصة الجيل الجديد من العرب الذى دخــل فــى الإسلام بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، ولم يتــأدب بــآدابه، ولم يتعود حياة القناعة والقصد فى المعيشة التى كان يحياها الصحابة فى حياته صلى الله عليه وسلم

ولم يُرضِ ذلك التوسع فــى المعيشــة صحــابيا جليلا اشتهر بالزهد، هو أبو ذر الغفــارى، فسخط عــلى عثمــان وولاته وعمــاله، وحمــلهم مــسئوليــة ذلك التطور الاجتمــاعــى الطبيعــى الذى لم يكن من صنعهم، وراح ينــادى بتحريم امتــلاك المســلم لشــىء من المال فوق حاجة يومه وليــــلتــه، واســتشــهد عــــلى ذلك بقوله تعــالى: [والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم] التوبة ٣٤

ولم يوافق أحد من الصحــابة أبا ذر فيما نادى به، وكانوا يرون أن المــــال إذا جُمع من حــلال، وأدى عنه صــاحبه حق الله وهو الزكــاة: لا يعتبر كنزًا، ولا تنطبق عــليه الآيــة موضع الاستشهــاد، والنبي صــلى الله عــليه وســلم كــان يخزن مــؤنــة بيوته لمدة سنــة إذا كانت الظروف تسمح بذلك، وتشريع الله للمواريث فى نظام دقيق يقتضى ترك الميت ثروة تقسم بين ورثته، وكثير من الصحــابــة كــانوا أغنيــاء عــلى عهد النبي صــلى الله عــليه وســلم، ولم يعب النبي صلى الله عليه وسلم ثراءهم، بــل يُروى أنه قال: نعم المال الصالح للمرء الصالح – مسند أحمد

وقد نصح النبي صــلى الله عــليه وســلم سعد بن أبي وقاص حين أراد أن يتصدق بمــاله كــله بقوله: إنك إن تذر ورثتك أغنيــاء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس – صحيح البخارى، كتاب الجنائز

و لو أن أبا ذر الغفارى – رضى الله عنه – احتفظ برأيه لنفسه، لكان الأمر هينًا، ولكنه أذاعه فــى الناس؛ ووجد صداه عند الكسالى والذين يريدون أن يعيشوا عـــالة عـــلى غيرهم، فـــألبوا النـــاس عـــلى عثمان و ولاته، وكانت تلك الدعوة سببًا من أسباب الفتنة

وعـــلى الرغم من اعتزال أبي ذر الناس فى الربذة شرقى المدينة امتثـــالا للخـــليفـــة؛ فـــإن دعوته كانت قد استشرت، وتلقفها ابن سبأ اليهودى وأشعلها بين الناس

ثـــــانـــيًا: شـــــارك عـــدد كـــبير من أهـــل اليمن ومنطقـــة الخـــليج فـــى الفتوحـــات الإســـلامية، وكان دورهم فى تحقيق النصر لا ينكر، ولكنهم وجـــدوا بـــعد الفـــتح أن الإمـــــارات والوظـــــائف الرئيسيـــة قد أُسندت إلى غيرهم و بخاصة أبناء قريش، و كبار المهاجرين و الأنصار وأبنائهم، فـــــلم يـــعجـــبهـــم ذلك، و رأوا أنـــفســـهم أحـــق بـــالإمـــارات التـــى فتحوهـــا بسيوفهم، مع أنه كـــان من الضرورى أن يتولى المهـــاجرون والأنصـــار هـــذه الولايـــات؛ لأنهم يعرفون الإســـلام وشرائعه أكثر، فقدمهم عـــلمهم

وفقههم فـــى الدين وســـابقتهم فـــى الإســـلام، و جهادهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم لا أنسابهم وأحسابهم

ونـــتيجـــة لذلك تكونت جبهـــة عريضـــة من أبنـــاء تـــلك المنطقـــة معـــارضـــة لسيطرة أبنـــاء المهـــاجرين والأنصـــار عـــلى الدولة الإســـلامية، و لم تكن شكواهم من الولاة واتهـــامهم بـــالظـــلم حقيقيـــة، بـــل كـــانت ذريعة للنيل منهم، و من الخـــليفـــة عثمـــان، و هدفًا لقلب الدولة و تغيير نظام الحكم المتهم بـــالظـــلم، وهـــؤلاء كـــانوا صيدًا سمينًا لابن سبأ فاستغل السخط الذى ملأ قلوبهم لتحقيق هدفه الشرير

ثالثًا: عندما بدأت هذه الفتنة كان معظم ولاة الأقاليم من قريش، بل من بنى أمية أهل عثمان، وأقربائه، مما سهل على ابن سبأ مهمته فـــى إشعـــال نـــار الفتنة، و الحق أن هؤلاء الولاة، و هم معاوية بـــن أبـــى سفيـــان والى الشـــام، و عبد الله بن سعد بن أبـــى السرح والى مـــصر، وعـــبد الله بـــن عـــــامـــر والى البـــصرة، والوليد بن عـــقبـــة والى الكوفـــة، كـــانوا من خيرة الولاة، وممن أسهموا فـــى تثبيت الفتوحـــات الإسلامية بعد استشهاد عمر، وممن مارسوا الحكم قبـــل خـــلافـــة عثمـــان، بـــل إن معـــاويـــة بن أبي سفيان كان واليًا عـــلى الشـــام من عهد أبـــى بكر الصديق. ومن ثم لم يولِّهم عثمـــان لهوى فـــى نفسه، أو لأنهم من أقربائه، بل ولاهم لكفايتهم ومقدرتهم الإدارية

ومـــمـــــا يـــــؤسـف له أن بعض الكتـــاب الكبـــار صوَّروا الأمر عـــلى غير مـــا تقتضيه الحقيقـــة التـــاريخيـــة، وكـــأن عثمـــان بن عفـــان أتـــى بهـــؤلاء الولاة مـــن قـــــارعـــة الطريق، وعينهم عـــلى الولايـــات الكبيرة، وحمـــلهم عـــلى رقـــاب الناس؛ لأنهم أقرباؤه فحسب. ويذهب بعضهم إلى تصوير أمـــر استعفـــاء عمرو بن العـــاص من إمـــارة مصر بنـــاء عـــلى طـــلبه عـــلى أنه عزل من عثمـــان ليعين مكـــانه أخاه من الرضاعة عبد الله بن سعد، ولا يذكر شيئًا ممـــا يعرضه مـــؤرخو مصر الإســـلامية كابن عـــبد الحـــكم و الكـــندى، مـــن أن عـــبد الله بن سعد كـــان واليًا عـــلى صـــعيـــد مـــصر من قبـــل عمر بن الخطـــاب، فـــلمـــا تولى عثمـــان بن عفـــان الخـــلافـــة طـــلب منه عمرو بن العاص أن يخصه وحده بإمارة مصر كـــلهـــا، فرفض عثمـــان، فـــاعتزل عمرو الولايـــة بناء على طلبه، ولم يعزله عثمان بن عفان

ABBYY PDF Transformer 2.0 Click here to buy www.ABBYY.com

رابعًا: أن من أبنـــاء البلاد المفتوحة وبخاصة بلاد فارس، من لم يسترح إلى سيـــادة العرب عـــليهم، وسيطرقم عـــلى بلادهم، وهم الذين كانوا بـــالأمس يحتقروهم وينظرون إليهم فـــى استعـــلاء، فعزَّ عـــلى أنفسهم ذلك، فـــلم يتركوا فرصة لزعزعة الدولة الإسلامية إلا و انتهزوها، خاصة مـــن لم يـــتمكن الإســـلام فـــى قـــلوبهم منهم، وهـــؤلاء كـــان لهم دور فـــى إثارة الفتنة على عثمان، واستمر حتى آخر العصر الأموى

خـــامسًا: أن كـــل ما تقدم كان يمكن تداركه وعلاجه، بل إن عثمان - رضـــى الله عنه – حاول إجابة كل مطالب الثائرين عليه والمؤلبين للناس ضده، لكنهم لم يقتنعوا؛ لأن الخـــليفـــة لان معهم وحـــلُم عـــليهم أكثر مما كـــــان يـــنبغـــى، ولو أخذهم بـــالشدة والحزم كمـــا كـــان يفعـــل عمر بن الخطاب مع أمثالهم لارتدعوا، ولحُسمت الفتنة.

عبدالله بن سبأ

هـــو رجـــــل يهودى من صنعـــاء ادعـــى الإســـلام فـــى عهد عثمـــان، وأخذ يبث فـــى المسلمين أفكارًا غريبة وبعيدة عن الإسلام، مثل قوله بـــالوصيـــة أى أن عـــلى بن أبـــى طـــالب، هو وصى النبي صلى الله عـــليه وســـلم وخـــليفته من بعده، ومعنـــى ذلك أن الخلفاء الثلاثة، أبا بكر وعمر وعثمان اغتصبوا حق على فى الخلافة

وبـــدأ ابـــن ســـبـــأ من هذه النقطـــة، مستغـــلا كـــل الأطراف التـــى سبق الحـــديـــث عـــنهـــا، ووضع للثـــائرين والنـــاقمين عـــلى اختـــلاف مشـــاربهم وأهدافهم خطـــة للتحرك ضد الخـــليفـــة وولاته، وأشـــار عليهم بالنيل من الولاة أولا؛ لمـــا كـــان يعرف أن عثمـــان نفسه فوق الشبهـــات، حتى إذا نجحوا فـــى تشويه سمعـــة الولاة، انتقـــلوا إلى عثمـــان باعتباره المسئول الأول عنهم، ومما قاله لأتباعه: إن عثمان أخذها بغير حق، وهـــذا وصـــــى رســـول الله – يـــقصـــد عـــــليًّا – فـــــانـــهضـــوا فـــــى هذا الأمر فـــحركـــوه، وابـــدءوا بـــالطعن فـــى أمرائكم، وأظهروا الأمر بـــالمعروف والنهى عن المنكر، تستميلوا الناس أخـــذ ابـــن ســـبـــــأ يـــتنـــقـــــل بـــهذا التدبير الشيطـــانـــى بين الأقـــاليم من البـــصرة إلى الكـــوفـــــة إلى الشـــــام إلى مـــصر، يـــبث أفـــكـــاره وسمومه، وكـــانت خطته بـــالغـــة الإحكـــام، جعـــلت أتبـــاعه ينجحون فى زرع الشكوك فـــى نفوس الصحـــابة فى المدينة، مثل على بن أبى طـــــالب، و الزبـــير بـــن العـــوام، و طـــــلحـــــة بـــن عـــبيد الله، والسيدة عـــائشـــة – رضـــى الله عنهـــا – وهـــؤلاء كـــلهم كـــانت تصـــلهم معلومات كـــــاذبـــــة عـــن ظـــــلم ولاة الأقـــاليم، لكنهم صدقوهـــا للأسف، ولم يتبينوا كـــذبهـــا إلا بعد فوات الأوان، و بعد أن وقعت الواقعـــة، وقتـــل الخـــليفـــة الثالث مظلومًا.

موقف عثمان من الفتنة

لمـــــا ســـمع عـــثمـــان بن عفـــان مـــا يقـــال عن ولاة أقـــاليمه جمع أهـــل المدينـــة، وقـــال لهم: أشيروا عـــلى، فـــأشاروا عليه أن يرسل رجالا إلى الأقـــاليم للتحقيق فيمـــا وصله من كلام عنهم، كما كان يفعل عمر بن الخطـــاب، فاستجاب على الفور، وحدد أربعة من الصحابة من غير بنـــى أميـــة – حتـــى لا يتهمهم أحد بـــالتحيز للولاة - للقيـــام بما كلفهم به، فـــأرســـل محمد بن مســـلمـــة إلى الكوفـــة، وأســـامة بن زيد إلى البـــصرة، وعـــبد الله بن عمر إلى الشـــام، وعمـــار بن يـــاسر إلى مـــصر، وعـــــاد الثـــــلاثـــــة الأول إلى المـــدينـــة، وقدموا تقـــارير للخـــليفـــة بـــأن الأمور تجرى عـــلى خير وجه، وأن الشكاوى التى تصل إلى المدينـــة كـــلهـــا بـــاطـــلة، ولا أســـاس لهـــا من الصحـــة؛ وأن الولاة يقومون بعمـــلهم خير قيـــام، أما عمار بن ياسر فلم يعد من مصر، لأنـــه لمـــــا وصـــــل إليهـــا، تصـــادف وجود ابن سبـــأ فيهـــا، فـــاستقطبه للأسف وضمه إلى صفه،

مما جعل الأمر يستفحل ويزداد خطرًا وبعد أن تبين بطــلان مزاعم أتبــاع ابن سبأ، الذين ألبوا الناس على عــثمـــان – وكــــلهـــم عرب مســلمون– لان لهم الخــليفــة، وعطف عــليهم وحاول استرضاءهم بدلا من عقابهم وأخذهم بالشدة

ولمــا تهيأ الجو، ورأى زعمــاء الفتنــة أن الفرصــة ســانحة للتخلص من الخـــليـــفــــة، خــرجــوا إلى المــديـنـــــة عــــلى رأس وفود أهــل مصر و البصرة و الكوفــة، وكــانوا نحو عشرة آلاف متظــاهرين بالحج، مخفين نيــاتهم الخبيثــة عن عــامــة النــاس، الذين شكوا إلى الخليفة من تــصرفـــات لولاتهم لا يرضونهــا، فوعدهم خيرًا، وأمرهم بــالعودة إلى

أمصـــارهم، فرضوا لمــا رأوه من سمــاحته وعطفه، وعادوا. أما زعماء الفتنــة من أمثــال: الأشتر النخعى، و عمرو بن الأصم، و حرقوص بن زهير السعدى، و الغــافقـــى بن حرب، فقد ســاءهم عودة عامة النــاس الذين لا عــلم لهم بــالمــؤامرة، وسُقِطَ فـــي أيديهم، وعزموا على قتــل الخــليفــة أو عزله، فتخلفوا فى المدينة، وزوَّروا كتابًا، ادعوا كذبًا أنهم وجدوه مع غــلام من غــلمـــان عثمان، موجه إلى عبد الله بن سعد والى مصر يأمره فيه بقتل بعض الثائرين وتعذيب بعضهم الآخر

عــاد الثـــائرون من الطريق بهذا الكتـــاب، فعرضوه على على بن أبي طـــــالب، فــــأدرك أنــه مــزور، لأن الذيـــن ادعــوا أنهم وجدوه هم أهــل مصر، ولكنهم عندمـــا عادوا عادوا جميعًا، أهل مصر والكوفة والبــصرة، مـــع أن طرقهم مختــلفـــة، فعودتهم فـــي وقت واحد، تدل عـــلى أن الأمر مدبر، فقــال لهم عــلى: كيف علمتم يا أهل الكوفة ويا أهــــل البــصرة بمــا لقـــى أهــل مصر وطريقكم مختــلف وقد سرتم عــلى مراحل ؟! هذا والله أمر أبرم بالمدينة

ولما علموا أن أمرهم قد ظهر، وخطتهم انكشفت، قالوا لعلى: ضــعوه حيث شئتم – أى الكتــاب مصممين عــلى كذبهم – لاحـــاجــة بنــا إلى هــذا الرجــــل، ليــعتزلنــا، ولا شك أن هذا تســليم منهم بــأن قصــة الكتــاب مختــلقة، وأن غرضهم الأول والأخير هو خلع أمير المؤمنين أو سفك دمه، الذى عصمه الله بشريعة الإسلام.

محاصرة بيت الخليفة وقتله

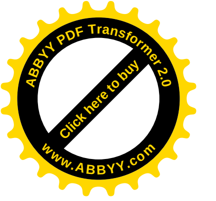
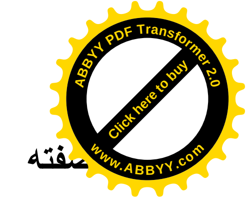
تــشبــث الأشـــرار بـــهذا الكـــتـــــاب المزور، ولم يستجيبوا لنصح الصحـــابـــة بالرجوع إلى بلادهم؛ لأن الخليفة لم يرتكب خطأ يستحق عليه العقاب، فحــاصروه فى بيته، ولم تكن هناك قوة تدافع عنه، فقد رفض عرضًا مـــن معـــاويـــة بن أبـــي سفيـــان بـــالذهـــاب معه إلى الشـــام، وكره أن يغــادر جوار رسول الله كمـــا رفض أن يرســل معــاويــة إليه جندًا من الشـــام لحمـــايته، لأنه كره أن يضيق على أهل مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم بجيش يضايقهم فى معاشهم و لما رأى على بن أبى طالب والزبير بن العوام و طلحة بن عبيد الله وغيرهم الحصـــار المضروب عـــلى بيت الخــليفـــة؛ أرســلوا أبناءهم لحراسته، لكنه رفض ذلك أيضًا، وأقسم عــليهم بمــا له من حق الطــاعة عـــــليهم أن يذهبوا إلى بيوتهم ويغمدوا سيوفهم، لأنه أدرك أن أبنـــاء الصـــحـــابـــة وهم عدد قــليــل، إن تصدوا لهــؤلاء الأشرار – وكــانوا زهــاء عــشرة آلاف – فــقد يــقتــلونهم جميعًا، فــآثر ســلامتهم وحقن دمــاءهم، ولعــله كــان يفكر أن الثوار إذا قتــلوه هو فستنتهـــى المشكلة، فرأى أن يــضحـــــى بــنفــسه، حــقنًا للدمـــــاء، ولم يــدر أن دمـــه الطـــــاهــر الذى سيُسفك، كــان مقدمــة لبحور من دماء المسلمين، سالت بعد ذلك نتيجة مقتله امتثــل أبنـــاء الصحابة لأمره، وعادوا إلى بيوتهم، لكنه طلب منهم ماء للشـــرب، بـــعد أن مـــنعـــه الثوار عنه، وهو الذى اشترى للمســـلمين بئر رومـــة ووهبها لهم، بناء على طلب من الرسول صلى الله عليه وسلم الذى بشره بنهر عظيم فى الجنة .وكـــــانـــت أم المـــؤمـــنيـــن أم حـــبيبـــة بنت أبـــي سفيـــان أول المغيثين لعــثمــــان، لكــنهـــا لم تستطع أن توصـــل المـــاء إليه لأن الثوار منعوهـــا، وأساءوا معها الأدب وسبوها، ولم يراعوا لها حرمة

فلما فعلوا بأم حبيبة ذلك، ذهب إليهم على بن أبى طالب – رضى الله عنهم – وقال لهم: إن الذى تصنعون لا يشبه أمر المؤمنين ولا أمر الكافرين، ل اقتطعوا عن الرجل المادة الطعام والشراب فإن الروم و فارس لتأسر فتطعم و تسقى، و ما تعرض لكم هذا الرجل، فبم تستحلون حصره وقتله ؟! قالوا: لا والله ولا نعمة عين – يعنى ولا قطرة ماء تصله – لا نتركه يأكل ويشرب وبعد ذلك اقتحموا على الخليفة داره اقتحامًا، متسلقين من دور مجاورة، وقتلوه وهو صائم يقرأ القرآن، وروعوا الأمة الإسلامية فى إمامها، الذى كانت تستحى منه الملائكة، والذى بشره النبي صلى الله عليه وسلم بالجنة، وتنبأ له بالشهادة، وكان استشهاده فى أواخر شهر ذى الحجة سنة ٣٥هـ قُتِل عثمان بن عفان مظلومًا لم يرتكب ذنبًا أو يقترف جرمًا يستحق به أن يرفع هؤلاء الأشرار أصواتهم عليه ولو كان كل ما رموه به من تُهم صحيحًا – مع أنه باطل وملفق – ما أباح لهم قتله، ولكنه الحقد الأسود و الأفكار الهدامة، التى زرعها ابن سبأ فى نفوسهم وعقولهم، جعلهم يرون فضائله وإنجازاته تهمًا وجرائم، فاتهموه –مثلا – بأنه تخلف عن بيعة الرضوان فى الحديبية، مع أنهم يعلمون أنه عندئذٍ كان فى مكة سفيرًا للرسول صلى الله عليه وسلم يقوم بمهمة اعتذر عنها عمر بن الخطاب لخطورتها، وناب النبي صلى الله عليه وسلم نفسه عن عثمان فى البيعة، فكانت بيعة عن عثمان أفضل من بيعة الصحابة لأنفسهم، كما اعتبروا جمعه للقرآن فى مصحف واحد جريمة، مع أنه أعظم أعماله باعتراف الصحابة أنفسهم وقد وصف أبو بكر بن العربى قتلة عثمان وصفًا صادقًا، فقال : وأمثل ما روى فى قصته – أى عثمان – أنه بالقضاء السابق، تألب عليه قوم لأحقاد اعتقدوها، ممن طلب أمرًا فلم يصل إليه،أو حسد حسادة أظهر داءها، و حمله على ذلك قلة دين، وضعف يقين، وإيثار العاجلة على الآجلة، وإذا نظرت إليهم دلك صريح ذكرهم على دناءة قلوبهم، و بطلان أمرهم وقد لا يصدق بعض الناس أن رجلا واحدًا هو عبد الله بن سبأ يستطيع أن يفسد أمر أمة بكاملها، مهما تبلغ قدراته، بل وصل الأمر ببعضهم إلى إنكار وجوده أصلا، ولكن الواقع أن ابن سبأ كان موجودًا ووجوده حقيقة، وهو كأى متآمر خبيث يتمتع بقدر كبير من الدهاء و المكر، مكنه من أن يستميل إلى صفه صحابيين جليلين هما أبو ذر الغفارى و عمار بن ياسر، وأن يستغل كل الساخطين من أبناء العرب الطامعين فى الوظائف، بالإضافة إلى الحاقدين من أبناء البلاد المفتوحة، الذين سقطت دولهم، وبادت عروشهم، وخلق من ذلك كله .

خلافة على بن أبى طالب ٣٥-٤٠ هـ

نسبه ونشأته

هو على بن أبى طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم، وهى أول هاشمية ولدت هاشميًّا، وقد أسلمت وهاجرت إلى المدينة، وهو ابن عم النبي صلى الله عليه وسلم، وتربى فى بيته، لأن أباه كان كثير العيال قليل المال، فأراد النبي أن يخفف عن عمه أعباء المعيشة، فأخذ عليًّا ليعيش معه فى بيته، وكان عمره يومئذٍ ست سنوات، فشاءت إرادة الله أن ينشأ على فى بيت النبوة، فوقاه الله أرجاس الجاهلية، فلم يسجد لصنمٍ قط، وكان أول من أسلم من الصبيان

كـــان عـــلى بن أبي طالب ربعة من الرجال، يميل إلى القصر، أسمر اللون، حـــسن الوجـــه واســـع العـــينـــين، أصـــلع الرأس، عريض المنكبين، غزير اللحية، قوى الجسم عُرف عـــلى بن أبـــى طـــالب بـــالشجـــاعـــة والعـــلم الغزير، والزهد فى الدنـــيـــــا مـــع القـــدرة عــــليهـــا، وكـــان واحدًا ممن حفظوا القرآن كـــله من الصحـــابـــة، وعرضوه عـــلى النبي صلى الله عليه وسلم، ومن أكثرهم معرفـــة بـــالقرآن و بتفسيره وأسباب نزوله، و أحكامه، و كان من كتاب الوحـــــى، و لذا اخــــتص فـــــى ســـيرتـــه بـــلقب الإمـــام لأفضـــليته العـــلميـــة والفـــقهيـــة، وكـــان أقضـــى الصحـــابـــة رضـــى الله عنهم جميعًا، واشتهر بالفصاحة والخطابة وقوة الحجة، وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة، وقد تـــآخـــى الرسول صـــلى الله عـــليه وســـلم مع على بعد الهجرة، ثم زوجـــه ابـــنتـــه فـــــاطمـــة، وأنجب منهـــا الحسن والحسين، وهمـــا اللذان حفظا نسل الرسول صلى الله عليه وسلم شهد على المشاهد كلها –عدا تبوك – مع رسول الله صلى الله عليه وســـلم، فكـــان فـــى طـــليعـــة من صرعوا المشركين فى بدر، وواحداً مـــن الذيـــن ثـــبتـــوا مـــع رســـول الله صـــــلى الله عـــليه وســـلم فـــى غزوة أحـــد، وحـــمـــــل اللواء عـــندمـــــا ســـقط مـــن يـــد مـــصعب بن عمير بعد استشهـــاده، حمله بيده اليسرى، وظل يقاتل بيده اليمنى، وصرع فى غزوة الخندق عمرو بن عبد ود فـــارس قريش والعرب كـــلها عندما لم يـــقدم أحد عـــلى مبـــارزته وأعطـــاه الرسول صـــلى الله عـــليه و ســـلم الرايـــة يوم خيبر، و قـــال: لأعطين اللواء غدًا رجلا يحب الله ورسوله ويـــحبـــه الله ورســـوله، وأخـــبر أن الفـــتح سيكون عـــلى يديه، وتحقق ذلك، وثبت مع من ثبتوا مع النبي صلى الله عليه وسلم فى حنين

وفـــى غزوة تبوك خـــلفه النبي صـــلى الله عـــليه وســـلم فـــى أهـــله يرعـــى مصـــالحهم وشئوهم، ولما تأذى من ذلك، وقال: يا رسول الله، تخـــلفنـــى فـــى النســـاء والصبيـــان؟!، فقـــال له النبي صـــلى الله عـــليه وســـلم: أمـــا ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى غير أنه لا نـــبـــى بعدى ؟، إشـــارة من النبي إلى أن موســـى عندمـــا ذهب لمنـــاجـــاة ربه، ترك أخـــاه هارون، خلفًا له فى قومه، كما جاء فى قوله تعـــالى : [وقـــال موســـى لأخيه هارون اخلفنى فى قومى وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين] الأعراف: ١٤٢ وكان رضى الله عنه موضع ثقة واحترام من الصحابة جميعًا، فكان من أكـــبر أعوان أبـــى بكر الصديق فـــى قمع حروب الردة، ولازم عمر بن الخطـــاب، فكـــان لا يقطع أمرًا دون مشـــاورته، والاستنـــارة برأيه، وكـــــان عـــمر يقول :قضيـــة و لا أبـــا حسن لهـــا. و عـــاون عثمـــان بـــــالرأى والمشورة مثـــلمـــا كـــان يفعـــل مع أبـــى بكر وعمر، فـــلم يـــحجـــب عـــنه نـــصحـــه ومـــؤازرته فـــى الفتنـــة التـــى أطبقت عـــلى الأمـــة، وأرســـل أولاده مع بقية أولاد الصحابة لحراسته والدفاع عنه، ثم ذهب بنفسه لمواجهة الأشرار.

بيعته بالخلافة

رُوِّعت مدينـــة رسول الله صلى الله عليه وسلم بمقتل أمير المؤمنين عثمـــان بن عفـــان – رضـــى الله عنه – وعم الناس الهلع والرعب، لهذه الجريمة التى أقدم عليها هؤلاء الأشرار سيطر الثـــائرون عـــلى المدينة، وظل الغافقى بن حرب زعيم ثوار مصر، وأحد كبـــار زعمـــاء الفتنـــة يصـــلى بـــالنـــاس إمـــامًا فـــى مسجد رسول الله صـــلى الله عـــليه وســـلم خمســـة أيـــام، والدولة كـــلهـــا بدون خـــليفـــة، ولم يكن فـــى وسع أحد من الثوار أن يرشح نفسه لهـــا، لأهم يعلمون أن هذا الأمر يخص المهاجرين وحدهم وبدأ الثـــائرون يعرضون منصب الخـــلافة على كبار الصحابة: على بن أبـــــى طـــــالب، وطـــــلحـــــة بن عبيد الله، وسعد بن أبـــى وقـــاص، و الزبـــير بـــن العـــوام، وعـــبدا لله بـــن عـــمر بـــن الخـــطـــــاب، فـــرفضوا جميعًا، وسمـــاهم عـــلى بن أبي طالب الثائرين ولعنهم على فعلتهم الشنعـــاء، فهددهم الثـــائرون بقتـــلهم جميعًا كمـــا قتلوا عثمان إن لم يقبل أحدهم منصب الخلافة وفـــى مثـــل هذه الظروف العصيبـــة كان لابد من رجل شجاع غير هياب، يـــتقـــدم الصـــفوف

ـل الأمانة وسط الأخطار المحدقة بها، واتجهت الأنظار إلى على بن أبى طالب، وتعلقت به الآمال، ترج تحمل المسئولية، وقيادة الركب إلى بر الأمان، وألح عليه كبار الصحابة إلحاحًا شديدًا لتولى المنصب الشاغر، منصب الخلافة الجليل، فقبل تجشم تبعاتها فى هذه الظروف الدقيقة، وكان قبوله لها ضربًا من ضروب الفروسية والشجاعة، والاحتساب عند الله، والنزول على رغبة كبار الصحابة كان على بن أبي طالب هو أول خليفة يخطب قبل البيعة، وكانت خطبة قصيرة، أشهد الله عليهم، وأشهدهم على أنفسهم أنهم هم الذين ألحوا عليه تقبل أمرٍ كان له كارهًا، لتبعاته ومسئولياته، فلما وافقوا بايعوه، ولهذا كان عليه أن يخطب مرة أخرى خطبة يوضح فيها أسلوبه فى الحكم، فقال: إن الله أنزل كتابًا هاديًا، بين فيه الخير والشر، فخذوا بالخير ودعوا الشر، الفرائض الفرائض أدوها إلى الله تعالى يؤدكم إلى الجنة، إن الله حرم حرمات غير مجهولة، وفضل حرمة المسلم على الحرم كلها، وشد بالإخلاص والتوحيد حقوق المسلمين، فالمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده إلا بالحق، لا يحل دم امرئ مسلم إلا بما يجب، بادروا أمر العامة، وخاصة أحدكم الموت، فإن الناس أمامكم، وإن من خلفكم الساعة تحدوكم تخففوا تلحقوا، فإنما ينتظر الناس أخراهم، اتقوا الله عباد الله فى بلاده وعباده، إنكم مسئولون حتى عن البقاع والبهائم، أطيعوا الله فلا تعصوه [واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون فى الأرض.[الأنفال٢٦ خطبة قصيرة مناسبة للمقام وللظرف الذى قيلت فيه، فقد بدأها بالتذكير بالله، وحث المسلمين على عمل الخير وتجنب الشر، وحذرهم حرمات الله والوقوع فيها، وأهمها حرمة دم المسلم، ولعله بذلك يعرض بقتلة عثمان ويحدد موقفه من هذه الفعلة الشنعاء، وأنه لن يتساهل فى القصاص منهم، وإقامة الحد عليهم.

على والقرارات الصعبة

تمت بيعة على بن أبي طالب فى اليوم الخامس والعشرين من شهر ذى الحجة سنة ٣٥ هـ فاستقبل بخلافته عام ٣٦هـ، وكان عليه أن يواجه الموقف العصيب، الذى نتج عن استشهاد أمير المؤمنين عثمان بن عفان، باتخاذ قرارات صعبة تجاه عدد من المعضلات، التى كان أولها -القصاص من قتلة عثمان – رضى الله عنه - وكان ذلك مطلب الصحابة، ففى أول يوم من خلافته ذهب إليه طلحة والزبير، وطالباه بإقامة الحد على القتلة، وكان هو مقتنعًا بذلك، ولذلك قال لهما: يا إخوتاه إنى لست أجهل ما تعلمون ولكن كيف أصنع بقوم يملكوننا ولا نملكهم ؟ هاهم هؤلاء قد ثارت معهم عبدانكم، وثابت إليهم أعرابكم، وهم خلالكم –أى يعيشون بينكم يسومونكم ما شاءوا – أى يسيطرون عليكم – فهل ترون موضعًا لقدرة على شىء مما تريدون ؟ قالوا: لا، قال: فلا والله لا أرى إلا رأيًا ترونه أبدًا ويتضح من هذا أن على بن أبي طالب لم يكن أقل من غيره حرصًا على إقامة الحد على قتلة عثمان، و لكن الظرف الذى هم فيه لا يمكنه من ذلك، فإذا كان الذين نفذوا القتل فى عثمان عددًا محدودًا، و هم الغافقى بن حرب، ومعه سودان بن حمران وكنانة بن بشر التجيبى، فإن وراءهم نحو عشرة آلاف من الثوار الذين ضللوهم، وهم مستعدون للدفاع عنهم، ولذلك عندما كانوا يسمعون قائلا يقول: من قتل عثمان ؟ كان هؤلاء جميعًا يصيحون :نحن جميعًا قتلناه، ولذا كان رأى الإمام التريث حتى تهدأ الأمور، ويعود الناس إلى بلادهم، حتى يتمكن من التحقيق فى الأمر وإقامة الحد، وقد اقتنع الصحابة بهذا الحل، لكن الأمور تطورت تطورًا آخر على غير ما يهوى الجميع -وتغيير كل ولاة عثمان على الولايات الكبرى: مصر والشام، والكوفة، والبصرة حتى تهدأ الفتنة. وقد اتخذ على بالفعل قرارًا بذلك، فعزل معاوية بن أبى سفيان عن الشام، وعين بدلا منه سهل بن حنيف، وعزل عبد الله بن سعد بن أبى السرح عن مصر وعين بدلا منه قيس بن سعد بن عبادة، وعزل عبد الله بن عامر عن البصرة وعين بدلا منه عثمان بن حنيف، وعزل أبا موسى الأشعرى عن الكوفة، وعين بدلا منه

عمارة بن شهاب وهذا القرار الخطير راجعه فيه أقرب الناس وأخلصهم له، ابن عمه عبد الله بن عباس، ونص بالانتظار فترة ولو لمدة سنة، لتكون الأمور قد هدأت واستقرت، ويتم التغيير فى ظرف مناسب، لكن الإمام أصر على تنفيذ قراره محتجًا بأن هؤلاء الثوار ثاروا غضبًا من ولاة عثمان، سواء أكانوا مخطئين أم مصيبين، ولن تهدأ ثورتهم إلا إذا عُزِلوا وإزاء إصرار على – رضى الله عنه – على تنفيذ قراره، اقترح ابن عباس أمرًا آخر، بأن يعزل من يشاء من الولاة، ويُبقى معاوية على ولاية الشام، وكان اقتراحًا ذكيًا وجيهًا، فمعاوية لم يكن موضع شكوى أحد من رعيته، ولم يشترك أهل الشام فى الثورة على عثمان وقتله، وعلى هذا فلو أقره علىّ فى ولاية الشام، فلن يلومه أحد، وكان ابن عباس يعرف من ناحية أخرى أن معاوية لن يذعن لقرار العزل، و سيبقى فى لايته، مسببًا متاعب كثيرة، ومع هذا صمم الإمام على بن أبي طالب على عزل ولاة عثمان جميعًا بما فيهم معاوية بدأ الولاة الجدد يتجهون إلى ولاياتهم لمباشرة أعمالهم، فذهب قيس بن سعد إلى مصر، ودخلها بدون متاعب؛ لأن واليها القديم عبدا لله بن سعد تركها منذ علمه بمقتل عثمان، وذهب إلى فلسطين، واعتزل الفتنة، وبقى هناك حتى مات فى مدينة عسقلان سنة ٣٧هـ وكذلك دخل عثمان بن حنيف البصرة، وتولى شئونها بدون مشاكل؛ لأن واليها عبد الله بن عامر كان قد تركها وذهب إلى مكة أما عمارة بن شهاب فلم يمكنه أهل الكوفة من دخولها، وتمسكوا بواليهم أبى موسى الأشعرى، فوافق الإمام على على ذلك، وأقر عليهم أبا موسى الأشعرى وكذلك لم يستطع سهل بن حنيف دخول الشام، فقد منعه معاوية بن أبى سفيان، رافضًا قرار العزل. وهنا لم يعامل الإمام على الشام معاملة الكوفة، فإنه رفض إقرار معاوية فى ولاية الشام، مع أن تمسك أهلها به كان أشد من تمسك أهل الكوفة بأبي موسى الأشعرى.

بين على ومعاوية

دارت مراسلات عديدة بين على ومعاوية – رضى الله عنهما – يطلب الأول من الآخر مبايعته بالخلافة، والإذعان لأوامره، باعتباره الخليفة الشرعى الذى بايعه معظم الصحابة فى المدينة، على حين يطلب الثانى من الأول القصاص من قتلة عثمان، باعتباره ولى دمه، لأنه ابن عمه، وبعدها ينظر فى بيعته ولم تكن وجهة نظر الإمام فى قضية القصاص رافضة، لكنه كان يرغب فى تأجيلها حتى تتهيأ الظروف المناسبة، ولكن معاوية تمسك بالقصاص أولا، وجعله شرطًا لازمًا يسبق البيعة ولما لم تؤد الاتصالات بينهما إلى نتيجة، وصلت رسالة من معاوية إلى على تتضمن جملة واحدة، هى: من معاوية إلى على، بعثها معاوية بيضاء مع رجل يدعى قبيصة من بنى عبس، وأمره أن يدخل بها المدينة، رافعًا يده حتى يراها الناس، ويعلموا أن معاوية لم يبايع عليًّا، إذ يخاطبه باسمه فقط دون أن يصفه بأمير المؤمنين

وأدرك علىٌّ رضى الله عنه– أن حمل معاوية على البيعة سلمًا غير ممكن، فأخذ يعد العدة لحمله على البيعة بالقوة، باعتباره خارجًا على طاعة الخليفة، على الرغم من أن كثيرين نصحوه بعدم اللجوء إلى الحرب لعواقبها الوخيمة، ومن بينهم ابنه الحسن لكن الإمام على أصر على موقفه، وبينما هو يستعد لذلك، جاءته أخبار أخرى مفزعة من مكة، تخبره بمسير عائشة وجماعتها إلى البصرة.

موقعة الجمل ٣٦هـ

كانت أم المؤمنين عائشة – رضى الله عنها – عائدة من أداء فريضة الحج، وسمعت بمقتل عثمان، فعادت من الطريق إلى مكة، وأعلنت سخطها على قتله، وأخذت تردد قُتل والله عثمان مظلومًا لأطلبن بدمه، ثم وافاها فى

ة طلحة و الزبير – رضى الله عـــنهـــمـــــا – وبـــنو أمـــيـــة، وكـــل من أغضبه مقتـــل عثمـــان، وراحوا يتبـــاحثون الأمر، وهداهم تفكيرهم إلى تجهيز جيش للأخذ بـــالثـــأر مـــن قتـــلة عثمـــان والسير به إلى البصرة، بـــاعتبـــارهـــا أقرب بـــلد إليهم من البـــلاد التـــى اشترك أهـــلها فى الثورة على عثمان وقتله، وكـــــان هـــذا اجـــتهـــــادًا منهم مجـــانبًا للصواب، لأنهم بهذا العمـــل كـــأنهم أقـــــاموا حكومـــة أخرى غير حكومـــة الإمـــام، المبـــايع شرعًا من الأمـــة، والمـــنوط بـــه وحـــده إقـــــامـــة الحدود والقصـــاص من القتـــلة، وربمـــا كـــان الأفضـــل من هذا أن يتوجهوا إلى المدينـــة، ليشدوا من أزر الخـــليفـــة فـــى هذا الوقت العصيب الذى تمر الأمـــة به، ويتشاوروا معه فى إيجاد طريقة لحل المشكلات التى تواجهها الأمة

و صـــــلت أخـــبـــار سير عـــائشـــة ومن معهـــا إلى عـــلى وهو يتـــأهب للخروج إلى الشـــام لقتـــال معـــاويـــة، فـــاضطر إلى تغيير خطته، فلم يـــــعـــد مـــمكـــنًا أن يـــذهـــب إلى الشـــــــام، ويـــترك هــــــؤلاء يـــذهـــبون إلى البصرة، فاستعد للذهاب إلى هناك خرجت السيدة عـــائشـــة – رضـــى الله عنهـــا – ومعهـــا فى البداية نحو ألف رجـــــل لكـــن هذا العدد تضـــاعف عدة مرات، بـــانضمـــام كثيرين إلى الجيش، نظرًا إلى مكانة عائشة، فلما اقتربوا من البصرة، أرسل واليـــهـــــا عثمـــان بن حنيف إلى أم المـــؤمنين عـــائشـــة رسولين من عنده، همـــا عمران بن حصين وأبو الأسود الدؤلى يســـألانهـــا عن ســـبب مـــجيـــئهـــا. فقـــالت لهمـــا: إن الغوغـــاء من أهـــل الأمصـــار ونزاع القـــبـــــائـــل غزوا حرم رسول الله صـــلى الله عـــليه وســـلم، وأحدثوا فيه الأحـــداث وآووا فـــيه المـــحدثـــين، واســـتوجـــبوا لعـــنــــــة الله ورســـوله، مع مـــــا نــــــالوا مـــن قـــتـــــل إمـــــام المســـلمين، بـــلا ترة ولا عذر، فخرجت فـــى المسلمين، أعلمهم ما أتى هؤلاء

و كـــذلك ســـــأل الرسولان طـــلحـــة و الزبير – رضـــى الله عنهمـــا – عن ســـبب مـــجيئهمـــا، فقـــالا: الطـــلب بدم عثمـــان، فرجع الرجـــلان وأخبرا عـــثمـــان بن حنيف، فقـــال: إنـــا لله وإنـــا إليه راجعون ! دارت رحـــى الإســـلام و رب الكعبة، وأصرَّ على منعهم من دخول البصرة، فدارت بـــينـــه وبـــينـــهم معركـــة عند مكـــان يُسمـــى الزابوقـــة قُتـــل فيهـــا نحو ستمائة من الفريقين، فلما رأوا كثرة القتلى تنادوا إلى الصلح والكف عن القتـــال، وانتظـــار قدوم الإمـــام عـــلى إلى البصرة، و تم الصلح عـــلى أن يتركوا للوالى دار الإمـــارة والمسجد وبيت المـــال، وينزلوا هم فى أى مكان بالبصرة.

وصول على إلى البصرة

وصـــل عـــلى إلى البصرة وعـــلم بمـــا حدث من سفك الدمـــاء و هـــاله ذلك، فـــأرســـل عـــلى الفور القعقـــاع بن عمرو التميمـــى إلى معسكر عـــائشة و طلحة و الزبير، ليعرف ماذا يريدون، فقالت عائشة رضـــى الله عنهـــا –: خرجنـــا لنصلح بين الناس، وكذلك قال طلحة و الزبير، فســـألهم مـــا وجه الإصـــلاح الذى تريدون، قـــالوا :قتـــلة عثمـــان، قـــال: لقد قتـــلتم ستمـــائـــة من قتلة عثمان، فغضب لهم ستة آلاف مـــن قـــبـــائـــلهم، وكنتم قبـــل ذلك أقرب إلى الســـلامـــة منكم الآن، قـــــالوا: فـــمــــــاذا تـــرى أنـــت ؟، قـــــال: أرى أن هـــذا الأمـــر دواؤه التسكين، واقترح عليهم تجديد البيعة لعلى، ومقابلته، والتفكير بعد ذلك فيما يصلح المسلمين، فقبلوا ومعنـــى ذلك أن الجميع كـــانوا راغبين، فـــى الإصلاح، كل على حسب اجتهـــاده، لكن عنـــاصر الشر التـــى كـــانت ل اتزال فـــى معسكر عـــلى هى التى أفسدت السعى الذى قام به القعقاع

أتباع ابن سبأ يفسدون الصلح ويبدءون المعركة

كانت نقطة الضعف التى فى معسكر الإمام على هى وجود كثيرين ممن اشتركوا فى قتل عثمان والتخطيط له، وعلى رأسهم عبد الله

ابن سبأ، و الأشتر النخعى، ولم يكن لعلى حيلة فى وجودهم معه، ولا قدرة على إبعادهم، لكونهم قوة كبيرة تساندهم عصبات قبلية، و قد أدرك زعماؤهم الذين تولوا كبر الثورة على عثمان أن الصلح بين الفريقين سيجعل عليًّا يتقوى بانضمام الفريق الآخر إليه، ويقيم الحد عليهم باعتبارهم قتلة عثمان، فعزموا على إفساد الأمر كله

و ترتب على هذا العزم أن عقد ابن سبأ لهم مؤتمرًا تدارسوا فيه الأمر، فاقترح الأشتر أن يقتلوا عليًا كما قتلوا عثمان من قبل، فتهيج الدنيا من جديد، ولا يقدر عليهم أحد، لكن هذا الاقتراح لم يعجب ابن سبأ، فهو يريد أن يدخل الأمة كلها فى حرب طاحنة، لا أن يقتل فرد واحد وإن كان خليفة المسلمين، فأمرهم بشن هجوم فى ظلام الليل على جيش عائشة و طلحة و الزبير، بدون علم الإمام على، فاستجابوا لرأيه، وبينما الناس نائمون مطمئنون بعد أن رأوا بوادر الصلح تلوح فى الأفق، إذا بهم يفاجئون بقعقعة السلاح، وكانت هذه هى بداية حرب الجمل المشئومة التى راح ضحيتها خيرة الصحابة طلحة والزبير المبشران بالجنة، ونحو عشرين ألفًا من المسلمين.

أسباب خروج عائشة ومن معها

لم تكن أم المؤمنين عائشة، و لا طلحة و لا الزبير ولا أمير المؤمنين على يريدون سفك الدماء، و لا يتصورون حدوث ذلك، و كل ما دفع السيدة عائشة ومن معها إلى الخروج إنما هو اقتناعهم بأن عثمان قُتل مظلومًا، وعليهم تقع مسئولية إقامة الحد على قتلته، ولم يكونوا أبدًا معادين لعلى، أو معترضين على خلافته، وقد رأينا ميلهم جميعًا إلى الصلح، لولا أن أتباع ابن سبأ السبئية أفسدوا كل شىء وأشعلوا الحرب، و لقد ندمت السيدة عائشة ندمًا شديدًا على ما حدث، و قالت: والله لوددت أنى مت قبل هذا اليوم بعشرين سنة

وخلاصة القول أن تبعة هذه المأساة تقع على عاتق السبئية، فهم الذين أشعلوا الفتنة من البداية، وقتلوا خليفة المسلمين ظلمًا، وأشعلوا حرب الجمل، أما الصحابة، فقد وصف ابن خلدون موقفهم وصفًا دقيقًا، فقال: وإذا نظرت بعين الإنصاف عذرت القوم أجمعين، وعلمت أنها كانت فتنة ابتلى الله بها الأمة.

معركة صفين

بعد معركة الجمل توجه على ابن أبى طالب بجيش يبلغ عدده نحو مائة ألف إلى صفين، واستعد معاوية لمقابلته بجيش يقاربه فى العدد، ودارت بينهما معركة شرسة فى شهر صفر سنة ٣٧هـ قُتل فيها من الجانبين نحو سبعين ألفًا، خمسة وعشرين ألفًا من جيش على، وخمسة وأربعين ألفًا من جيش معاوية، و لما رأى الناس كثرة القتلى من الجانبين تنادوا يطلبون وقف القتال، فجعل أهل العراق جيش على يصيحون فى أهل الشام جيش معاوية قائلين: من لثغور العراق إن فنى أهل العراق. ويرد الآخرون: من لثغور الشام إن فنى أهل الشام ومن هنا جاءت فكرة التحكيم.

التحكيم

رفع جيش معاوية المصاحف للاحتكام إليها، ووقف القتال فورًا، بدلا من سفك الدماء، وكانت فكرة التحكيم من عند عمرو بن العاص، و قد قبلها الطرفان، و أوقفت الحرب، بعد أن فزع الناس لكثرة

د القتلى أوقفت الحرب، وطلب من على ومعاوية أن ينيب كل منهما شخصًا يتفاوض باسمه، للفصل في القضايا محل الخلاف، فأناب معاوية عمرو بن العاص، وأناب على أبا موسى الأشعرى على كره منه وذلك فى شهر صفر ٣٧ هـ وكان على قد حاول أن ينيب عنه عبد الله بن عباس، لكن أنصاره، وبخاصة من أبناء اليمن بزعامة الأشعث بن قيس، رفضوا ذلك بحجة عصبية، وأعلنوها صراحة، كيف يكون الخلاف بين رجلين من قريش، ثم يكون الحكمان رجلين من قريش أيضًا، لقد حسدوا قريشًا على زعامتها للدولة الإسلامية التى استحقتها بسابقتها فى الإسلام، لا بنسبها فقط. واتفق على أن يأخذ الطرفان مهلة مدتها ستة أشهر، تهدأ فيها النفوس، ويجتمع الحكمان للتباحث والوصول إلى حل، وبعد مفاوضات طويلة وصل الحكمان إلى نتيجة رأياها أفضل الحلول، وهى عزل على –رضى الله عنه– عن الخلافة، ورد الأمر إلى الأمة تختار من تشاء، أما التصرف العملى فى إدارة البلاد التى كانت تحت يد كل من الرجلين المتحاربين، فيبقى كما كان: على يتصرف فى البلاد التى تحت حكمه وهى كل الدولة الإسلامية عدا الشام ومعاوية يتصرف فى البلاد التى تحت حكمه الشام.

موقف على وأنصاره من التحكيم

اجتهد الحكمان فيما توصلا إليه، وأعلناه على الناس، غير أن عليًّا – رضى الله عنه – لم يقبل تلك النتيجة، واعتبر الحكمين قد تجاوزا حدودهما؛ لأن الخلاف لم يكن على منصب الخلافة، وإنما على إقامة الحد على قتلة عثمان، وبيعة معاوية له، أيهما يسبق الآخر، ولذلك عدَّ نفسه فى حل من هذه النتيجة، فعادت الأمور إلى ما كانت عليه قبل التحكيم، أى إلى حالة الحرب.

ظهور الخوارج

حاول على أن يدعو أنصاره إلى حرب معاوية من جديد لكنهم كانوا قد ملوا القتال، وتقاعسوا عنه، بل إنهم انقسموا إلى شيعة وافقوه على ما صنع وخوارج اعتبروا التحكيم كان خاطئًا من أساسه، مع أنهم هم الذين فرضوه عليه، ثم تجاوزوا ذلك إلى ما هو أكثر تطرفًا، فاتهموا عليًّا بالكفر، لأنه حكَّم الرجال فى القرآن، وصاغوا شعارًا أخذوا يرددونه الحكم لله لا لك يا على، وكان هو يقول لهم: كلمة حق أريد بها باطل، وطالبوه بأن يعلن كفره، ويتوب ويسلم من جديد، حتى يعودوا إليه ويقاتلوا معه، فإذا لم يفعل فسوف يقاتلونه ولا يمكن لمسلم أن يتصور كيف يُكفَّر رجل من صحابة رسول الله المبشرين بالجنة، وممن رضى الله عنهم تحت الشجرة فى بيعة الرضوان، وإزاء هذا التطرف من الخوارج اضطر الإمام أن يحاربهم فى معركة شهيرة تُسمى معركة النهروان بالقرب من الكوفة، وبعدها لم يستطع أن يجمع شمل أنصاره لقتال معاوية من جديد كما كان يريد، بل أجبرته الظروف على التفاهم والاتفاق معه.

الاتفاق بين على ومعاوية

بعد انقسام جبهة على إلى شيعة وخوارج ازداد موقفه ضعفًا؛ لأن صراعه مع الخوارج كبده متاعب جسيمة، وفى الوقت نفسه كان موقف معاوية يزداد قوة، وبخاصة بعد أن استطاع الاستيلاء على مصر سنة ٣٨هـ، بجيش قاده فاتحها الأول عمرو بن العاص، ونشر قوات له فى أطراف العراق، وضم اليمن إليه، و أصبحت دولته تتسع بمرور الزمن، فى الوقت الذى تضيق فيه دولة على وانتهى الأمر بأن جرت بينهما مفاوضات طويلة، اتفقا على وضع الحرب بينهما وتكون لعلى العراق وبلاد فارس ولمعاوية الشام فلا يدخل أحدهما على صاحبه فى عمله بجيش ولا

ارة.. وتراضيا على ذلك.. وهكذا أجبرت الظروف التى تكون أحيانًا أقوى من الرجال على بن أبى طالب ا يصالح معاوية، ويسلم له بنصف الدولة الإسلامية تقريبًا، يحكمها حكمًا مستقلا، وهو الذى رفض فى بادئ الأمر إبقاءه واليًا على الشام وحدها يأتمر بأمره، وينتهى بنهيه

إدارة الدولة وتثبيت الفتوحات فى عهده

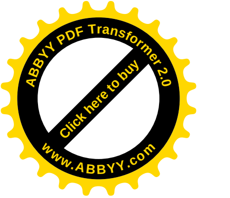
على الرغم من الظروف الصعبة التى واجهت الإمام عليًّا –رضى الله عنه– فإنه أدار الدولة باقتدار وعدالة ونزاهة وتجرد، ولم يقصر فى شأن من شئونها، واتخذ من الكوفة عاصمة لدولته منذ أن خرج من المدينة إلى البصرة وبعد معركة الجمل، وظل يحكم منها إلى أن لقى الله، وعهد بإدارة بقية أجزاء دولته إلى أقرب الناس إليه، وأخلصهم له، فجعل عبد الله بن عباس واليًا على البصرة وأخاه عبيد الله بن عباس واليًا على اليمن، وأخاهما الثالث قثم بن عباس على مكة والطائف، وعزل قيس بن سعد عن مصر، وولى مكانه محمد بن أبى بكر الصديق ولا لوم على عثمان وعلى إذا وليا أهل قرابتهما؛ لأن كل واحد منهما اجتهد لمصلحة الأمة، وكان أمينًا عليها، فعهد بإدارة الدولة إلى من رأى أنهم ينفذون سياسته، ولم يولِّ أى منهما أحدًا محاباة أو لقرابة ولم تشغل الإمام عليًّا مشكلات الدولة الداخلية عن التصدى لمحاولات الانتقاض التى حدثت فى بلاد فارس، فقد حاول الفرس تكرار ما فعلوه بعد استشهاد عمر بن الخطاب، فأرسل إليهم زياد بن أبيه فى جمع كثير، فوطئ بهم أهل فارس، وكانت قد اضطرمت، فلم يزل يبعث إلى رءوسهم، يعد من ينصره ويعينه، ويخوّف من امتنع عليه، وضرب بعضهم ببعض، فدل بعضهم على عورة بعض، وهربت طائفة، وأقامت طائفة، فقتل بعضهم بعضًا، وصفت له فارس، فلم يلقَ منهم جمعًا ولا حربًا

أما الروم فلم يتحركوا؛ لأن الإمبراطور قنسطانز لما عرض عليه بعض قواده أن ينتهزوا فرصة الحروب التى جرت بين على وأصحاب الجمل، وبينه وبين معاوية، ويغيروا من جديد على مصر والشام، رفض الإمبراطور معللا ذلك بأن غزوه لمصر والشام سيجعل المسلمين يتصالحون ويتحدون ويقاتلوننا جميعًا، ولن نقوى عليهم، فخير لنا أن نتركهم يقتل بعضهم بعضًا حتى يضعف شأنهم

استشهاد على رضى الله عنه

جاءت نهاية الإمام على بن أبى طالب على يد الخوارج، أنصاره السابقين، الذين بلغ بهم الغلو والتطرف حدًا اعتبروا فيه عليًّا ومعاوية وعمرو بن العاص أئمة ضلالة، وحمّلوهم مسئولية ما حدث، وقرروا قتل الثلاثة جميعًا، واتفقوا أن يتم التنفيذ فى وقت واحد، هو فجر اليوم السابع عشر من شهر رمضان سنة ٤٠ هـ؛ تيمنًا بذكرى معركة بدر حسب تصور نفوسهم المريضة وعقولهم الفاسدة، وانتدبوا ثلاثة للقيام بهذه المهمة، هم عبد الرحمن بن ملجم، والبرك بن عبد الله، و عمرو بن بكر، على أن يذهب الأول إلى الكوفة لقتل على، و الثانى إلى دمشق لقتل معاوية، والثالث إلى مصر لقتل عمرو بن العاص

وشاءت إرادة الله – تعالى – أن ينجو معاوية و عمرو من القتل، و أن تكون الشهادة من نصيب على، حيث ضربه عبد الرحمن بن ملجم بسيف مسموم فى جبهته، فشقها فمات من أثر الضربة بعد وقت يسير، بعد أن قضى أربع سنوات وبضعة شهور، لم يذق فيها طعم الراحة، وحاصرته المشكلات والمتاعب، وأنهكته الحروب من كل جانب.



وبعد وفاة الإمام على بايع أنصاره ابنه الحسن، وكان جندب بن عبد الله قد دخل على الخليفة بعد طعنه وتيقن ألا أمل فى حياته، وسأله: يا أمير المؤمنين إن فقدناك – ولا نفقدك – أنبايع للحسن ؟ فقال: ما آمركم و لا أنهاكم، أنتم أبصر، ولم يوصِ لأحد من بعده، بل قال لهم: و لكن أدعو الله - تعالى– أن يجمعكم بعدى على خيركم كما جمعنا بعد نبينا على خيرنا –يقصد أبا بكر–، مرسخًا بذلك قاعدة الشورى التى اتُبِعَت فى بيعته هو وبيعة الثلاثة الراشدين من قبله

أراد أنصار الحسن أن يتأهبوا لقتال معاوية من جديد، لكنه رفض، ورأى عدم جدوى ذلك، بل إنه وقف ضد فكرة اقتتال المسلمين من البداية راسل الحسن معاوية بشأن الصلح، فسر به سرورًا عظيمًا، وجاء إلى الكوفة فى شهر ربيع الأول سنة ٤١هـ، بعد ستة أشهر من خلافة الحسن، وبايعه الحسن والحسين، وتبعهما الناس، وبهذا قامت الدولة الأموية رسميًّا، وأصبح معاوية خليفة للأمة الإسلامية كلها، ولُقب لأول مرة بأمير المؤمنين، وكان يلقب قبل ذلك بالأمير فقط استبشر المسلمون خيرًا بتلك المصالحة، وحمدوا الله على انتهاء الفتنة وسفك الدماء، وسمُّوا ذلك العام عام الجماعة، وترك صنيع الحسن صدى طيبًا عند جمهور المسلمين، وأثنى عليه كثير من علماء أهل السنة، ورأوا فيما فعل تحقيقًا لنبوءة جده محمد صلى الله عليه وسلم، الذى قال ابنى هذا سيد، ولعل الله يصلح به بين فتين عظيمتين من المسلمين .

الخلافة الأموية وتطورها

قامت الخلافة الأموية رسميا في شهر ربيع الأول من سنة ٤١هـ، بعد أن تنازل الحسن بن علي بن أبي طالب –رضى الله عنه –عن الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان –رضى الله عنه– وبايعه هو وأخوه الحسين، وتبعهما الناس في الكوفة، وأصبح بذلك معاوية خليفة للمسلمين وحده، ولُقِّب بأمير المؤمنين، وكان قبل ذلك يلقَّب بالأمير فقط. واستبشر المسلمون خيرًا بهذا التطور، وحمدوا الله – تعالي –علي انتهاء الفتن والحروب، وسمُّوا ذلك العام عام الجماعة؛ حيث عادت إلي الأمة الإسلامية وحدتها، واجتمع شملها علي خليفة واحد، بعد الفرقة والنزاع، ولقي ما فعله الحسن بن علي كل تقدير وإجلال من جمهور المسلمين، وأثني عليه كثير من العلماء، ورأوا فيما أقدم عليه تحقيقًا لنبوءة جده محمد حين قال: إن ابني هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين – صحيح البخاري.

تطور نظام الخلافة في العصر الأموي

عرفنا فيما سبق كيف قامت الخلافة الإسلامية عقب وفاة الرسول صلي الله عليه وسلم وكيف كان يتم اختيار الخليفة في دولة الراشدين بالبيعة المباشرة من المسلمين لخليفتهم، بعد أن يرشحه عدد من الصحابة، كما حدث في خلافة الصديق، حيث بايعه عدد من الصحابة في سقيفة بني ساعدة بيعة خاصة، كانت بمثابة ترشيح له لمنصب الخلافة، ثم جاءت البيعة العامة له في مسجد الرسول صلي الله عليه وسلم – بعد مواراة جسده الطاهر تحت الثرى لتزكي ذلك الترشيح وتوافق عليه، ومن ثم أصبح أبوبكر الصديق أول خليفة لرسول الله صلي الله عليه وسلم في حكم الدولة الإسلامية، باختيار حُر من المسلمين. وعندما مرض أبوبكر –رضى الله عنه – مرض الموت قال للمسلمين: إنه قد نزل بي ما ترون – يعنى المرض الشديد – ولا أظنني إلا ميِّتًا لما بي من المرض، وقد أطلق الله أيمانكم من بيعتي، وحلَّ عنكم عقدتي، ورد عليكم أمركم، فأمِّروا عليكم من أحببتم، فإنكم إن أمرتم في حياة منِّى كان أجدر ألا تختلفوا بعدى. وتصرُّف أبي بكر الصديق دليل ساطع وبرهان قوى علي أن اختيار الحاكم من حق الأمة وحدها، لكن الصحابة

وضوه في اختيار خلف له، وألحُّوا عليه في ذلك، فقبل تكليفهم، ووقع اختياره علي عمر بن الخطاب –رضى الله عنه – لكفاءته وقدرته وسابقته في الإسلام، ولم يكتفِ الصديق باختياره هو لعمر بن الخطاب، بل استطلع آراء كبار الصحابة حول مرشحه، مع أنه مفوض من الصحابة في اختيار خليفة لهم، ويعلم بأن عمر هو أفضل الصحابة بعده، و أصلحهم لتولي الخلافة، لكنه آثر ألا ينفرد وحده باختيار خليفة له. ولما اطمأنت نفسه إلي أن الغالبية ممن شاورهم تؤيد اختيار عمر، جمع الناس حوله، وحدَّثهم قائلا: أترضون بمن أستخلف عليكم، فإني والله ما آلوت من جهد الرأي، ولا ولَّيت ذا قرابة، وإني قد استخلفت عليكم عمر بن الخطاب، فاسمعوا له وأطيعوا، فقالوا: سمعنا وأطعنا ولم تنعقد بيعة عمر ليصبح خليفة إلا بعد وفاة أبي بكر، وبمبايعة الناس له بيعة عامة، ولو لم يرضَ الناس بترشيح أبي بكر، ورفضوا مبايعة عمر، ما كان لعهد أبي بكر الصديق عليهم حجة أو سلطان وجاء اختيار عثمان بن عفان – رضى الله عنه – ببيعة عامة حرَّة من بين الستة الذين رشحهم عمر بن الخطاب –رضى الله عنه – ليختاروا واحدًا منهم، وقد حصرها فيهم؛ لأنهم بقية العشرة المبشرين بالجنة، والذين تُوفي رسول الله صلي الله عليه وسلم وهو عنهم راضٍ ولما قُتل عثمان بن عفان شهيدًا، ألحَّ الصحابة علي علي بن أبي طالب أن يقبل الخلافة، بعد أن سادت الفوضى مدينة رسول الله صلي الله عليه وسلم، وامتنع كبار الصحابة عن قبول الخلافة، فقبل علي الخلافة؛ لينقذ الأمة من الفتن، وبايعه معظمهم، ولا جدال في أن قيام علي بالأمر في ذلك الوقت العصيب كان تضحية تنطوي علي شجاعة حيث تحمل المسئولية في أصعب الظروف وأدقها. وكان متوقعًا أن تنهي بيعته بالخلافة حالة الفوضى التي سادت البلاد بعد مقتل عثمان، لكن الأحداث تطورت سريعًا من سيئ إلي أسوأ، وانتهي به الحال أن قُتل شهيدًا، وقبل وفاته استشاره أصحابه في بيعة ابنه الحسن بعده، فقال لهم: لا آمركم ولا أنهاكم، أنتم أبصر، لكنهم بايعوا الحسن، الذي تنازل عن الخلافة لمعاوية كما ذكرنا وخلاصة ما سبق أن طريقة اختيار الخليفة في عهد الراشدين كانت تتم ببيعة حرة وعامة بعد ترشيح شخص أو أكثر، وأن ترشيح الخليفة السابق لم يكن ملزمًا للأمة، بل لها أن توافق أو تعترض، وهذا هو نظام الشورى في الإسلام الذي يشبه في مصطلحات العصر الحديث النظام الديمقراطي. ولم يفكر أي واحد من الخلفاء الراشدين في أن يعهد بالأمر إلي أحد من أبنائه أو أقربائه، حرصًا منهم علي إبعاد فكرة الوراثة عن نظام الحكم الإسلامي إبعادًا تاما، وقد وضَّح أبوبكر الصديق هذا المعنى عندما رشَّح عمر في قوله: أترضون بمن أستخلف عليكم ؟ فإني والله ما آلوت من جهد الرأي، ولا وليت ذا قرابة، كما استبعد عمر بن الخطاب ابنه عبد الله تمامًا من الترشيح، بل استبعد ابن عمه سعيد بن زيد أيضًا من الترشيح مع أهل الشورى؛ دفعًا لشبهة القرابة مع أن الشروط تنطبق عليه.ولم يُؤثَر عن عثمان شيء من ذلك، وترك علي بن أبي طالب الأمر للأمة لاختيار من ترضاه، ورفض ترشيح ابنه الحسن للخلافة أو الوصاية له بالبيعة.

أسلوب اختيار الخليفة الأموي

لم يكن أحد يظن أن بيعة المسلمين لمعاوية بن أبي سفيان ستكون إيذانًا بتأسيس دولة أموية وراثية وكان المسلمون قد استبشروا خيرًا بهذه البيعة بعد فترة من الفتن والحروب، حتى إن بعض الصحابة الذين كانوا قد توقفوا في بيعة علي – رضى الله عنه – بايعوا معاوية، دعمًا لوحدة الأُمة ولَمِّ شملها، مثل :سعد بن أبي وقاص عبد الله بن عمر. وربما توقَّع الناس أن معاوية سيحذو حذو من سبقه من الخلفاء الراشدين ويترك الأمر شورى للمسلمين، يختارون للخلافة من بعده من يرونه أهلا لتولي تبعات هذا المنصب الجليل، أو سيجتهد في اختيار شخص يراه أصلح الناس لتولي منصب الخلافة، ويكون بعيدًا عن قرابته كما فعل الخلفاء قبله، لكن معاوية فاجأ الأمة الإسلامية بترشيح ابنه يزيد للخلافة من بعده، وبدأ في أخذ البيعة له في حياته، بدعم من أهل الشام، ولما نجح في ذلك لم يكن صعبًا عليه أن ينتزع البيعة لابنه من بقية الأقطار الإسلامية، بالترغيب تارة وبالترهيب تارة أخرى. ولم يعارض معاوية في خطواته هذه سوى أهل الحجاز، الذين رأوا في عمله خروجًا علي ما ألفه المسلمون في اختيار خليفتهم ببيعة حرة قائمة علي الشورى، وتركزت المعارضة في ثلاثة من أبناء كبار الصحابة، هم الحسين بن علي بن أبي طالب، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عمر. وقد تطورت معارضة الأولين إلي خروج الحسين علي يزيد بعد موت معاوية، واستشهاده في موقعة كربلاء المشهورة سنة ٦١هـ، وإلي دعوة عبد

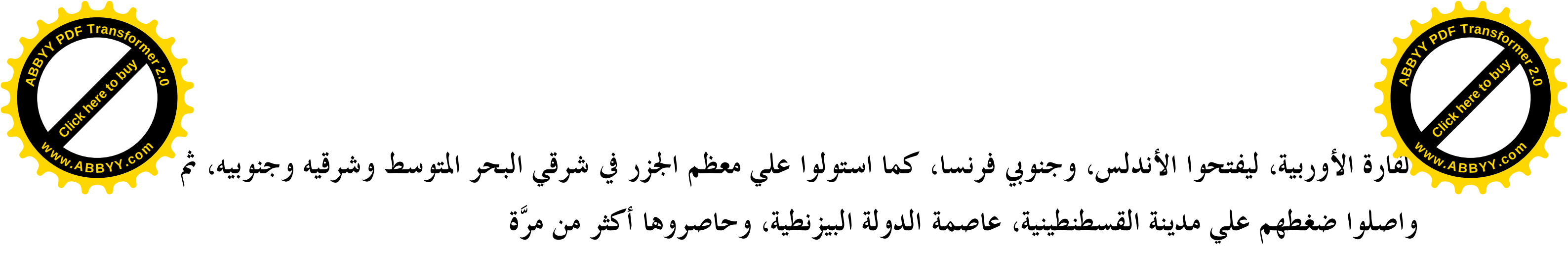
ABBYY PDF Transformer 2.0
Click here to buy
www.ABBYY.com

بن الزبير بالخلافة لنفسه بعد موت يزيد بن معاوية سنة ٥٦٤، ثم دخوله في صراع مع الأمويين، انتهي بمقتله سنة ٥٧٣، بعد دامت خلافته تسع سنوات، أمَّا عبد الله بن عمر، فقد بايع يزيد حفاظًا علي وحدة المسلمين، بعد أن رأي أن استمراره في معارضته لن يكون في مصلحة الأمة الإسلامية

وقد دافع عن عمل معاوية كثير من المؤرخين، و رأوا في صنيعه عملا ضروريا للحفاظ علي وحدة الأمة، واجتناب العودة إلي الحروب الأهلية، ويقف علي رأس هذا الفريق المؤرخ الكبير عبد الرحمن بن خلدون مؤيِّدًا إقدام معاوية علي هذه الخطوة بقوله: والذي دعا معاوية لإيثار ابنه يزيد بالعهد دون سواه إنما هو مراعاة المصلحة في اجتماع الناس، واتفاق أهوائهم، باتفاق أهل الحل والعقد حينئذٍ من بنى أمية؛ إذ بنو أمية يومئذٍ لا يرضون سواهم، وهم عصابة قريش –أي أكثرهم قوة– وأهل الحل أجمع، وأهل الغلب منهم، فآثره بذلك دون غيره ممن يظن أنه أولي بها، وعدل عن الفاضل إلي المفضول؛ حرصًا علي الاتفاق واجتماع الأهواء، الذي شأنه أهم عند الشارع، لا يظن بمعاوية غير هذا، فعدالته وصحبته مانعة من سوى ذلك، وحضور أكابر الصحابة لذلك وسكوتهم عليه، دليلٌ علي انتفاء الريب فيه، فليسوا ممن يأخذهم في الحق هوادة، وليس معاوية ممن تأخذه العزة في قبول الحق، فإنهم كلهم أجلُّ من ذلك وعدالتهم مانعة. ويدعم ابن خلدون رأيه هذا بأن ولاية العهد من الخليفة القائم إلي شخص يتولى الخلافة بعده أمر جائز لا حرج فيه، فيقول: قد عرف ذلك من الشرع بإجماع الأمة علي جوازه وانعقاده، إذ وقع من أبي بكر – رضى الله عنه – لعمر بن الخطاب بمحضر من الصحابة، وأجازوه وأوجبوا علي أنفسهم به طاعة عمر رضى الله عنه وعنهم وما قاله ابن خلدون يمكن الرد عليه بأن أبا بكر عهد إلي عمر؛ لأنه رآه أصلح الصحابة لتولي الخلافة بعده وتحمُّل تبعاتها،وقد كان كذلك بالفعل،ولم تكن تربطه به صلة قرابة قريبة، وقد أوضح ذلك بقوله: أترضون بمن أستخلف عليكم ؟ فإني والله ما آلوت من جهد الرأي، ولا ولَّيت ذا قرابة، كما أن عمر لم يصبح خليفة بترشيح أبي بكر الصديق واختياره له فحسب، بل برضى المسلمين وبيعتهم له ولو أن معاوية عهد إلي أحدٍ غير ابنه، واجتهد في اختيار من هم أصلح للخلافة بعده، ما اعترض عليه أحد، ولحقَّق الغرض الذي قصده ابن خلدون من ولاية العهد، وهو سد أبواب الخلاف بين المسلمين، ومن ثم فإن الاعتراضات علي تصرف معاوية جاءت من اختياره ابنه لولاية العهد دون سواه، لا من فكرة ولاية العهد نفسها. وأياً ما كان الأمر فإن الخلافة حُصِرت في الأسرة الأموية، يتوارثها الأبناء والاخوة، ولم يكتفِ الخليفة منهم بتولية العهد لواحد فقط، بل درجوا علي تولية أكثر من ولي للعهد، وكان مروان بن الحكم مؤسس الفرع المرواني أول من بدأ هذا التقليد، فقد عهد إلي ابنه عبد الملك ثم عبد العزيز بولاية العهد، وقد تابعه في هذا كل من جاء بعده حتى آخر دولتهم، وقد جرَّ هذا الأمر عليهم المتاعب، وأوقد نار الفتنة والصراع بين أبناء الأسرة الأموية، مما كان له أكبر الأثر في تدهور الدولة والإسراع بسقوطها في نهاية الأمر وعلي الرغم من استقرار الخلافة بنظام التوريث فإن الأمويين حافظوا علي نظام البيعة من حيث الشكل فكان الخليفة القائم يعهد من بعده بولاية الأمر إلي ابنه أو أخيه، ثم تؤخذ البيعة من الناس لمن صدر له كتاب العهد في حياة الخليفة القائم، ثم تجدد له بعد وفاته، ومغزى هذا أنهم كانوا علي يقين أن مجرد العهد ليس ملزمًا شرعًا للناس، بل لابد من البيعة العامة.

الفتوحات الإسلامية في العصر الأموي

شهد العصر الأموي أوسع حركات الفتح الإسلامي وأكثرها نشاطًا في التاريخ الإسلامي كله بعد فتوحات الخلفاء الراشدين، التي شملت العراق وبلاد فارس كلها، ومصر والشام، ثم توقفت الفتوحات الإسلامية، أو كادت تتوقف بسبب الفتن والحروب الأهلية التي حدثت بين المسلمين وقد استأنف المسلمون فتوحاتهم بعد اجتماع شملهم علي معاوية بن أبي سفيان وتوحدهم تحت رايته في عام الجماعة سنة ٥٤١، وحقق الأمويون أعظم إنجازاتهم علي الإطلاق في ذلك الميدان العظيم، وامتدت فتوحاتهم إلي مناطق عديدة في قارات العالم القديم آسيا – إفريقيا – أوربا ففتحوا في عهد الوليد بن عبد الملك بلاد ما وراء النهر آسيا الوسطى وإقليم السند في شبه القارة الهندية، واستكملوا فتح الشمال الإفريقي كله من حدود مصر الغربية إلي المحيط الأطلسي، ثم عبروا مضيق جبل طارق إلي



القارة الأوربية، ليفتحوا الأندلس، وجنوبي فرنسا، كما استولوا علي معظم الجزر في شرقي البحر المتوسط وشرقيه وجنوبيه، ثم واصلوا ضغطهم علي مدينة القسطنطينية، عاصمة الدولة البيزنطية، وحاصروها أكثر من مرَّة

التيارات والأحزاب السياسية والدينية

شغلت الدولة الأموية في التاريخ الإسلامي إحدى وتسعين سنة ١٣٢٤١ - ٥، وامتدت حدودها من حدود الصين شرقًا إلي الأندلس غربًا، ومن بحر قزوين شمالا إلي المحيط الهندي جنوبًا، وعمل خلفاؤها في جد ومثابرة وحسن سياسة علي نشر الإسلام في تلك الرقعة الكبيرة، ونمت الحضارة الإسلامية ونهضت في عهدهم. وهذه الأعمال تشهد للأمويين بدورهم البارز في التاريخ الإسلامي، وتخفف كثيرًا من النقد الذي وجه إليهم، ومما يزيد المرء إعجابًا وتقديرًا لإنجازهم أنهم قاموا بتلك الأعمال الجليلة، وهم يصارعون أعداء أشداء من تيارات وأحزاب سياسية ودينية، لم يتركوا فرصة للثورة عليهم إلا انتهزوها. من تلك الأحزاب من تذرَّع بالدين يحارب به، ويتَّهم بنى أمية بالخروج علي الدين وقواعده، وأنهم مغتصبون للسلطة، كالخوارج والشيعة. وهناك شخصيات أعلنت التمرد والثورة علي بنى أمية لأهداف شخصية، ولتحقيق طموحات ذاتية، والوصول إلي الحكم بأي ثمن، مثل المختار بن أبى عبيد الثقفي، وعبد الرحمن بن محمد بن الأشعث، ويزيد بن المهلب

الخوارج

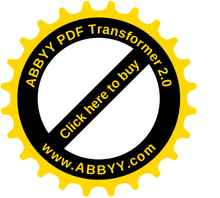
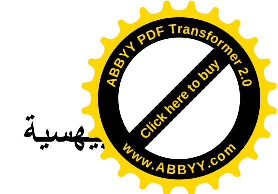
كان الخوارج من أنصار علي بن أبي طالب، وشهدوا معه معركتي الجمل وصفين، ثم انشقوا عليه لما قبل التحكيم بينه وبين معاوية، فسمَوا الخوارج، لخروجهم علي إمامهم، ولما بالغوا وتطرَّفوا في عدائهم له، وعاثوا في الأرض فسادًا، اضطر إلي مقاتلتهم في معركة النهروان، ثم عادوا بنى أمية ودخلوا في صراع طويل معهم. وكانوا في مبدأ أمرهم فرقة واحدة، يدور خلافهم مع بقية الأمة حول الخلافة ومَن أحق بها، ومجمل أمرهم أن الخلافة حق لمن يصلح لها من المسلمين، وتتوافر فيه شروطها من العلم والأمانة والشجاعة، وليس من الضروري أن يكون عربيا فضلا عن أن يكون قرشيا. ولو أنهم حصروا خلافهم مع غيرهم في جدل وحوار نظري يقوم علي مقارعة الحجة بالحجة والدليل بالدليل لما كان في الأمر شيء ولكن الخطر كل الخطر جاء من لجوئهم إلي العنف واستخدام السيف في فرض آرائهم، وقد بدأ مع علي بن أبي طالب مما جعل خصومهم يواجهون القوة بالقوة، وتكبَّدت الأمة الإسلامية عشرات الآلاف من الضحايا من أبنائها نتيجة هذه الخصومة العنيفة. وظل الخوارج فرقة واحدة، تتبنَّى أفكارًا ومبادئ واحدة حتى وفاة يزيد بن معاوية سنة ٦٤ه، ثم بدأ الشقاق والخلاف يدب بينهم هم أنفسهم، فانقسموا فرقًا وأحزابًا، حتى وصل عددهم إلي ثلاثين فرقة، ثم تطور تفكيرهم بمرور الزمن، وبدءوا يخوضون في قضايا تدخل في صلب الدين، مثل مباحثهم في مرتكب الكبيرة هل مؤمن أو كافر، وغير ذلك من القضايا، وأشهر فرق الخوارج التي ناصبت الدولة الأموية العداء وشنت عليها الحرب، هي:

الأزارقة

هم أتباع نافع بن الأزرق، أحد زعماء الخوارج الكبار، وهي تعد أشد فرق الخوارج تطرفًا في أفكارها السياسية والدينية، فهي ترى الخروج علي الخليفة الذي يخالفها في آرائها وقتاله، وأتباعها يتبرءون ممن لا يوافقهم علي ذلك، ويَعدُّونهم من القاعدين، ويكفرون مرتكب الذنوب الكبيرة ويحكمون بخلوده في النار، مخالفين في ذلك صريح القرآن الكريم، حيث يقول الله تعالي: {إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء النساء: من ٤٨. ويبيحون دماء مخالفيهم في الرأي.

النجدات

وينسبون إلي نجدة بن عامر، وهم أقل تطرفًا من الأزارقة؛ لأنهم لا يقولون بكفر مرتكب الكبائر.

البيهسية

وينسبون إلي زعيمهم بيهس، وهم أقل تطرفًا من الأزارقة، و يرون أن مخالفيهم في الرأي منافقون، تجرى عليهم أحكام المنافقين، لكنهم يجيزون حوارهم، والتزاوج معهم، وميراثهم.

الصفرية

أتباع زياد بن الأصفر، وهم كذلك أقل تطرفًا من الأزارقة، ومعتدلون في أفكارهم.

الشيعة

تعني كلمة الشيعة: الأهل والأتباع والأنصار، كما في قوله - تعالي، في معرض حديثه عن موسى، عليه السلام –: فاستغاثه الذي من شيعته علي الذي من عدوه . القصص: من ١٥ و كل قوم اجتمعوا علي أمر فهم شيعة، بعضهم لبعض، غير أن هذه الكلمة أصبحت علمًا علي أنصار علي بن أبي طالب –رضى الله عنه – وذريته من بعده، فإذا قيل: إن فلانًا من الشيعة، عُرف أنه منهم، أو قيل: في مذهب الشيعة كذا، أي :عندهم

وقد نشأ التشيع بسيطًا في أول الأمر ثم تطور بمضي الزمن، وأصبح مذهبًا دينيا وسياسيا، كما كان أتباعه فرقة واحدة، شأنهم في ذلك شأن الخوارج، ثم لم يلبثوا أن تفرعوا إلي فرق، مثل الإمامية الاثنا عشرية، والزيدية والإسماعيلية .ويخالف رأي الشيعة في الخلافة جمهور الأمة الإسلامية التي ترى أن الخلافة أمر من الأمور العامة، يفوض للأمة أمر البت في شأنها، وتختار من تراه الأصلح لدينها ودنياها لتولي منصب الخلافة. أمَّا هم فيرون أن الإمامة ليست من المصالح العامة التي تفوض إلي الأمة، بل هي ركن من أركان الإسلام، لا يجوز للنبي صلي الله عليه وسلم إغفاله، ولا تفويض الأمة فيه، بل يجب عليه تعيين الإمام للأمة بعده، وأن الإمام لابد أن يكون معصومًا من الكبائر والصغائر، ويزعمون أن النبي صلي الله عليه وسلم فعل ذلك، وعيَّن علي بن أبي طالب، وقد تعددت ثوراتهم المسلحة ضد الدولة الأموية طلبًا للخلافة.

انتشار الإسلام في العصر الأموي

امتدت الفتوحات الإسلامية من حدود الصين إلي الأندلس، ومن بحر قزوين إلي المحيط الهندي، وأدخلت في الدولة الإسلامية شعوبًا كثيرة، مختلفة في الديانات والمذاهب واللغات والأجناس والثقافات والعادات والتقاليد، ولم تكن تلك الفتوحات غزوا عسكريا مستغلا للشعوب ناهبًا لثرواتها، وإنما كان فتحًا دينيا وثقافيا ولغويا، فانتشر الإسلام في البلاد المفتوحة بخطى حثيثة، وتغيرت أوضاعها السياسية والاقتصادية والاجتماعية

ويمكن القول: إن هذا العالم الفسيح أصبح عالمًا إسلاميا واحدًا، فسيادة المسلمين عليه لا تنازع، والإسلام هو الدين الغالب في سماحة ورحمة، والحاكم في عدل، ولم تأخذ المسلمين نشوة النصر والغلبة، التي قد تحملهم علي الكبر والتعالي وإذلال الشعوب المغلوبة، بل عاملوهم معاملة كريمة، وصانوا أرواحهم وأموالهم وعقائدهم، وحفظوا عهودهم ومواثيقهم معهم، ووفوا بها في صدق وإخلاص، وأشركوا أبناءهم في حكم بلادهم وإدارتها.

عوامل انتشار الإسلام

أولا عالمية الإسلام

لا جدال في أن الإسلام دين عالمي، ورسالته للجنس البشرى كله؛ لقوله تعالي مخاطبًا نبيَّه صلي الله عليه وسلم: {وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرًا ونذيرًا. النبأ: ٢٨. وقال تعالي: قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعًا الأعراف: ١٥٨. وقال النبي صلي الله عليه وسلم: {إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتًا فأحسنه وأجمله، إلا موضع لبنة من زاوية، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له، ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة؛ فأنا اللبنة، وأنا خاتم النبيين صحيح البخاري

وليس معنى عالمية الإسلام أن يُنشَر بالقوة وبحد السيف، كما يزعم أعداء الإسلام، ولكن بالحكمة والموعظة الحسنة كما أمر النبي صلي الله عليه وسلم

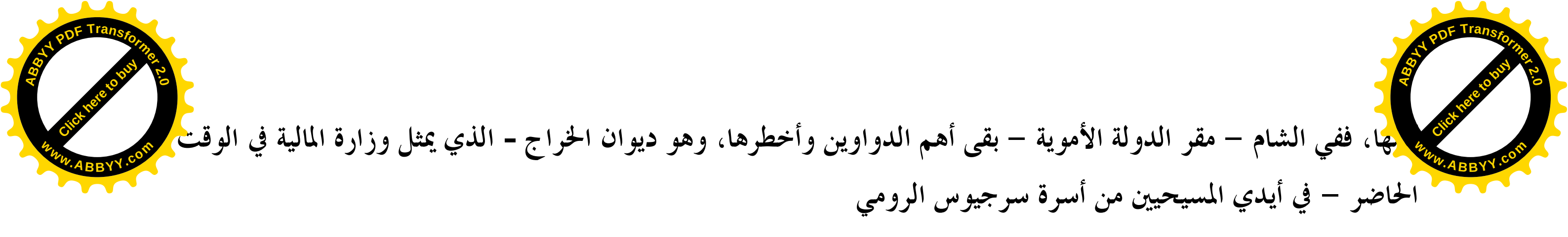
ثانيًا: التسامح

تعامل المسلمون الفاتحون مع أبناء الشعوب المفتوحة بتسامح ورحمة، وقد شهد بذلك غير المسلمين، فيقول جوستاف لوبون: لم يعرف التاريخ فاتحًا أرضى من العرب. وليس أدل علي وجود هذه السياسة المتسامحة من رد أبي عبيدة بن الجراح الجزية التي أخذها من أهل حمص إليهم، حين اضطر إلي الانسحاب من حمص للدفاع عن دمشق، ولما سألوه في دهشة عن سبب ذلك، قال لهم إنما رددنا عليكم أموالكم، لأنه بلغنا ما جُمِع لنا من الجموع – يقصد الروم الذين تجمَّعوا للهجوم علي دمشق– وإنكم قد اشترطتم علينا أن نمنعكم، وإنَّ لا نقدر على ذلك، فرددنا عليكم ما أخذنا منكم. فقال أهل حمص: لولايتكم وعدلكم أحب إلينا لحاكمنا فيه من الظلم والغشم –يقصدون الحكم البيزنطي– وردَّكم الله إلينا سالمين، والله لو كانوا هم ما ردُّوا علينا شيئًا

ثالثًا: إشراك أبناء البلاد المفتوحة في إدارة بلادهم

أدرك المسلمون أن سير الأمور في البلاد المفتوحة سيرًا حسنًا، وتحقيق مصالح أهلها يكمُن في الأسلوب الإداري الذي سيتبعونه في إدارة البلاد، ومن ثم لم يترددوا في الاحتفاظ بالنظم الإدارية التي وجدوها في البلاد سواء التي كانت تابعة للدولة البيزنطية مثل مصر والشام وشمالي، إفريقيا، أو التي كانت تابعة للفرس، مثل العراق وبلاد فارس نفسها، ولم يكتفُ بذلك، بل طوروا من النظم ما يرونه ضروريا، ليتفق مع دينهم ونظامهم السياسي والاجتماعي القائم علي أسس من الشريعة الإسلامية، وما يحقق الصالح العام للدولة وللأمة

وكان عمر بن الخطاب هو أول من سنَّ هذه السنة، فاقتبس نظام الدواوين، الذي يشبه نظام الوزارات في الدولة الحديثة من النظم الفارسية والبيزنطية، ولم يجد غضاضة في ذلك. ولم يقف المسلمون عند حد الاستفادة من النظم الإدارية التي وجدوها في البلاد المفتوحة، بل أبقوا أيضًا علي الجهاز الإداري الذي يسيِّر العمل، واحتفظوا لأنفسهم بالمناصب العليا كالإمارة، وقيادة الجيش والقضاء والشرطة. وإزاء هذه السياسة كان المجال رحبًا أمام أبناء البلاد المفتوحة الذين لم يعتنقوا الإسلام للوصول إلي المناصب العليا في الجهاز الإداري، التي كانوا محرومين من توليها في ظل الحكومات السابقة علي الفتح الإسلامي، علي حين كان الطريق مفتوحًا لمن يسلم منهم للوصول إلي مناصب الإمارة أو قيادة الجيوش، مثل طارق بن زياد الذي كان من أصل بربري، لكنه صار من كبار الفاتحين، وفي ذلك يقول أحد الباحثين: إن روح الإسلام الحقَّة هي التي حفَّزت العرب إلي اتباع سياسة التسامح الديني نحو المصريين أي أن الأقباط أصبحوا يتمتعون بحرية تامة في الدين، كما أصبح لهم نصيب كبير في إدارة بلادهم ولم يقتصر القبط علي الأعمال الإدارية الصغيرة، بل شقوا طريقهم إلي أعمال لها خطورتها، ففي ولاية عبد العزيز بن مروان علي مصر ٦٥ – ٨٥هـ كان هناك كاتبان قبطيان لإدارة مصر، واحد لمصر العليا – الصعيد – والآخر لمصر السفلي– الدلتا - بل أكثر من ذلك فقد تولي ولاية الصعيد والٍ قبطي اسمه بطرس كما كان حاكم مريوط قبطيا اسمه تاوناس. ولم يحدث هذا في مصر وحدها بل كان ذلك في البلاد المفتوحة



ها، ففي الشام – مقر الدولة الأموية – بقى أهم الدواوين وأخطرها، وهو ديوان الخراج - الذي يمثل وزارة المالية في الوقت الحاضر – في أيدي المسيحيين من أسرة سرجيوس الرومي

ونتيجة لهذه السياسة شعر أهل الذمة – اليهود والنصارى – بالأمان والاطمئنان، فأقبلوا علي اعتناق الإسلام في حرية تامة ودون إكراه

رابعا: الأوضاع الدينية في البلاد المفتوحة

أقبل كثير من أبناء البلاد المفتوحة علي اعتناق الإسلام لبساطته وملاءمته للفطرة الإنسانية، ولعدم اقتناعهم بالأديان التي كانت سائدة في بلادهم، ومعظمها كانت ديانات وضعية وثنية كالزرادشتية، والبوذية، والمانوية والمزدكية، حتى اليهودية والنصرانية دخلها الزيف والتحريف والتعقيد، وأصبحت كل منهما تستعصي علي الفهم. يقول أحد الباحثين المسيحيين: ومن المرجح أن تأثير المسيحية في السواد الأعظم من شعب مصر كان قليلا في القرن السابع – عند الفتح الإسلامي لها– وأن التعليقات النظرية التي استغلها زعماؤهم في إثارة شعور الكراهية والمقاومة في وجه الحكومة البيزنطية، كان يمكن أن يدركها عدد قليل جدا من الناس، كما أن سرعة انتشار الإسلام قد تكون راجعة إلي عجز ديانة كالديانة المسيحية، وعدم صلاحيتها للبقاء، أكثر من أن تكون راجعة إلي الجهود الظاهرة التي قام بها الفاتحون لجذب الآهلين إلي الإسلام

خامسًا: أثر سياسة الدولة الأموية في انتشار الإسلام

حافظ الأمويون علي روح التسامح الإسلامي في سياستهم للبلاد المفتوحة إلي حد كبير، فالتزموا بنصوص المعاهدات وروحها التي أعطيت لأهالي تلك البلاد، فلم ينكثوا عهدًا أو ينقضوا معاهدة، وإذا حدث شيء من هذا فإن الدولة تسارع بتصحيح الخطأ، ولم تذكر المصادر التاريخية سوى حدث واحد من هذا القبيل وقع في العصر الأموي، حين نقض قتيبة بن مسلم عهده مع أهل سمرقند، وكان قد دخل مدينتهم بناءً علي اتفاق معهم علي أن يخرج منها بعد أن يبني فيها مسجدًا، لكنه لم يخرج منها ناقضًا اتفاقه معهم، فشكوا إلي عمر بن عبد العزيز، فأمر الوالي بأن يحقق في المسألة بإنصاف، فحكم القاضي المسلم بإخراج المسلمين من سمرقند، وأن ينابزوا أهلها علي سواء، فكرهوا القتال، وأقروا المسلمين علي البقاء فيها، وأسعدهم هذا المسلك من الحكومة الإسلامية التي لم تفرق بين المسلم وغير المسلم في العدل، فأقبلوا علي اعتناق الإسلام.

انتشار الإسلام في الشام

كان معظم سكان الشام عند الفتح الإسلامي من العرب الذين هاجروا من شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام بعدة قرون، وأقاموا هناك ممالك وإمارات، وإلي جانب هؤلاء كانت هناك أقليات من اليهود والأرمن المسيحيين، والروم، والأكراد. وقد وقف عرب الشام في بداية الفتوحات الإسلامية في عهد الراشدين مع الروم ضد أبناء عمومتهم العرب الفاتحين، ظنا منهم أنهم جاءوا إلي الشام لمزاحمتهم فيه، وأخذ أرضهم وأموالهم، لكنهم حين فطنوا إلي أهداف المسلمين الرفيعة ورسالتهم السامية، القائمة علي العدل والحرية والمساواة، اطمأنت نفوسهم إلي الإسلام، وأنسوا إلي جانب المسلمين، وبخاصة بعد انتهاء المعارك ووضوح نتائجها، وزوال سلطان الروم عنهم. وقد أدَّى ذلك إلي مشاركة عرب الشام عربَ الجزيرة في عقيدتهم ومثلهم وتطلعهم للحياة، وبخاصة أنهم وجدوا أبواب العمل في الدولة الإسلامية مفتوحة أمامهم، فمن أسلم أصبح منهم، وربما تدفعه مواهبه إلي الصفوف الأولي مع كبار القادة العظام، مثل حسان بن النعمان الذي كان ينتمي إلي الأسرة الحاكمة في الشام عند الفتح الإسلامي، ومن بقى علي مسيحيته شارك في ميادين العمل الإداري والماليوكان نشر الإسلام في الشام موضع عناية المسلمين وهدفهم، منذ الخطوات الأولي للفتح، فقد أرسل يزيد بن

بي سفيان إلي عمر بن الخطاب يطلب معلمين من الصحابة، يعلمون الناس شرائع الإسلام ويقرئونهم القرآن، فبعث إليه عددًا من كبار الصحابة، منهم: عبادة بن الصامت، وأبو الدرداء، ومعاذ بن جبل، رضى الله عنهم، وبدأت القبائل العربية التي كانت تقطن الشام قبل الفتح الإسلامي تقبل علي الإسلام عن اختيار وفي حرية تامة، فأسلمت أغلبية قبيلة الغساسنة كبرى القبائل العربية في الشام، وكانت لها دولة تبسط سلطانها علي جنوبي سوريا، وشرقي الأردن، وكذا قبائل لخم وجذام وكلب ولم يقتصر الدخول في الإسلام علي القبائل العربية بل اعتنق الإسلامَ كثيرٌ من المسيحيين غير العرب؛ كالأرمن والروم، لما فيه من بساطة وسماحة، بالقياس إلي المسيحية التي تحولت إلي طلاسم وألغاز وجدل عقيم. ويذكر توماس آرنولد أن انتشار الإسلام بين نصارى الكنائس الشرقية كان نتيجة شعور بالاستياء من السفسطة المذهبية التي جلبتها الروح الهللينية إلي اللاهو ت المسيحي، لأنها أحالت تعاليم المسيح – عليه السلام – البسيطة السامية إلي عقيدة محفوفة بمذاهب عويصة، مليئة بالشكوك والشبهات، فأدى ذلك إلي خلق شعور من اليأس، بل زعزع أصول العقيدة الدينية ذاتها، فلما أهلّت آخر الأمر أنباء الوحي الجديد فجأة من الصحراء، لم تعد تلك المسيحية الشرقية التي اختلطت بالغش والزيف، وتمزّقت بفعل الانقسامات الداخلية، قادرة علي مقاومة إغراء الدين الجديد – الإسلام – الذي بدَّد بضربة واحدة من ضارباته كل الشكوك التافهة، وقدَّم مزايا مادية جديدة إلي جانب مبادئه الواضحة البسيطة التي لا تقبل الجدل، وحينئذ ترك الشرق المسيح، وارتمى في أحضان نبي بلاد العرب. وكان من الطبيعي أن يكون حجم انتشار الإسلام في الشام كبيرًا، لقربه من الحجاز منزل الوحي، ووفود كثير من الصحابة إليه في الفتوحات وبعدها، وإقامتهم فيه، وإقامة كثير من أفراد جيوش الفتح الوافدة من الجزيرة العربية في الشام ولما قامت الدولة الأموية سنة ٤١ه واتخذت من دمشق عاصمة لها، اتسع نطاق انتشار الإسلام بين القبائل العربية، وأصبح الشام قطرًا عربيا إسلاميا خالصًا، يعيش فيه بعض الأقليات المسيحية واليهودية في حرية وأمان.

انتشار الإسلام في مصر

فُتحت مصر في عهد عمر بن الخطاب، ومنذ الأيام الأولي للفتح أقبل بعض المسيحيين علي الدخول في الإسلام بحرية تامة وحتى قبل تمام الفتح، فقد كتب يوحنا النقيوسي – وهو رجل دين مسيحي كان قريبًا من حوادث الفتح أن بعض المصريين تركوا الدين المسيحي وأسلموا، وصحبوا جيوش العرب أثناء الفتح، كان منهم يوحنا أحد رهبان دير سيناء. واستمرت حركة الدخول في الإسلام في زيادة مطردة، فدخل علي عهد الخليفة هشام بن عبد الملك أربعة وعشرون ألفًا منهم الإسلام دفعة واحدة سنة ١٠٨ه ولم يكن دخول الإسلام مقصورًا علي طبقة بعينها، بل دخل فيه ناس من كل الطبقات، كما اعتنقه كثير من الروم الذين بقوا في مصر بعد الفتح الإسلامي. وباستمرار دخول المسيحيين في مصر في الإسلام أصبح أغلبية السكان مسلمين، وتعلموا اللغة العربية، وأصبحت مصر بلدًا عربيا إسلاميا، وبقى بعض الأقباط علي دينهم حتى الآن، وهذا دليل سماحة الإسلام، وآية علي أن من اعتنق الإسلام منهم اعتنقه عن رضى واقتناع ودون إكراه، فلو أكره الفاتحون المسلمون الأقباط علي ترك دينهم والدخول في الإسلام؛ لما بقى مسيحي واحد في مصر. وكان دور المسلمين في جذب المسيحيين وغيرهم دور الداعي إلي دينه بالحكمة والموعظة الحسنة، والقدوة الطيبة، بالإضافة إلي جو الحرية وسريان روح الرحمة والتسامح الذي أشاعه الخلفاء والحكام والأمراء، ولم يعد المسلمون أنفسهم طبقة متميزة علي أهل البلاد، وإنما اختلطوا بهم وتعايشوا معهم وصاهروهم، وعاملوهم بتقدير واحترام، خاصة أن النبي أوصى المسلمين خيرًا بأهل مصر حين يفتحونها، فإن لهم ذمة ورحمًا، فهاجر أم إسماعيل عليه السلام منهم، وكذلك مارية القبطية التي تزوجها النبي صلي الله عليه وسلم وأنجب منها إبراهيم.

انتشار الإسلام في شمالي إفريقيا

تشمل منطقة شمالي إفريقيا المنطقة التي تمتد من حدود مصر العربية حتى شاطئ المحيط الأطلنطي، وهي من أكثر المناطق التي أرهقت المسلمين في فتحها، الذي استغرق نحو سبعين سنة، وذلك بسبب المقاومة العنيدة التي لقيها المسلمون من سكان البلاد، ومعظمهم من

ربر الذين يعتزون بحريتهم وكرامتهم. وكانت مقاومتهم الشديدة للفتح ترجع إلي جهلهم بطبيعة الإسلام وأهدافه ومبادئه، و... أن الفاتحين كغيرهم من الغزاة، جاءوا لاستغلال بلادهم والاستيلاء علي خيراتها، فلما فهموا الإسلام وما يحمله من عزة وكرامة، واحتكوا بالفاتحين المسلمين وسماحتهم ورحمتهم أقبلوا علي الإسلام بحماس لا نظير له، وحملوا رايته، وجاهدوا في سبيله، وشاركوا في فتوحاته، فكان لهم في فتح الأندلس بلاءٌ حسن. وعلي الرغم من طول أمد فتح شمالي إفريقيا؛ بسبب المقاومة العنيدة التي أبداها السكان فإن استجابتهم للإسلام واعتناقهم له كان أسرع وأوسع انتشارًا مما حدث في بلاد المشرق الأسبق فتحًا مثل العراق والشام ومصر وقد بدأ السكان يقبلون علي الإسلام منذ فتح عمرو بن العاص برقة في عهد عمر بن الخطاب، وظل هؤلاء متمسكين بإسلامهم علي الرغم من توقف الفتوحات فترة طويلة؛ بسبب الفتن الداخلية في الدولة، بدليل وجود كثير من أهل البلاد في جيش عقبة بن نافع، عندما أسند إليه معاوية قيادة جيش الفتح في شمالي إفريقيا، كما أسلم علي يدي عقبة في تلك الفترة أعداد كبيرة. ثم خطا الإسلام في المغرب خطوات واسعة، وسعى سعياً حثيثًا في عهد أبي المهاجر دينار؛ لحسن سياسته التي جذبت ملك البربر كسيلة إلي الإسلام، وأسلم بإسلامه أعداد هائلة، وكان أبو المهاجر يبنى مسجدًا في كل مدينة يفتحها، ويعمل علي امتزاج العرب الفاتحين بأهالي البلاد؛ ليكون لذلك أثره في تعليمهم الدين واللغة العربية. ثم كان ظهور حسان بن النعمان ومن بعده موسى بن نصير في شماليّ إفريقيا من عوامل التمكين للإسلام في البلاد؛ فاستطاع حسان أن يقضى علي الوجود البيزنطي قضاءً تاما، ثم علي مقاومة الكاهنة التي تزعمت البلاد بعد مقتل كسيلة. والعجيب أن هذه المرأة العنيدة وهي تخوض معركتها الأخيرة مع حسان، أوصت أبناءها بالانضمام إليه واعتناق الإسلام إن هي هزمت في الحرب، فلما حدث ذلك أسلم أبناؤها، وعيَّنهم حسَّان أمراء علي قبائلهم، وأسلم بإسلامهم اثنا عشر ألف رجل دفعة واحدة. وأمَّا موسى بن نصير فقد ركز اهتمامه علي نشر الإسلام بين السكان، وكان يأمر جنده العرب بتعليم البربر المسلمين في جيشه القرآن الكريم، وتفقيههم في الدين، كما ترك بين قبائل المصامدة سبعة عشر رجلا من العرب ليقوموا بالغرض نفسه. وكان لعمر بن عبد العزيز أثر كبير في نشر الإسلام بالمغرب، فقد أرسل عشرة رجال من الصالحين التابعين إلي هناك، ليعلموا الناس الدين، فتوافد عليهم الناس من أنحاء البلاد كلها، ليتلقوا عنهم أمور دينهم ومن المعروف أن المسيحية قد دخلت شمالي إفريقيا منذ القرون الأولي لميلاد السيد المسيح، عليه السلام، وبخاصة في منطقة الساحل المطلة علي البحر المتوسط في حين بقيت المناطق الداخلية البعيدة عن الساحل علي وثنيتها.

انتشار الإسلام في الأندلس

لَّما فتح المسلمون الأندلس في أواخر القرن الهجري الأول ٩٥٩٢ - ٥ كانت ديانة معظم السكان هي المسيحية الكاثوليكية، بالإضافة إلي جالية يهو دية كبيرة وبعض الوثنيين، ثم بدأت أعداد كبيرة منهم تعتنق الإسلام، يأتي في مقدمتهم طبقة الرقيق التي وجدت في الإسلام نجاتها وخلاصها من الظلم والاضطهاد الذي كانت تعانيه تحت حكم القوط ولم تكن طبقة الرقيق وحدها هي التي أسرعت إلي اعتناق الإسلام، بل اعتنقه كثير من الوثنيين وأشراف المسيحيين، بالإضافة إلي أعداد كبيرة من الطبقات الوسطى والدنيا، بل إن بعض القساوسة اعتنق الإسلام، مثل تيود سكلوس الذي كان رئيس أساقفة إشبيلية وقد حدث ذلك كله في السنوات الأولي، التي أعقبت الفتح الإسلامي مباشرة، دون إكراه من المسلمين لإجبار أهل الأندلس وحملهم علي الإسلام حملا، بل أقبلوا عليه عن رضى واقتناع تام، ساعد علي ذلك بساطة الإسلام وبعده عن التعقيدات الكهنوتية التي حفلت بها ديانتهم، واختلاط المسلمين الفاتحين بأهل البلاد ومصاهرتهم، و قد فعل ذلك أعداد كبيرة من المسلمين، حتى الأمراء منهم، فقد تزوج عبد العزيز بن موسى بن نصير بابنة الملك القوطى رذريق، وحذا حذوه كثير من القادة والجنود،ونتج عن هذه المصاهرات جيل جديد في الأندلس عُرف بالمولدين، وهم الذين ولدوا من آباء عرب وأمهات أندلسيات، وهؤلاء نشئوا مسلمين بطبيعة الحال، وسرعان ما تزايد عددهم، وأصبحوا يشكلون غالبية السكان، واحتلوا مكانة كبيرة في المجتمع وكان لهم دورهم في تسيير أمور الدولة الإسلامية و قد أصبح هذا الجزء

لذي يقع في جنوبي غربي أوربا بلدًا عربيا مسلمًا في حرية تامة ودون تعصب أو إكراه، ولم يستغل الفاتحون المسلمون انتصارهم في القوط في استئصال المسيحية من البلاد كما فعل فردينان و إيزابيلا في استئصال المسلمين بعد ذلك بثمانية قرون.

انتشار الإسلام في العراق

كان معظم سكان العراق عند الفتح الإسلامي عربًا من قبائل ربيعة، مثل: بكر بن وائل وتغلب،ثم جاء المناذرة اللخميون ومن هم من قبائل اليمن، فأقاموا في العراق إمارة عربية عُرِفَت بإمارة المناذرة، كانت خاضعة للفرس، تأتمر بأمرهم، وتصد غارات القبائل العربية عليهم، وهجمات البيزنطيين وحلفائهم غساسنة الشام، و قبيل ظهور الإسلام أنهى الفرس سنة ٦٠٢م حكم المناذرة، وحكموا العراق حكمًا مباشرًا ولم يكن موقف عرب العراق من الفاتحين المسلمين عدائيا صريحًا، وإنما تراوح بين العداء والوقوف مع الفرس وتأييدهم وبين التعاون مع العرب الفاتحين، ثم الترحيب بهم بعد توالي انتصاراتهم علي الفرس في القادسية ونهاوند وقد وجد سكان العراق أنفسهم بعد الفتح تحت حكم المسلمين يعاملون معاملة حسنة، تُحفظ لهم كرامتهم وحريتهم، وتصان عقائدهم، ولم تنتز ع أرضهم، ولم يجبرهم أحد علي الدخول في الإسلام، وكانوا قبل ذلك أقرب ما يكونون إلي حال الرق، ذلا واستعبادًا للفرس، فأقبلوا علي اعتناق الإسلام في حرية تامة ولم يسلم عرب العراق فقط، بل أسلم كثير من الفرس أنفسهم، الذي يعيشون في العراق، وقدموا للمسلمين مساعدات كثيرة، ووقفوا إلي جانبهم في المعارك، فاستشار سعد بن أبي وقاص من أسلم من الفرس في كيفية التغلب علي الفيلة الفارسية المدربة علي الحرب و القتال، ولم تكن للفاتحين المسلمين خبرة بمواجهتها في ساحات المعارك، فدلوه علي مقاتلها، بأن تُضرب في عيونها ومشافرها، فلا تستطيع القتال بعد ذلك. ثم ازداد إقبال الفرس علي الدخول في الإسلام بعد انتصار المسلمين في القادسية، فأسلم أربعة آلاف من الديلم دفعة واحدة، وجاهدوا مع الفاتحين في نهاوند، و يدل تزايد الإقبال علي الدخول في الإسلام، سواء من العرب أومن غيرهم علي أن اشتراك الطبقات المقهورة مع الفرس ضد المسلمين في البداية، إنما كان خوفًا من بطشهم، فلما تحطمت قوتهم في القادسية زال الخوف، وأقبل الناس علي الإسلام وإلي جانب هؤلاء أسلمت أعداد كبيرة من الأساورة والأشراف وعلية القوم، فرحَّب بهم القادة العرب، وأشركوهم معهم في الحكم، فيروى الطبري أن سعد بن أبي وقَّاص كتب إلي عبد الله بن المعتم أن أخلف علي الموصل مسلم بن عبد الله الذي كان قد أُسِرَ في القادسية، وأن القعقاع بن عمرو التميمى استخلف علي حلوان – مدينة فارسية شمالي شرقي المدائن– بعد فتحها، رجلا فارسيا اسمه قباذ. وقد أخذ الإسلام ينتشر في العراق باطِّراد إلي أن أصبح بلدًا عربيا إسلاميا خالصًا في العصر الأموي، ومركزًا ودعامة لتثبيت الحكم الإسلامي في بلاد فارس، ومنطلقًا للفتوحات الإسلامية في بلاد ما وراء النهر والسند.

انتشار الإسلام في بلاد فارس

كانت الديانة الرئيسية في بلاد فارس قبل الفتح الإسلامي هي الديانة الزرادشتية، وهي ديانة وثنية، تؤمن بأن للعالم إلهين، أحدهما إله الخير، والآخر إله الشر، وإلي جانب تلك الديانة التي كان يدين بها ملوك آل ساسان توجد البوذية والمانوية والمزدكية بالإضافة إلي اليهودية والمسيحية علي نطاق ضيق. ولم يأخذ المسلمون من هذه الأديان موقفًا عدائيا، ولم يتخذوا إجراءً ضدها، بل صانوا للناس حرية الاعتقاد، إلي الحد الذي اعتدُّوا فيه بالمجوسية الفارسية وهي عبادة النار، وعاملوا أتباعها معاملة أهل الكتاب من اليهود والنصارى، فقبلوا منهم الجزية نظير بقائهم علي دينهم ولما اطمأنت نفوس أهل فارس أو معظمهم إلي حكم الفاتحين نظروا إلي دينهم، مقارنين بينه وبين ما لديهم من أديان فلم يجدوا وجهًا للمقارنة، فكلها أديان وثنية مليئة بالخرافات والأوهام، فتركوها غير آسفين، وأقبلوا علي الإسلام في حرية تامة، ودون ضغط أو إكراه، و لم يفعل ذلك أتباع الديانات الوثنية فقط، وإنما فعله كثير من المسيحيين. يقول آرنولد: وقد أدَّى تغير الحكومة – الساسانية – إلي تخليص الكنيسة المسيحية المضطربة في فارس من استبداد ملوك الساسانيين الذين أثاروا الخلافات وزادوا في فوضى الطوائف – المسيحية – المتنافرة، ولعل هذه الأحوال المضطربة قد هيأت عقول الناس لذلك

التحول الفجائي في شعورهم، الذي سهل تغيير العقيدة، و إلي جانب الاضطراب السياسي في الدولة ظهرت تلك الفوضى الأخلاقية التي ملأت عقول المسيحيين.. فمالوا إلي هذا النظام العجيب من التنسيق العقلي، الذي ينمو فيه الدين الجديد في سهولة ويسر، ويكتسح أمامه أكثر الأديان الأخرى، ويحاول أن يقيم الحالة الدينية و الاجتماعية علي أسس جديدة، وبعبارة أخرى كان أهل فارس قد بلغت عقليتهم درجة ساعدهم علي التحول إلي ذلك الدين الجديد، و الترحيب باعتناقه في حماسة ملحوظة؛ لما يمتاز به من البساطة، و هكذا قدر للإسلام أن يبدد بضربة واحدة كل هذه الغيوم، وأن يفتح أمام الناس سبلا واضحة من الآمال الكبيرة، وأن يخلصهم في أقرب وقت من عبوديتهم وحالتهم السيئة و قد تتابع دخول الفرس بأعداد كبيرة في الإسلام دون إكراه، مدفوعين بالدعوة الصادقة التي يقوم بها المسلمون لدينهم، و التعريف به وشرح مبادئه، والالتزام بها في حياهم، كل ذلك كان له عظيم الأثر في التمكين للإسلام في البلاد. ثم خطا الأمويون خطوات واسعة أدَّت إلي انتشار الإسلام واللغة العربية في بلاد فارس، تمثلت في هجير عشرات من القبائل العربية إلي الأقاليم الفارسية وتسكينهم فيها، فنقل زياد بن أبي سفيان و الي العراق في خلافة معاوية سنة ٥٥١ خمسين ألف أسرة عربية من أهل البصرة والكوفة إلي خراسان دفعة واحدة، وتتابعت بعد ذلك الهجرات العربية إلي الأقاليم الفارسية بأعداد كبيرة؛ مما كان له أثر كبير في نشر الإسلام عن طريق المعايشة، و القدوة العملية، وإقامة شعائر الدين. وفي الوقت نفسه هاجرت أعداد كبيرة من الفرس إلي المدن العربية الجديدة كالبصرة والكوفة، بقصد العمل في التجارة والأعمال الحرفية، كأعمال البناء التي لا يجيدها العرب، كما عمل كثيرون منهم في دواوين الدولة، وقد بلغ عدد العمال من الفرس – أي الموظفين – المقيدين في ديوان عبيد الله بن زياد والي البصرة ٥٥ ٥٦٤ مائة وأربعين ألفًا، وهو رقم غير مبالغ فيه، لأن ديوان البصرة كان يشمل الموظفين المدنيين في جنوبي العراق، وكل المقاطعات الجنوبية الشرقية من بلاد فارس حتى خراسان شمالا. وقد علل ابن زياد استخدام هذا العدد الكبير من الفرس في الديوان بكفاءهم ومهارهم وأمانتهم في العمل، وهذا يعنى ثقة الدولة بالموظفين من الفرس، وهذه الثقة شجعتهم علي الدخول في الإسلام. وأدَّى وجود أعداد كبيرة من الفرس في البيوت العربية، ومصاهرهم للعرب، إلي انتشار الإسلام بينهم، واتخاذ أسماء وألقاب عربية ويمكن إجمال القول بأن غالبية الشعب الفارسي تحولت إلي الإسلام في العصر الأموي، وأصبحت عنصرًا مؤثرًا في المجتمع والدولة الإسلامية ذاها، وكانت في طليعة المجاهدين في فتح بلاد ما وراء النهر.

موقف الموالي الفرس من الدولة الأموية

كان لبعض الموالي الفرس مواقف عدائية ضد الدولة الأموية، علي الرغم من تسامح الحكومة مع الفرس وإشراكهم في الإدارة، بل تفضيلهم أحيانًا علي العرب أنفسهم؛ فلم يتركوا فرصة للخروج عليها إلا انتهزوها، ولا دعوة لثائر إلا انضموا تحت لوائه، أيا كان اتجاهه السياسي، فانضموا إلي ابن الزبير، والمختار الثقفي، وعبد الرحمن بن الأشعث، ويزيد بن المهلب، وغيرهم، وناصروا الخوارج، وتحالفوا مع الشيعة دائمًا. وهذه المواقف العدائية من الدولة الأموية جعلت بعض الباحثين يظنون أهم فعلوا ذلك لظلم وقع عليهم من الدولة، وراحوا يكيلون التهم جزافًا للأمويين بأهم متعصبون للعرب ضد الفرس، وهذا اهام لا دليل عليه وبعيد عن واقع الأمر، فالدولة الأموية عُرفَت بتسامحها مع غير المسلمين من أهل الذمة، فكيف يضيق صدرها بالمسلمين من الموالي ولعل السبب الرئيسي في عداء الموالي للدولة الأموية يكمن في أن كثيرين من أبناء فارس لم يستطيعوا التخلص تمامًا من ماضيهم، حيث كانوا أصحاب السيادة علي العرب، ولهم نفوذ في العالم، فلما فتح المسلمون بلادهم عزَّ عليهم أن يحكمهم العرب، فعملوا كل ما في وسعهم لتقويض الدولة الأموية. ولم يكن الموالي كلهم يعادون العرب، ولذا نستطيع أن نقسم الموالي إلي أربع طوائف رئيسية، هي

-الطائفة الأولي: أسلمت إسلامًا حقيقيا، ارتفع بها فوق العصبية القومية، مثل: سلمان الفارسي، رضي الله عنه، والحسن البصري التابعي المعروف، وهذه الطائفة لم تر بأسًا في أن يحكمها العرب، و نظرت إليهم نظرة تقدير واحترام؛ لأهم سبب هدايتها، وبادل العرب هذه الطائفة ودا بود وتقديرًا بتقدير، وكان كبار التابعين من الموالي، مثل الحسن البصري، ومحمد بن سيرين، وعطاء بن يسار، وعطاء بن أبي رباح، موضع احترام المجتمع والدولة، وكان تأثيرهم في الحركة العلمية عظيمًا

-الطائفة الثانية: وهي التي أسلمت إسلامًا رقيقًا، ولم تتخلص من الماضي تمامًا، وظلت تفخر بالأمجاد الفارسية القديمة، وهذه الطا لم ترفض الإسلام دينًا ولكنها رفضت السيادة والحكم العربيين، وظلت تسعى للقضاء عليهما بدأب شديد، وكانت نواة الحركة الشعوبية التي نادت بتفضيل الفرس علي العرب

-الطائفة الثالثة: وهي التي أسلمت نفاقًا، لأنها رأت أن السبيل إلي المال والجاه والسلطان لا يكون إلا بالدخول في الإسلام، فأعلنت اعتناقه ولم يدخل الإيمان قلوبها، ولم تدع فرصة للكيد للعرب إلا انتهزتها، كما دعت إلي الشعوبية والمذاهب الدينية القديمة، وهذه الطائفة كانت أساسًا لحركة الزندقة

-الطائفة الرابعة: وهي التي لم تسلم، وبقيت علي مجوسيتها بفضل الحرية التي منحها العرب لأهل بلاد فارس. والذي نريد أن نخلص إليه أن القول باضطهاد الدولة الأموية للموالي، وعداء الموالي للدولة كان رد فعل لذلك، هو قول بعيد عن الحقيقة، فلم تكن هناك سياسة مرسومة للأمويين تعادى الموالي الفرس، وفي الوقت نفسه لا ننكر أن يكون بعض العرب قد نظر إلي الموالي الفرس نظرة تعالٍ وتكبر، لكن ذلك لم يكن سياسة دولة، وإنما كان نظرة البد و الجفاة الذين لم يفهموا الإسلام علي وجهه الصحيح.

انتشار الإسلام في بلاد ما وراء النهر

فتح قتيبة بن مسلم الباهلي بلاد ما وراء النهر – آسيا الوسطى– في خلال عشر سنوات ٨٦ – ٩٦ه، وأقبل كثير من أهالي تلك البلاد علي الدخول في الإسلام، لما فيه من عدل وسماحة ورحمة، وشجعهم علي ذلك أن معظمهم وثنيون يعبدون الأصنام، وبعضهم يدين بالأديان التي كانت منتشرة في بلاد فارس المجاورة لهم، مثل الزرادشتية والمانوية والمزدكية، و كلها أديان فاسدة، ولم يكن تمسك الناس بها قويا، ولذا سرعان ما أقلعوا عنها بعد أن قارنوا بينها وبين الإسلام، فأقبلوا عليه في حماس شديد وعندما دخل قتيبة بن مسلم مدينة سمرقند سنة ٩٣ه، وجد فيها عددًا كبيرًا من الأصنام، فقرر تحطيمها، فخوفه سكانُها من ذلك، وقالوا له: إن من يقترب منها تهلكه، فلم يبالِ بذلك، وأقسم ليحطمنَّها بيده، فحطمها وحرقها بالنار، فلما رأي الناس ذلك ولم يحدث لقتيبة شيء أدركوا أن هذه الأصنام لا تنفع ولا تضر، وأسرعوا إلي اعتناق الإسلام .وقد تردَّد صدى هذه الحادثة في المدن الأخرى، فأسلم من أهلها أعدادٌ هائلة، حتى إنه لما سار قتيبة لفتح إقليم الشاش فيما وراء نهر سيحون سنة ٩٤ه، أي بعد سنة واحدة من تحطيمه لأصنام سمرقند، كان جيشه يضم عشرين ألف مسلم من أهل بخاري. و حرص الفاتحون المسلمون علي دعوة الناس إلي الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة، والتأثير فيهم بالقدوة الطيبة، وكان قتيبة بن مسلم يُعنَى ببناء المساجد في المدن والقرى؛ حتى تؤدى فيها الصلاة، ويقوم الدعاة فيها بتعليم الناس شعائر الإسلام وشرائعه. غير أن تزايد إقبال الناس علي الإسلام جعل الولاة المسلمين أمام مشكلة مالية، جعلتهم يأخذون الجزية من المسلمين الجدد من أهل البلاد، مخالفين بذلك قواعد الإسلام التي تقرر أن لا جزية علي من أسلم، ولم يطل هذا الأمر كثيرًا، إذ صحح عمر بن عبد العزيز هذا الإجراء الخاطئ وكتب إلي الولاة موبخًا إياهم علي فعلتهم، قائلا قولته المشهورة قبَّح الله رأيكم، إن الله بعث محمدًا صلي الله عليه وسلم هاديًا ولم يبعثه جابيًا .وكان الخليفة عمر بن عبد العزيز معنيا بنشر الإسلام في تلك المنطقة، وكتب إلي ملوك بلاد ما وراء النهر وأمرائهم ودعاهم إلي الإسلام، فأسلموا وتسمَّوا بأسماء عربية وتتابعت جهود الأمويين لنشر الإسلام في هذه البلاد بعد عمر بن عبد العزيز، وبخاصة في عهد هشام بن عبد الملك ١٠٥ – ١٢٥ه، الذي أسند ولاية خراسان وما وراء النهر إلي أشرس بن عبد الله السلمي، المسمى بالكامل لصلاحه وتقواه، فما إن استقر في خراسان حتى شرع في توجيه الدعاة والفقهاء إلي بلاد ما وراء النهر؛ لدعوة الناس إلي الإسلام وقد مضت حركة نشر الإسلام في بلاد ما وراء النهر مطَّردة مزدهرة، بفضل جهود صالح بن طريف وأمثاله من أهل الصلاح والتقوى، وإن اعترض ذلك بعض المعوقات التي كانت تأتى في الغالب من بعض الولاة الذين كانوا يفضلون الجباية علي الهداية، مخالفين بذلك قواعد الإسلام، غير أن هذه السياسة الخاطئة

ABBYY PDF Transformer 2.0 Click here to buy www.ABBYY.com

ت تجد دائمًا من يصححها ويقومها من الخلفاء والولاة. وقد استاء المسلمون الجدد من أهل بلاد ما وراء النهر من دفع الجز لا لكونها عبئًا ماليا كبيرًا فحسب، بل لإحساسهم بالمهانة من دفعها وهم مسلمون؛ إذ لا جزية علي المسلم، ومن ثم تمسكوا بحقهم الشرعي الذي كفله لهم الإسلام، فقاوموا الولاة، ومن أجل ذلك وجدوا استجابة من قمة الدولة لإنصافهم، وتضامنًا من إخوانهم العرب المسلمين لمساعدتهم علي الحصول علي حقهم وخلاصة القول أن غالبية الناس في بلاد ما وراء النهر تحولت إلي الإسلام، وأصبحت بلادهم جزءًا عزيزًا من العالم الإسلامي، وأهدت إلي العالم الإسلامي عددًا لا حصر له من العلماء في شتى العلوم الإسلامية، وغدت بعض مدنه مثل بخاري وسمرقند وجرجان من أكبر المراكز الحضارية في العالم الإسلامي وأشهرها. وقد رسخ الإسلام في تلك المنطقة رسوخًا عميقًا، ظهر أثره في ثبات أهلها أمام موجات الغزو العاتية التي تعرضت لها، مثل غزوات المغول المدمِّرة في القرن ٧ ﻫ = ١٣ م، كما تعرضت لمحنة الحكم الشيوعي الملحد في القرن ١٤ ﻫ = ٢٠ م، الذي حاول بشتى الطرق وبأقسى الأساليب الوحشية محو الإسلام، لكنه فشل فشلا ذريعًا أمام ثبات المسلمين وإصرارهم علي التمسك بعقيدتهم، وبعد انهيار الاتحاد السوفييتي سنة ١٤١١ﻫ = ١٩٩١م وزوال الحكم الملحد، تنفَّس الناس الصعداء وعادت بلادهم إلي حظيرة العالم الإسلامي

ولم يكتفِ أهالي تلك المنطقة باعتناق الإسلام، وإنما جنَّدوا أنفسهم للدفاع عنه علي حدوده الشرقية عند الصين والأتراك الشرقيين، و أصبحت بلادهم معبرًا رئيسيا للإسلام إلي الصين وغيرها من بلاد شرقي آسيا وجنوبي شرقيها إلي حوض نهر الفولجا شمالا؛ حيث كانت قوافل الدعاة والتجار تجوب الطرق التجارية بين العالم الإسلامي وتلك البلاد، يدعون إلي الإسلام، وقد وجدوا استجابة طيبة و سريعة.

انتشار الإسلام في السند

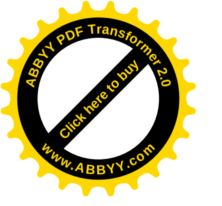
كان إقليم السند مملكة مستقلة عندما فتحه المسلمون في أواخر القرن الأول الهجري بقيادة محمد بن القاسم الثقفي، وسادت فيه عدة ديانات كانت هي نفسها السائدة في سائر ممالك شبه القارة الهندية وولاياتها، مثل: البرهمية، والبوذية ويؤكد لنا التاريخ أن الاتصال بين أهل السند والمسلمين سبق بزمن طويل فتح بلادهم، وأنهم عرفوا كثيرًا عن الإسلام ومبادئه، بل إن بعضهم أسلم مبكرًا، يروى البلاذرى أن كثيرين من أهل السند – المنبوذين – قد أسلموا مبكرًا، بعد أن انحازوا إلي المسلمين؛ فرارًا من اضطهاد البراهمة، فعندما كان أبو موسى الأشعري يفتح إقليم الأهواز غربي بلاد فارس، في عهد عمر ابن الخطاب أرسل له زعيم سندي اسمه سياه قائلا: إننا قد أحببنا الدخول معكم في دينكم علي أن نقاتل معكم عدوكم من العجم واشترط أن يفرض له ولقومه من العطاء، وأن ينزلوا حيث شاءوا من البلاد، فوافق عمر بن الخطاب علي ذلك لما كتب له أبو موسى يستأذنه. وبعد انتهاء الفتح، نزل هؤلاء البصرة، وفرض لهم العطاء، ثم سألوا أي القبائل أقرب إلي رسول الله صلي الله عليه وسلم، فقيل لهم: بنو تميم، فحالفوهم وخططت لهم الأحياء السكنية. وقد عمل كثير منهم في بيت المال؛ لخبرتهم في الشئون المالية، فقد كان في بيت مال البصرة منهم في عهد علي بن أبي طالب أربعون رجلا، كما عمل بعضهم في الأعمال الحرَّة، وبخاصة في الصرافة، فيروى الجاحظ: إنك لا ترى في البصرة صيرفيًا إلا وصاحب كيسه – أي خزانته – سندي. وكل هذه الشواهد تؤكد اتصال أهل السند بالمسلمين قبل فتح بلادهم، ومن الطبيعي أن يتردد بعضهم علي وطنه، وينقل للناس هناك أخبار الإسلام والمسلمين، ومعاملتهم الرحيمة ممَّا هيأ قلوبهم للإسلام، والإقبال عليه بعد الفتح الإسلامي لبلادهم. فمنذ الخطوات الأولي للفتح بدأت شخصيات كبيرة تعتنق الإسلام، وعندما تقدَّم محمد بن القاسم بعد فتح الديبل، وجه الدعوة إلي الأمراء والحكام والوزراء والأعيان وعامة الشعب؛ للدخول في الإسلام فاستجاب له كثيرون و كانت هناك أقاليم تدخل في الإسلام جملة واحدة، مثل إقليم سوسيان، فقد روى في سبب إسلامهم أنهم كانوا قد أرسلوا جاسوسًا من عندهم إلي معسكر المسلمين لمعرفة أخبارهم، وأثناء اختفائه حان وقت الصلاة، فقام أحد الجنود وأذَّن بالصلاة بصوت خاشع جميل مؤثر، ثم اصطف الجنود خلف قائدهم محمد بن القاسم في صفوف منتظمة، فلما رأي الجاسوس السندي هذا المشهد

الرائع تأثر به تأثرًا كبيرًا، وعاد إلي قومه، وأخبرهم بما رأي، فقالوا: إذا كان العرب متحدين متمسكين بدينهم علي هذا النحو و... في وقت الحرب، فإننا لا يمكننا التغلب عليهم، وقرروا إرسال وفد منهم إلي محمد بن القاسم، وانتهي الأمر بإسلامهم جميعًا، وانضمامهم إلي المسلمين، وأقاموا حفل تكريم للقائد المسلم محمد بن القاسم الذي هداهم للإسلام. و كان إقبال أهل السند علي الإسلام عظيمًا علي اختلاف طبقاتهم، فأسلم إلي جانب عامة الشعب الحكامُ والقواد والوزراء وأمراء المناطق المختلفة، مثل الأمير كاكة بن جندر ابن عم الملك داهر ملك السند. وأدَّى سلوك المسلمين السويُّ إلي جذب الناس إلي الإسلام، وبخاصة سلوك محمد بن القاسم الذي اهتم بإقامة المساجد وأداء الشعائر الدينية، فلم يكن يدخل مدينة إلا ويبنى فيها مسجدًا، وقد تابع خلفاء محمد بن القاسم في السند سياسته في بناء المساجد. وقد بلغ قمة النجاح في انتشار الإسلام في السند في خلافة عمر بن عبد العزيز ٩٩ – ١٠١ه، الذي كان لسمعته الطيبة أثر عظيم في دخول أعداد كبيرة من أهل السند في الإسلام لما دعاهم إلي ذلك، فأسلموا وتسمَّوا بأسماء عربية وأصبح هذا الإقليم منذ دخول الإسلام فيه جزءًا عزيزًا من العالم الإسلامي، ولا يزال يمثل قوة رئيسية من قواه؛ فقد شارك في صنع التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، فلولا الإسلام لبقى ذلك الإقليم مترويًا في عزلته، دون أن يكون له مثل ذلك الدور الذي قام به في ظل الإسلام، ونختم الحديث عن انتشار الإسلام في السند بشهادة واحد من أبنائه هو العلامة أبو الحسن الندوي الذي يقول: إن دخول الإسلام إلي بلاد السند وبلاد الهند، كان فاتحة عصر جديد، عصر علم ونور وحضارة وثقافة لم يكن العرب المسلمون من طراز أولئك الغزاة الذين إذا دخلوا قرية أفسدوها، واعتبروها بقرة حلوبًا، أو ناقة ركوبًا، يحلبون ضرعها، ويركبون ظهرها، ويجزون صوفها، ثم يتركونها هزيلة عجفاء، و لا يعتبرون أنفسهم كالإسفنج، يتشرب الثروة من مكان، ويصبها في مكان آخر، كما كان شأن الإنجليز في الهند، وفرنسا في الجزائر والمغرب الأقصى، وإيطاليا في طرابلس وبرقة، وهولندا في إندونيسيا، لم يكن العرب المسلمون مثل هؤلاء الغزاة المستغلين، بل وهب العرب البلاد التي فتحوها أفضل ما عندهم من عقيدة ورسالة، وأخلاق وسجايا، ومقدرة و كفاية، وتنظيم وإدارة، وأقبلوا عليها بالعقل النابغ، والشعور الرقيق، والذوق الرفيع، والقلب الولوع، واليد الحاذقة الصناع، فنقلوها من طور البداوة إلي طور الحضارة، ومن عهد الطفولة إلي عهد الشباب الغض، فأمنت بعد خوف، واستقرت بعد اضطراب، وأخذت الأرض زخرفها، وبلغت المدنية أوجها، وتحولت الصحارى الموحشة والأراضي القاحلة إلي مدن زاخرة وأرض خصبة، وتحولت الغابات إلي حدائق ذات بهجة، والأشجار البرية إلي أشجار مثمرة مدنية، ونشأت علوم لا علم للأولين بها، وفنون وأساليب في الحضارة لا عهد لهم بها في الماضي، وانتشرت التجارة، فكأنما ولدت هذه البلاد في العهد الإسلامي ميلادًا جديدًا، ولبست ثوبًا.

قيام الخلافة العباسية

ينتسب خـلفـاء بنـي العباس إلى جدهم العباس بن عبد المطلب عم النبي صـلى الله عـليه وسـلم، الذى عـاش فـى مكـة وأسـلم بها، وكانت له مكانته عند رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقد أنجب العبـاس عددًا من الأبنـاء، أشهرهم: عبد الله بن عبـاس الذى أُطـلق عـليه ترجمـان القرآن وحَبْر الأمـة لسعـة عـلمه وحدة ذكائه. ترك عبد الله كثيرًا من الأبنـاء منهم عـلى بن عبد الله، الذي يُقـال له السـجَّاد؛ لكـثرة عـبـادتـه، وأنـجب السـجـاد أولادًا كثيرين، أشهرهم محمد بن على، الذى نظم الدعوة العباسية وخرج بها إلى حيز الوجود، وأحـاط تحركـاته بجو من السريـة والكتمان، حتى أطلق عـلى المرحـلة التي مرت بهـا الدعوة العبـاسيـة فـى عهده المرحـلة السـريـة،و تـمتـد من سنـة ١٠٠هـ = ٧١٨م إلى سنـة ١٢٩هـ‍٧٤٦ = م، وتحركت الدعوة فيها من ثلاثة أماكن هي

الحميـمـة: وهـى قريـة صغيرة منعزلة فى جنوب الشام، اتخذتها الأسرة العباسية مقرا لها



وفـة: وتعد المركز الرئيسي لنشاط الدعاة العباسيين، وتتوسط بلاد الشام والعراق و خراسان

خراسان: حيث نجح الدعاة العباسيون فى اجتذاب الآلاف إليهم

و بـدأت الدعـوة بـجـمـاعـة تُسمَّى النقبـاء، قـاموا بتكوين مجـلس شورى برئـاسـة سـليمـان بن كثير الخزاعـي، و كان مركز الدعوة فى الكوفة يتلقى التعليمات من مقر البيت العباسي فى الحميمة ويرسلها إلى أنصار الدعوة فى كل مكان، وخاصة خراسان و عـقب وفـاة الإمـام محمد بن عـلى سنـة ١٢٥هـ٧٤٢ = م تولى ابنه إبراهيم – المعروف بـالإمام – شئون الدعوة، وقد نشطت فى عهده، واتخذت اللون الأسود شعارًا لها. وقـد تـهيـأ للدعـوة العبـاسيـة أسبـاب النجـاح منذ أن أسندت مهمـة الإشراف عـلى الدعوة فى خراسان إلى أبى مسلم الخراساني، الذي جمع حوله الأنصـار والأعوان، وخـاض بهم سـاحات القتال محققًا العديد من الانتصارات، وقام بدور مهم فى قيام الدولة العباسية و قـد واجـه العـبـاسـيون بـزعـامـة أبـى مسـلم قوى مختـلفـة فـى خـراسـان، فـور إعـلان ثـورتهم ليـلة الخميس ٢٥ من رمضـان سنـة١٢٩ هـ = ٩مـن يـونـيو سـنـة ٧٤٧م، و تمثـلت هذه القوى فـى نصر بن سيار الوالي الأموي، و قبائل اليمن و ربيعة، والخوارج، لكن أبـا مسـلم استطـاع بذكـائه ودهائه أن يوقع بينها مستغلا العنصر القبلي وإثارة العصبية بين أفرادها و بـعد معـارك كثيرة استطـاعت قوات أبـى مسـلم الخراسـانـي أن تـدخـل مـديـنـة مرو عـاصمـة إقـليم خراسـان، ثم استولت عـلى هـمدان ونهـاوند وحـلوان وخـانقين وغيرهـا، حتـى دخـلت العراق، وكان وراء ذلك النجاح الكبير الذى أحرزه العباسيون فى نشاطهم الدعائي والعسكري أسباب كثيرة، منها الدعـوة الدائبـة والمنظمـة التـي استمرت مـا يقرب من ثـلاثين سنـة على أيدي دعاة مدربين كثرة الجيوش العباسية واندفاعها لاكتساح القوات الأموية القيـادة الحكيمـة التـي استطـاعت تنظيم أنصـار الدعوة العبـاسية وتسليحهم وتوجيههم إلى ميادين القتال المختلفة تمزق صفوف الجيوش الأموية بسبب العصبية القبلية نجاح العباسيين فى جذب مجموعة من القادة الأكفاء الذين أداروا المعركة باقتدار ضد الأمويين، ومنهم أبو مسلم الخراسانى، وأبو سلمة الخلال كبير الدعاة العباسيين بالكوفة، وابن شبيب الطائي الذى قاد الجيوش العباسية المتجهة إلى العراق. انتقـلت الأسرة العباسية من الحميمة سرا إلى الكوفة، بعد إلقاء القبض عـلى إبراهيم الإمـام وقتله فى أحد سجون دمشق، وكان قد أوصى بتولية أخيه عبد الله شئون الدعوة و فـى الكوفـة أقـامت الأسرة العبـاسيـة عند أبـى سـلمة الخلال كبير الدعـاة أربعين يومًا حتـى تهيـأت الظروف لمبـايعـة أول خـليفـة عباسي و هو عبد الله بن محمد .

العصر العباسي الأول

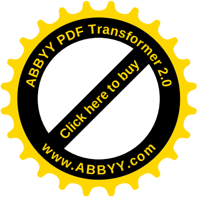
يمتد العصر العباسي الأول قرنًا من الزمان، من سنة ١٣٢ هـ ٧٤٩م إلى سنة ٢٣٢ هـ ٨٤٧م، ويعد العصر الذهبي للخلافة العباسية؛ حيث تمتع الخلفاء بسلطتهم الدينية والدنيوية وخلفاء هذا العصر تسعة، هم

أبو العباس عبد الله ١٣٢-١٣٦ هـ ٧٤٩- ٧٥٣م

المنصور ١٣٦ - ١٥٨ هـ ٧٥٣ - ٧٧٥م

المهدي ١٥٨- ١٦٩ هـ ٧٧٥- ٧٨٥م

الهادي ١٦٩ - ١٧٠ هـ ٧٨٥ - ٧٨٦م



الرشيد ١٧٠- ١٩٣ هـ ٧٨٦ - ٨٠٩م

الأمين ١٩٣ – ١٩٨ هـ ٨٠٩ – ٨١٣م

المأمون ١٩٨ – ٢١٨ هـ ٨١٣ – ٨٣٣م

المعتصم ٢١٨ – ٢٢٧ هـ ٨٣٣–٨٤٢م

الواثق ٢٢٧ – ٢٣٢ هـ ٨٤٢ – ٨٤٧م

الخليفة الأول: أبو العباس ١٣٢-١٣٦ هـ ٧٥٣٧٤٩ ـم

هو عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم،ولد سنة ١٠٠ هـ ٧١٨م تقريبًابويع أبو العباس في الكوفة في شهر ربيع الأول سنة ١٣٢ هـ ٧٤٩م .واستمر في الحكم أربع سنوات، استطاع خلالها توطيد أركان الخلافة العباسية، والقضاء على كل مقاومة ظهرت في عهده

موقف العباسيين من الأمويين

مما لاشك فيه أن هناك بعض التجاوزات التي حدثت في إقليم الشام على يد الوالي العباسي عبد الله بن علي، عم الخليفة أبي العباس؛ حيث تعقَّب الأمويين في كل مكان وقتل كثيرًا منهم، مما دفع بعضهم إلى الفرار إلى مناطق بعيدة، كما فعل عبد الرحمن بن معاوية – صقر قريش– الذي فر إلى المغرب ومنها إلى الأندلس؛ حيث أسس دولة أموية هناك سنة ١٣٨ هـ ٧٥٥م، كما حاول بعضهم الآخر التخفِّي وطلب العفو ومن ناحية أخرى لم يقف أنصار الأمويين وأعوانهم مكتوفي الأيدي أمام انتصارات العباسيين، وما ارتكبه بعض ولاتهم من مذابح تجاه البيت الأموي، فقاموا بعدة ثورات في أماكن متفرقة، إحداها بالبلقاء و حوران سنة ١٣٢ هـ ٧٤٩م، وأخرى في قِنَّسرين، وثالثة في دمشق،لكن قوات العباسيين استطاعت الانتصار عليها والسيطرة على الموقف.

موقف الخلافة من بعض زعماء الدعوة العباسية

واجهت الدولة العباسية قبيل إعلانها وفي بداية قيامها انحراف بعض المسؤولين فيها، ولم تكن الظروف السياسية التي صاحبت قيام الدولة العباسية تسمح بالتخلّص من هؤلاء، فلما بويع أبو العباس بالخلافة وبدأت الدولة تأخذ طريقها إلى الاستقرار، قامت بمعاقبة هؤلاء، وكان أول من عوقب أبا سلمة الخلال بسبب عدم تحمسه كثيرًا لانتقال أفراد البيت العباسي من الحميمة إلى الكوفة، ولم يأذن لهم بدخول الكوفة إلا بعد فترة، وحاول نقل الخلافة من البيت العباسي إلى البيت العلوي إلا أنه فشل في ذلك، كما حاول قتل أبي العباس وفشل في ذلك أيضًا، فلما استقرت أمور الدولة استقر رأي أفراد البيت العباسي على أخذ رأي أبي مسلم الخراساني، الذي وافق على التخلص منه، فتم اغتياله وأعلنت القيادة العباسية أن جماعة من أعداء الدولة هم الذين نفذوا هذه المؤامرةكما قام أبو مسلم الخراساني والي إقليم خراسان بالتخلص من أحد كبار الدعاة وهو سليمان بن كثير، الذي كان يُعرف بنقيب النقباء، عقب اتهامه بالاتصال بأحد أبناء البيت العلوي وتحريضه على الثورة ضد البيت العباسي وتُوفي الخليفة العباسي الأول أبو العباس بالأنبار في ١٣ من ذي الحجة سنة ١٣٦ هـ ٩ من يونيو سنة ٧٥٤م، وعمره نحو ست وثلاثين سنة

الخليفة الثاني: أبو جعفر المنصور ١٣٦ ـ ١٥٨ هـ ٧٧٥٧٥٣ ـم

عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب الهاشمي، وكنيته أبو جعفرولد سنة ٩٥ هـ ــ ٧١٤م في قرية الحميمة بالشام، وتربى وسط كبار الرجال من بني هاشم، فنشأ فصيحًا عالمًا يسير الملوك والأمراء، ودرس النحو والتاريخ والأدب شعرًا ونثرًا وغير ذلك، كما كان كثير الأسفار والتنقل ولما تولى أخوه أبو العباس الخلافة استعان به في محاربة أعدائه وتصريف أمور الدولة، وكان ينوب عنه في الحج، كما أوصى أبو العباس قبيل وفاته مباشرة بولاية عهده لأخيه أبي جعفر، الذي كان غائبًا في موسم الحج، فلما تُوفِّي أبو العباس قام ابن أخيه عيسى بن موسى بأخذ البيعة لأبي جعفر من بني هاشم وغيرهم، وأرسل إلى عمه أبي جعفر بوفاة أخيه ومبايعته بالخلافة. ولما وصل أبو جعفر إلى الأنبار استكمل أخذ البيعة من القادة والرؤساء، ثم خطب فيهم مبيِّنًا سياسته في إدارة الدولة في النقاط الآتية ١زهده في منصب الخلافة، وأنه لم يكن يتطلع إلى ذلك أو يرغب فيه

٢تعهده بتنفيذ ما ورد في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم

٣تعهده بإقرار العدل ورفع الظلم عن الناس، وإرجاع الحقوق إلى أصحابها

يُعدُّ أبو جعفر المنصور المؤسس الحقيقي للدولة العباسية، وقد واجه بحزم واقتدار العديد من المشاكل والثورات حتى نجح في السيطرة عليها والقضاء على القائمين بها،و منها: ثورة عمه عبد الله بن علي، وتمرد أبي مسلم الخراساني، و ثورة محمد النفس الزكية، وثورات الفرس، وحركات الخوارج

أولاً: ثورة عبد الله بن علي

يُعدُّ عبد الله بن علي –عم الخليفة أبي جعفر المنصور– من الشخصيات العسكرية البارزة في الدولة العباسية، وقد شارك مثل غيره من أفراد البيت العباسي، في النشاط العسكري والسياسي حتى قامت الدولة العباسية، وتولى إمارة الشام، فلما تُوفِّي الخليفة الأول أبو العباس، رفض عبد الله بن علي مبايعة الخليفة الجديد أبي جعفر المنصور، وأعلن أنه أحق منه بمنصب الخلافة، وأن الخليفة أبا العباس كان قد وعده بذلك، ولم يكن هذا صحيحًا؛ لأن الخليفة أبا العباس كتب وصيته قبل وفاته بتولية أخيه أبي جعفر الخلافة، كما أنه لم يرد عن أحد من أفراد البيت العباسي ما يؤيد دعوى عبد الله بن علي. وقد أحدث هذا خللاً شديدًا في كيان البيت العباسي، فحاول أبو جعفر رأب هذا الصدع، وأرسل إلى عمه عدة رسائل يدعوه إلى الدخول في طاعته، ولزوم الجماعة، إلا أن عمه رفض ذلك، فأرسل إليه أبو جعفر قائده أبا مسلم الخراساني على رأس جيش كبير، ودارت معركة فاصلة بين الجيشين في جمادى الآخرة سنة ١٣٧ هـ ــ نوفمبر سنة ٧٥٤م، انتهت بانتصار جيش أبي مسلم وفرار عبد الله بن علي إلى البصرة، ثم استطاع الخليفة أبو جعفر إحضاره منها إلى الكوفة وسجنه حتى مات سنة ١٤٧ هـ ــ ٧٦٤م.

ثانيًا: تمرد أبي مسلم الخراساني

اختلفت المصادر التاريخية في بيان أصل أبي مسلم الخراساني، والراجح أنه من أصلٍ فارسي، وقد التحق في بداية أمره بخدمة إبراهيم الإمام الذي أُعجب به ووثق فيه، واستعان به في أموره المهمة، وكان له دور بارز في نجاح الدعوة العباسية، وقيام دولتها ورغم الجهود والأعمال التي قام بها أبو مسلم فإنه ارتكب بعض الأخطاء الجسيمة في حق الخلافة العباسية منها: انفراده بالحكم في خراسان، وتجاهله شيوخ الدعوة العباسية و نقباءها هناك، وعدم تنفيذ أوامر الخليفة أبي العباس ثم تجاهله لأبي جعفر في مناسبات كثيرة، وتحريضه ابن أخيه عيسى بن موسى على الثورة والاستئثار بمنصب الخلافة، وغير ذلك وقد حاول الخليفة أبو جعفر –في البداية– معالجة الأمور بهدوء، فاستدعى أبا مسلم من خراسان إلا أنه رفض الحضور فواصل الخليفة مراسلاته، واستعان ببعض الزعماء للضغط على أبي مسلم للحضور إلى مقر الخلافة في العراق، إلا أن أبا مسلم رفض ذلك، فأرسل الخليفة إليه يهدده ويتوعده إن لم

ABBYY PDF Transformer 2.0
Click here to buy
www.ABBYY.com

يرضخ ويستجب لأمره، وبعد مشاورات بين أبي مسلم وأنصاره استجاب وحضر إلى قصر الخلافة، فعدد عليه الخليفة أبو جعفر ما ارتكبه من أخطاء في حق الدولة، ثم أمر بقتله.

ثالثًا: ثورة محمد النفس الزكية

هو محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، المعروف بالنفس الزكية، زعيم البيت العلوي والشيعة، ومنذ مقتل الإمام علي –كرم الله وجهه– والشيعة يحاولون الوصول إلى مقعد الحكم عن طريق الثورات والخروج على السلطة، باعتبارهم أصحاب الحق الشرعي وبقيام الدولة العباسية وتولّي العباسيين الخلافة انتقل صراع العلويين على الخلافة من محاربة الأمويين إلى محاربة أبناء عمومتهم العباسيين وعلى الرغم من أن أسرة محمد النفس الزكية لم تتخذ موقفًا عدائياً واضحًا في بدء الخلافة العباسية فإن الأمر تغير حين تولّى أبو جعفر المنصور الخلافة وبدأ يتعقب محمدًا النفس الزكية وأخاه إبراهيم اللذين اختفيا وأخذا يعملان سرا في الدعوة لنفسيهما والخروج على الدولة العباسية ولما فشل أبو جعفر المنصور في القبض على محمد النفس الزكية أمر بالقبض على عدد كبير من أفراد أسرته، وحملهم إلى سجون العراق وعذَّبهم لإرغام محمد النفس الزكية على الظهور، وقد نجح أبو جعفر في ذلك؛ فظهر محمد النفس الزكية في المدينة المنورة في رجب سنة ١٤٥ هـ سبتمبر سنة ٧٦٢م وقتله العباسيون هناك، كما قتلوا أخاه إبراهيم بالعراق، وكثيرًا من أهلهما.

رابعًا: ثورات الفرس

واجهت الخلافة العباسية في عهد أبي جعفر عدة ثورات فارسية، كانت تعبيرًا عن معارضة بعض العناصر الفارسية للخلافة الإسلامية، ومن هذه الثورات

حركة سنباذ سنة ١٣٧ هـ ٧٥٤م

حيث قاد سنباذ –وهو أحد أتباع أبي مسلم– حركة ثورية للثأر لمقتل أبي مسلم الخراساني، ومحاربة الإسلام، وأحس الخليفة المنصور بخطر هذه الحركة فأرسل جيشًا كبيرًا استطاع القضاء على قوات سنباذ وقتله وهو في طريقه لاجئًا إلى حاكم طبرستان. حركة الراوندية ١٤١ هـ ٧٥٨م: وهم قوم من أهل خراسان، سُموا بذلك نسبة إلى قرية رواند القريبة من أصفهان، وكانوا من أتباع أبي مسلم الخراساني، إلا أنهم زعموا أن ربهم الذي يرزقهم ويطعمهم ويسقيهم هو المنصور، وأعلنوا إيمانهم بفكرة تناسخ الأرواح واستطاعوا دخول مدينة الهاشمية، عاصمة الخلافة العباسية آنذاك، وهاجموا قصر الخلافة فتصدَّى لهم بعض الجنود البواسل، وعلى رأسهم معن بن زائدة الشيباني، واستطاعوا القضاء على هذه الحركة. حركة أستاذ سيس سنة ١٥٠ هـ ٧٦٧م: أستاذ سيس رجل فارسي ادَّعى النبوة، وقاد حركة تهدف إلى تخليص بلاد فارس من قبضة العباسيين، واستطاع بجيوشه الضخمة بسط نفوذه على مناطق سجستان وهراة وكور خراسان وغيرها، فحشدت له الخلافة العباسية قوات ضخمة بقيادة خازم بن خزيمة التميمي، استطاعت القضاء على هذه الحركة، وانتهى الأمر بالقبض على أستاذ سيس وإعدامه.

خامسًا: حركات الخوارج

نظر الخوارج إلى العباسيين على أنهم مغتصبون للخلافة التي ينبغي أن يتقلدها أجدر المسلمين بها بالانتخاب، بغض النظر عن نسبه، ومن ثم شهد العصر العباسي الأول عددًا من حركات الخوارج، بغرض القضاء على الخلافة العباسية، ومنها

ABBYY PDF Transformer 2.0 Click here to buy www.ABBYY.com

ة ملبد بن حرملة الشيبانى سنة ١٣٧ هـــ ٧٥٤م بأرض الجزيرة ديار بكر وشكلت خطرًا كبيرًا على العباسيين، إلا أن قائد خازم بن خزيمة استطاع القضاء عليها ثورة حسان بن مجالد الهمدانى بالموصل سنة ١٤٨ هـــ ٧٦٥م انتهت بالفشل لتفرق أنصاره عنه

وفاة المنصور

تُوفي المنصور في ٦ من ذي الحجة سنة ١٥٨ هـــ ٧ من أكتوبر سنة ٧٧٥م، وهو في طريقه إلى الحج وقد أشار ابن الأثير في كتابه الكامل في التاريخ إلى أن المنصور كان يجعل نهاره لتصريف أمور الدولة، فإذا صلَّى العصر جلس مع أهل بيته، فإذا صلَّى العشاء الآخرة جلس ينظر فيما ورد إليه من رسائل البلاد، حتى يمضى ثلث الليل الأول فينام، ثم يقوم في الثلث الأخير فيتوضأ ويصلى حتى يطلع الفجر، فيصلى بالناس، ثم يجلس في ديوانه لتصريف أمور البلاد، وهكذا يقضى وقته

الخليفة الثالث: محمد المهدي ١٥٨- ١٦٩ هـ ٧٨٥٧٧٥ ـم

هو محمد بن عبد الله بن محمد وُلد بالحميمة سنة ١٢٦ هـــ ٧٤٣م، وقد هيأه والده المنصور وأعده ليكون جديرًا بمنصب الخلافة من بعده، فنشأ على ثقافة عربية واسعة، ودراية بفنون الحرب وأساليب الإدارة. وقد أوصى المنصور ابنه وولي عهده محمدًا وصية جامعة، قبيل وفاته تضمنت التمسك بأن تظل بغداد عاصمة للخلافة الاهتمام بأهل بيته وحاشيته وأهل خراسان لدورهم في قيام الدولة تقوى الله وإبعاد النساء عن السياسة تجنب إهدار دماء المسلمين، ومعاقبة المفسدين والملحدين وتتبعهم الاستعداد المستمر بالقوة والسلاح، وأن يباشر الأمور بنفسه وعقب وفاة المنصور بويع المهدي بيعة خاصة من قبل الزعماء بمكة، ثم بايعه جمهور المسلمين في بغداد في ذي الحجة سنة ١٥٨ هـــ أكتوبر سنة٧٧٥ م.

سياسة المهدي العامة

اختلفت سياسة المهدي عمن سبقه، فاتسم عهده بالاستقرار والهدوء والتسامح والصفح، فأطلق سراح المسجونين السياسيين، واهتم بإقرار العدل بين الناس، وجلس للنظر في مظالم الناس مستعينًا بالقضاة، وأمر بالإنفاق على مرضى الجذام؛ حتى لا يختلطوا بالناس فتصيبهم العدوى، كما اهتم اهتمامًا خاصا بالحرمين الشريفين وبكسوة الكعبة. وقد عفا المهدي عن بعض آل البيت ومنحهم الأموال والإقطاعات، وحينما أدى فريضة الحج سنة ١٦٠ هـــ ٧٧٧م وزع أموالاً كثيرة على أهل مكة والمدينة، وأصدر عفوًا عاما عمن عاقبهم المنصور من أهل الحجاز؛ لمشاركتهم في الثورة العلوية، واختار خمسمائة من رجال الأنصار وكوَّن منهم حرسه الخاص، كما قام ببث العيون والجواسيس بالبلاد لرصد أي تحرك معادٍ للدولة، ورغم ذلك فقد حاول بعض العلويين مثل عيسى بن زيد بن علي وعلي بن العباس بن الحسن القيام بثورة ضد الخلافة العباسية، لكنها لم تنجح؛ حيث عاجلهما الموت.

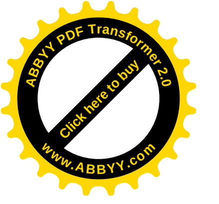
سياسة المهدي تجاه الخوارج

واجه المهدي عدة ثورات من الخوارج وقضى عليها بحزمه وسرعة مواجهته، منها

ثورة يوسف بن إبراهيم البرم في خراسان سنة ١٦٠ هـــ ٧٧٧م

حركة عبد السلام بن هاشم اليشكرى في قنسرين سنة ١٦٠ هـــ٧٧٧ م

حركة الخوارج بالموصل بزعامة ياسين الموصلى التميمى سنة ١٦٨ هـــ٧٨٤ م



ترك المنصور بعد وفاته في بيت المال أربعة عشر مليون دينار وستمائة مليون درهم، قام المهدي بتوزيعها على الناس؛ فشاع بينهم الترف والنعيم واللهو واللعب، كما اتبعه الناس في حبه للآداب والفنون؛ فارتقت الآداب والفنون، وسادت بين طبقات الشعب، وكان المهدي أول خليفة يُحمل إليه الثلج إلى مكة في الحج، كما كان مترفًا في ملبسه ومأكله

وفاة المهدي

تُوفي المهدي سنة ١٦٩ هـ ـ ٧٨٥م وعمره ثلاث وأربعون سنة، وقد قضى في الحكم إحدى عشرة سنة

الخليفة الرابع: موسى الهادي ١٦٩ ـ ١٧٠ هـ ٧٨٦٧٨٥ ـ م

هو موسى ابن الخليفة المهدي، تولى الخلافة في ٢٢ من المحرم سنة ١٦٩ هـ ـ ٥ من أغسطس سنة ٧٨٥م

سياسته

اتصف الخليفة الهادي بالغيرة والشهامة والجرأة، ورفض تدخل أمه الخيزران في سياسة الدولة كما كانت تفعل في عهد والده المهدي. وقد واجه الهادي مشاكل خطيرة على رأسها ثورة البيت العلوي بقيادة الحسين بن علي بن الحسن في المدينة سنة ١٦٩ هـ ـ ٧٨٥م، إلا أن الهادي أرسل جيشًا على وجه السرعة نجح في القضاء عليها في ٨ من ذي الحجة سنة ١٦٩ هـ ـ ١١من يونيو سنة ٧٨٦م وحاول الهادي نقل ولاية العهد من أخيه الرشيد إلى ابنه جعفر، الذي لم يكن قد بلغ الثامنة من عمره مخالفًا وصية والده في ترتيب ولاية العهد، إلا أن الموت عاجله فلم يتحقق له ما أراد

وفاته

تُوفي الهادي ليلة الجمعة، نصف ربيع الأول سنة ١٧٠ هـ ـ نصف أغسطس٧٨٦ م وبذلك تكون مدة خلافته سنة وشهرًا واثنين وعشرين يومًا

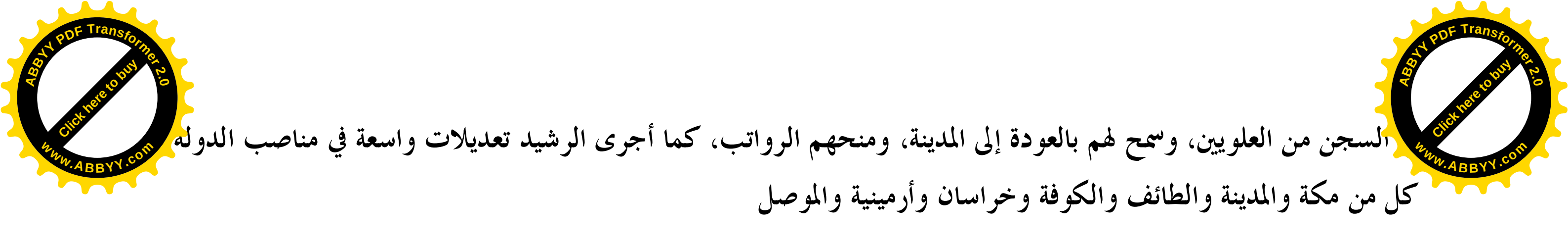
الخليفة الخامس: هارون الرشيد ١٧٠ ـ ١٩٣ هـ ٨٠٩٧٨٦ ـ م

هو هارون بن محمد المهدي، وُلد بالرى في آخر ذي الحجة سنة ١٤٥ هـ ـ فبراير سنة ٧٦٣م، وتولى الخلافة في الليلة التي مات فيها أخوه الهادي وعمره اثنان وعشرون عامًا ويُعدُّ الرشيد أشهر خلفاء العباسيين وأبعدهم صيتًا، فقد ملأت أخباره كتب التاريخ شرقًا وغربًا

سياسته العامة

لما استقر الرشيد في بغداد عاصمة الخلافة العباسية قلَّد يحي البر مكي منصب الوزارة وفوضه في إدارة شؤون البلاد، ومنحه لقب أمير؛ فكان أول من لُقِّب بذلك من الوزراء الفرس في الدولة العباسية

اهتم الرشيد بإقامة العدل في الناس، فأمر بإعادة الأراضي التي اغتصبها أهل بيته في عهد الخلفاء السابقين إلى أصحابها، ورفع الظلم عن المسجونين ظلمًا، وقسم أموال ذوي القربى بين بنى هاشم كلهم بالعدل، وأصدر عفوًا عن المعتقلين السياسيين، فأخرج من كان



السجن من العلويين، وسمح لهم بالعودة إلى المدينة، ومنحهم الرواتب، كما أجرى الرشيد تعديلات واسعة في مناصب الدولة كل من مكة والمدينة والطائف والكوفة وخراسان وأرمينية والموصل

موقفه من الشيعة

حاول الرشيد في الأعوام الأولى من خلافته مسالمة العلويين والعفو عنهم، إلا أنه كان يخشى خطورة اثنين منهم فرَّا عقب موقعة الفخ، أما أولهما فهو إدريس بن عبد الله الذي نجح في الوصول إلى المغرب الأقصى وكون دولة الأدارسة، وأما الآخر فهو يحي بن عبد الله الذي فرَّ إلى بلاد الدَّيلم وتجمع حوله المتشيعون لآل البيت، فأرسل إليه الرشيد جيشًا بقيادة الفضل بن يحي؛ لإرجاعه إلى حظيرة الخلافة، فعاد به إلى بغداد حيث لقيه الرشيد بكل ما أحب، إلا أن الحاسدين سرعان ما وشوا به عند الخليفة بسبب قيام الكثير من العلويين بزيارته والتودد إليه، فأمر الرشيد بسجنه حتى مات

وقد استطاع بعض رجال الحاشية الذين يكنون العداء للبيت العلوي تعميق خوف الرشيد من زعماء البيت العلوي واستغلال ذلك للقضاء عليهم، كما حدث مع موسى الكاظم؛ حيث أمر الرشيد بحبسِه حتى أدركه الموت

موقفه من الخوارج

واصل الخوارج نشاطهم العسكري ضد الخلافة العباسية في عهد الرشيد، فقام الوليد بن طريف الخارجي بحركة تمرد وعصيان في العراق واستولى على أماكن عديدة، إلا أن الرشيد أرسل إليه جيشًا بقيادة يزيد الشيبانى استطاع القضاء على هذه الحركة وقتل قائدها في رمضان سنة ١٧٩ هـــ نوفمبر سنة ٧٩٥م

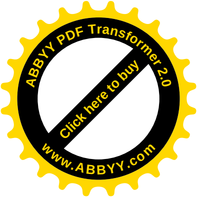
موقفه من البرامكة

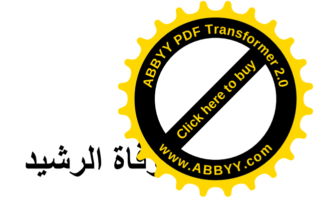
تمتع البرامكة في بداية عهد الرشيد بالسلطة والجاه والنفوذ، وتقلدوا مناصب الدولة المهمة، حتى إذا جاء شهر صفر سنة ١٨٧ هـــ يناير سنة ٨٠٣م أمر الرشيد بسجنهم، ومصادرة أموالهم وممتلكاتهم، فيما عرف في التاريخ بنكبة البرامكة .وقد تضافرت عدة عوامل كانت سببًا فيما فعله الرشيد بالبرامكة، منها

اتهامهم بالزندقة والخروج عن الإسلام باعتبارهم من أصل مجوسي محاولتهم إبعاد العرب عن المناصب المهمة وتقديمهم الفرس لشغلها استبدادهم بالأمور وإظهارهم ما لا تحتمله نفوس الملوك قيام الحاسدين والحاقدين بتضخيم أخطاء البرامكة أن الرشيد كلف جعفر بن يحيى البرمكى بقتل رجل من آل أبي طالب فلم يفعل.

المجتمع في عهد الرشيد

ازدهر المجتمع في عهد الرشيد اقتصاديا وثقافيا وعلميا وعمرانيا .فقد تدفقت الأموال من كل مكان، واتسعت رقعة الدولة واستقر الأمن بها وازدهرت التجارة، وأصبحت بغداد قبلة للطامحين في الثراء والترف، كما قصدها النوابغ والعباقرة والصناع المهرة من سائر الشعوب، وشيدت فيها القصور الرائعة والمساجد الكبيرة، وانتشرت الحدائق العامة، والأسواق المتخصصة كسوق الذهب والنحاس، والنسيج وغير ذلك. وكان الرشيد على قدر عالٍ من الثقافة والمعرفة، واجتمع عنده أقطاب العلم والعمل والسياسة والحرب مثل: أبي يوسف تلميذ الإمام أبي حنيفة، والأصمعي الراوية المشهور، وأبي العتاهية وأبي نواس من الشعراء، وداهية السياسة يحي البرمكى وابنيه الفضل وجعفر، ومن المغنين إبراهيم الموصلي وابنه إسحاق، ومن الموسيقيين زلزل وبرصوم، وغيرهم من أمراء العباسيين القادة والخطباء والشعراء والساسة





أثناء سفر الرشيد من بغداد إلى خراسان اشتد المرض عليه، وتُوفي صباح يوم الجمعة ٢ من جمادى الآخرة سنة ١٩٣ هـــ ٢٣ من مارس سنة ٨٠٩م، وعمره خمس وأربعون سنة. وقد حكم الرشيد البلاد ثلاثة وعشرين عامًا، بلغت فيها الدولة العباسية ذروة مجدها، وقد تحدث عنه كثير من المؤرخين، فقال عنه الطبري: غزا سبع مرات، وجهز عشرين حملة للجهاد في البر و البحر. وقال عنه ابن خلكان: حج في خلافته تسع حجج، وكان يصلى في اليوم مائة ركعة

الخليفة السادس: محمد الأمين ١٩٣ - ١٩٨ هـ ٨١٣٨٠٩ - م

هو محمد بن هارون الرشيد، وُلد بالرصافة وأمه زبيدة ابنة جعفر الأكبر بن المنصور، تولى الخلافة عقب وفاة أبيه هارون الرشيد باعتباره ولي عهده، وكان عمره حينئذٍ ثمانية وعشرين عامًا

الصراع بين الأمين والمأمون

تشير مصادر التاريخ إلى أن بداية الخلاف كانت من جانب الأمين، حين خالف أمر والده الرشيد في مرضه، بأن يكون ما في معسكره من أموال ومتاع وجند لأخيه المأمون، في مرو؛ مما أحدث أثرًا سيئًا في نفس المأمون. وكانت الخطوة التالية قيام الأمين بتعيين ابنه موسى وليا للعهد بدلاً من أخويه المأمون والمؤتمن، فقام المأمون بإسقاط اسم الأمين من الطرز والسّكَة، ومنع البريد من الوصول إليه بأخبار خراسان، ثم طلب من أخيه الأمين أن يرد إليه مائة ألف دينار كان والده الرشيد قد أوصى بها إليه فرفض الأمين، ثم تطور الصراع بينهما إلى المواجهة العسكرية، فجهز الأمين جيشًا بقيادة علي بن عيسى بن ماهان، وجهَّز المأمون جيشًا ضخمًا بقيادة طاهر بن الحسين، ودارت عدة معارك بين الجيشين انتهت بمحاصرة بغداد ومقتل الأمين سنة ١٩٨ هـــ ٨١٣م، وقد دامت خلافة الأمين أربع سنوات وثمانية أشهر وخمسة أيام.

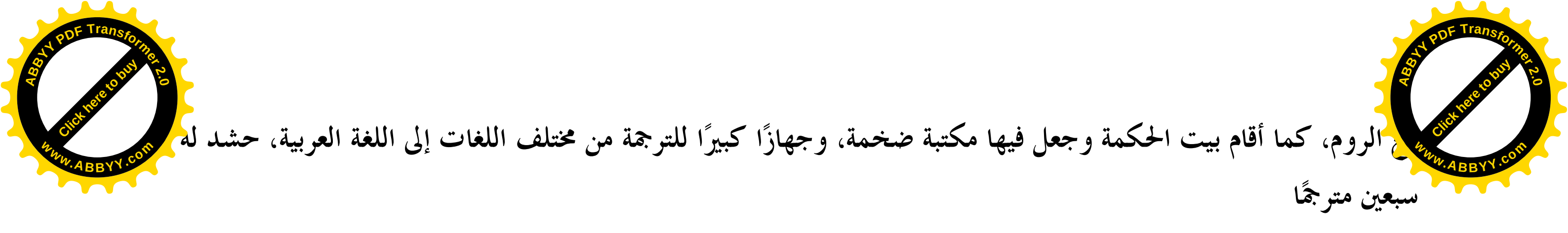
الخليفة السابع: عبد الله المأمون ١٩٨ - ٢١٨ هـ ٨٣٣٨١٣ - م

هو عبد الله بن هارون الرشيد، وُلد في منتصف ربيع الأول سنة ١٧٠ هـــ أغسطس سنة ٧٨٦م وأمه أم ولد فارسية تُسمَّى مراجل، وكان يكنى أبا العباس، ويُلقب بالمأمون. نشأ المأمون نشأة إسلامية، وتلقى العلوم العربية، وتدرَّب على فنون القتال والنزال وقيادة الجند، كما أسند والده الرشيد إلى وزيره جعفر البرمكى مهمة الإشراف على تنشئته، وقد أظهر المأمون نبوغًا خلال دراسته ولما تولى المأمون الخلافة عزم أن يقدم القدوة الصالحة والسيرة الحسنة في الناس حتى يقتدي به رجال دولته، وكان يقول: أول العدل أن يعدل الملك في بطانته، ثم الذين يلونهم، حتى يبلغ إلى الطبقة السفلىكما اتصف المأمون بالعفو والحلم حتى اشتهر بذلك وهو القائل: لو عرف الناس حبي للعفو لتقربوا إلىّ بالجرائم، وأخاف ألا أؤجر عليه، يعنى لكونه طبعًا له يستلذ به

سياسة المأمون

انتهج المأمون سياسة واعية تقوم على أسس واضحة منهاتأليف القلوب بالعفو والعطاء، وقد عد اليعقوبى سبع عشرة حادثة يستحق صاحب كل واحدة منها القتل عند أمثال المنصور، لكنها قوبلت عند المأمون بالعفو

العناية بالعلم والعلماء: كان للمأمون ولعٌ بالأمور العلمية والفلسفية، فكان يعقد مجالس المناظرة ويبعث في طلب العلماء والأعلام من بيزنطة لحضورها، وكان يتصيَّد الكتب النادرة ويدفع فيها المبالغ الطائلة، ويجعل حصوله عليها شرطًا من شروط الهدنة ووقف القتال



الروم، كما أقام بيت الحكمة وجعل فيها مكتبة ضخمة، وجهازًا كبيرًا للترجمة من مختلف اللغات إلى اللغة العربية، حشد له سبعين مترجمًا

المأمون والشيعة جمعت سياسة المأمون تجاه الشيعة بين أمرين هما السخط والرضا

أما العنف فقد تمثل في سياسة المأمون تجاه الثورات الشيعية المسلحة التي اندلعت في عدة أماكن، مثل حركة ابن طباطبا العلوي سنة ١٩٩ هـ ـ ٨١٤م، وحركة الحسين بن الحسن في الحجاز، وحركة عبد الرحمن بن أحمد في اليمن سنة ٢٠٧ هـ ـ ٨٢٢م، وقد انتهت هذه الحركات بالفشل في تحقيق أغراضها

وأما الرضا فقد تمثل في قيام المأمون باختيار أحد أبناء البيت العلوي وهو على بن موسى الرضا ليكون ولي العهد من بعده، وهو ما لم يفعله أحد من خلفاء بنى العباس قبله، وقد اختلف المؤرخون في تعليل قيام المأمون بهذا الأمر، فمنهم من فسر ذلك بميول المأمون الشيعية وحرصه على تولية أفضل العناصر ولاية العهد، وآخرون أرجعوا ذلك إلى تأثير الفضل بن سهل وميوله الشيعية. وقد أحدثت بيعة المأمون لعلي بن موسى الرضا بولاية العهد ردود فعل عنيفة في أنحاء الدولة العباسية فرفض أفراد البيت العباسي ومؤيدوهم هذه البيعة، وبايعوا إبراهيم بن المهدي عم المأمون بالخلافة سنة ٢٠٢ هـ ـ ٨١٧م ولما علم المأمون بذلك وهو في مرو بخراسان تحرك قاصدًا بغداد لمعالجة الموقف، وأثناء ذلك مات على الرضا ولي العهد، فهدأ الموقف، وهرب إبراهيم بن المهدي من بغداد، ودخلها المأمون، ثم عفا عنه.

المأمون والفرس

يمكن تقسيم نشاط الفرس في عهد المأمون إلى قسمين :

نشاط سياسي: ويتمثل هذا النشاط في الدور الذي لعبه بنو سهل مع الخليفة المأمون، وهو يشبه تمامًا دور البرامكة مع هارون الرشيد،حيث سلم المأمون الفضل بن سهل مقاليد الأمور، فصارت مهام الدولة في يده، وبدأ في إبعاد العناصر العربية من بلاط المأمون، وتعصب للعنصر الفارسي، وارتكب مجموعة أخرى من الأخطاء؛ مما جعل المأمون يفكر في التخلص منه، فقتل أثناء سفر المأمون إلى بغداد

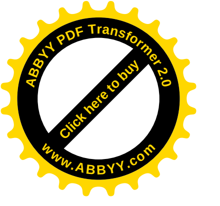
نشاط عسكري: أما النشاط العسكري فيتمثل في حركة بابك الخرمى،التي تُعدُّ أخطر الحركات الفارسية المعادية للخلافة العباسية، فقد استمرت ما يزيد على عشرين عامًا واتسمت بدقة التنظيم وبراعة القيادة، والاتصال السياسي بالأكراد والأرمن وغيرهم، وكانت تؤمن بمبادئ هامة منها:

الإيمان بالحلول والتناسخ حتى إن زعيمها بابك ادَّعى الألوهية

المشاعية المزدكية في الأموال والأعراض ضرورة التخلص من السلطان العربي والدين الإسلامي. وقد ألحقت هذه الحركة العديد من الهزائم بالجيش العباسي ولم يتم القضاء عليها إلا في عهد المعتصم بالله

وفاة المأمون

ظل المأمون خليفة للمسلمين عشرين سنة وخمسة أشهر وعشرين يومًا، وقد تُوفي في ١٨من رجب سنة ٢١٨ هـ ـ ٨٣٣م



الخليفة الثامن: المعتصم بالله ٢١٨ - ٢٢٧ هـ ٨٤٢٨٣٣ ـ م

هو محمد بن هارون الرشيد، وُلد في شعبان سنة ١٨٠ هـــ أكتوبر سنة٧٩٦ م، وأمه جارية تركية اسمها مارده، وقد تولى الخلافة عقب وفاة أخيه المأمون. كان المعتصم يتميز بقوته الجسمية وشدته في الحرب، حتى قيل عنه: إنه كان يصارع الأسود ويحمل ألف رطل ويمشى به خطوات ويشد على الدينار بأصبعه السبابة والوسطى فيمحو كتابته، وقال عنه المؤرخون: إنه لم يكن في بنى العباس قبله أشجع منه ولا أتم تيقظًا ولا أشد قوة. ومع ذلك فقد كان المعتصم على خلاف أخويه الأمين والمأمون في العلوم والآداب، فقد كان قليل البضاعة منهما، حتى ذكر بعض المؤرخين أنه نشأ أميا لا يكتب، أو أنه كان ضعيف الكتابة على حد قول ابن خلكان وابن كثير.

سياسة المعتصم

اختلفت الأوضاع السياسية في عهد المعتصم عنها في عهد من سبقه،بسبب ظهور عوامل جديدة على مسرح الأحداث، كان في مقدمتها ظهور العنصر التركى قوة مؤثرة في حركة الأحداث؛ فتمتع الأتراك بصفات عسكرية كالشدة والقوة والتحمل جعل المعتصم يستكثر منهم، يضاف إلى ذلك أن أمه تركية. إلا أن كثرة الأتراك سببت أضرارًا كبيرة لسكان بغداد، مما دفع المعتصم إلى البحث عن مكان جديد يكون عاصمة له فوقع الاختيار على المكان الذي بنيت عليه مدينة سُرّ من رأى سامراء حاليا التى بُدء البناء فيها سنة ٢٢١ هـــ ٨٣٦م، ويتميز موقعها بميزات سياسية واقتصادية وعسكرية، فمن الناحية السياسية فإنها في موقع متوسط يسهل الاتصال بأنحاء الدولة، ومن الناحية الاقتصادية فإن موقعها يسهل عمليات التبادل التجارى بين النواحى الشمالية والجنوبية، وعسكريا فإن إحاطة المياه بها يجعلها في مأمن من أى عدوان خارجى. ومن الأعمال العظيمة التى تنسب إلى المعتصم بالله نجاحه في القضاء على ثورة بابك الخرمى، فحينما تولى أمر البلاد جهز جيشًا بقيادة الأفشين وزوَّده بكل أدوات القتال وبالمال اللازم؛ حيث دارت عدة معارك، انتهت بالقبض على بابك الخرمى وإعدامه.

المعتصم والشيعة

لم تظهر في عهد المعتصم حركات علوية مؤثرة كالحركات التى حدثت في عهد الخلفاء السابقين، وإنما حدثت بعض الحركات الضعيفة، و منها حركة محمد بن القاسم المعروف بالصوفي، سنة ٢١٩ هـــ ٨٣٤م: والذي تحرك في عدة أماكن كالحجاز والكوفة ثم استقر في خراسان، وشكلت حركته خطرًا على الدولة العباسية، فكلف المعتصم واليه على خراسان عبد الله بن طاهر بالتصدى لهذه الحركة؛ حيث نجح في القضاء عليها

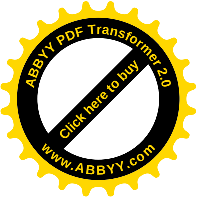
وفاة المعتصم بالله سنة ٢٢٧ هـ ٨٤١م

تُوفي المعتصم بالله في شهر ربيع الأول سنة ٢٢٧ هـــ ديسمبر سنة٨٤١ م، وقد أطلق عليه بعض المؤرخين الُمثَمن، لأن خلافته دامت ثمانى سنين وثمانية أشهر ويومين، ومولده في الشهر الثامن من العام الهجرى، ومات عن ثمانية بنين وثمانى بنات

الخليفة التاسع :الواثق بالله: ٢٢٧ - ٢٣٢ه = ٨٤١ - ٨٤٧م

هو هارون بن المعتصم بالله، يكنى أبا جعفر وأمه أم ولد رومية تُسمى قراطيس، وكان فطنًا لبيبًا فصيحًا ينظم الشعر ويحب الموسيقى. وقد تولى الواثق بالله الحكم يوم وفاة والده المعتصم

سياسة الواثق بالله



هر ملامح تلك السياسة فيما يلى

أولاً: تمسكه بمذهب المعتزلة، حتى جعله المذهب الرسمى للدولة، مما أثار أهل السنة ضده، إلا أنه تصدى لهم وقبض على زعمائهم

ثانيًا: تقريبه للأتراك جريًا على سياسة والده المعتصم، حتى إنه قسم البلاد بين رجلين من الأتراك، الأول أشناس وأعطاه الشطر الغربى من الدولة إلى آخر بلاد المغرب، والثانى قائده إيتاخ وأعطاه الشطر الشرقى: دجلة وفارس والسند، وكان كل منهما يعين الولاة الذين يريدهم، هذا بالإضافة إلى عدد من القادة الأتراك الذين شغلوا مناصب خطيرة، مثل: وصيف التركى الذي أوكل إليه الواثق القضاء على ثورة المتمردين الأكراد، وبغا الكبير الذي أخمد ثورة الأعراب بنواحى المدينة. وكان الواثق يغدق عليهم الأموال والهدايا

ثالثًا: مصادرة أموال كبار الموظفين، مثل أحمد بن إسرائيل، الذي أخذ منه ثمانين ألف دينار، وسليمان بن وهب كاتب إيتاخ، الذي أخذ منه أربعمائة ألف دينار، وغيرهما، مما ترك آثارًا سيئة في الجهاز الإدارى والاستقرار المالى للدولة، وأصابهما بالفساد والخلل

رابعًا: إحسانه إلى بعض طوائف الأمة، وفي مقدمتهم العلويون حيث أغدق عليهم الأموال.

وفاة الواثق بالله

استمر الواثق في مقعد الخلافة خمس سنين وتسعة أشهر، ثم أُصيب بمرض الاستسقاء، ومات في ذي الحجة سنة ٢٣٢ هـــ يوليو سنة ٨٤٧م، وعمره اثنان وثلاثون عامًا، وقيل: ستة وثلاثون

.السمات العامة للعصر العباسي الأول ١٣٢ – ٨٤٧٥٢٣٢ - ٧٤٩ = م

امتد العصر العباسي الأول مائة سنة، تولى الخلافة خلالها تسعة خلفاء، بدءًا من أبي العباس وانتهاءً بالواثق بالله، ويمكن تقسيم هذا العصر إلى ثلاثة عهود رئيسية

عهد التأسيس من سنة: ١٣٢ هــ ٧٤٩م إلى سنة ١٥٨ هــ ٧٧٥م، ويشمل خلافة أبي العباس والمنصور

عهد الاستقرار: من سنة ١٥٨ هــ ٧٧٥م إلى سنة ٢١٨ هــ ٨٣٣م، ويشمل خلافة المهدي والهادي والرشيد والأمين والمأمون

عهد القلق: من سنة ٢١٨ هــ ٨٣٣م إلى سنة ٢٣٢ هــ ٨٤٧م، ويشمل المعتصم بالله والواثق بالله

ويتميز العصر العباسي الأول بالسمات الآتية

أولاً: كثرة الصراعات :ومن ذلك

الصراع بين العرب –ومنهم أسرة الخلافة–والفرس–ومنهم الوزراء والإداريون وغيرهم مثلما حدث بين الرشيد و البرامكة، والمأمون وبنى سهل الصراع بين فروع البيت الهاشمي: العباسيين، والعلويين، مثلما حدث بين الخليفة المنصور ومحمد النفس الزكية

الصراع بين الخلافة العباسية والحركات المعادية لها من العرب وغيرهم، وقد تمثل ذلك في حركات الخوارج الصراع بين الإسلام الدين الرسمى للدولة– وبين العقائد الأخرى التى ظهرت في بلاد فارس كالخُرَّمية وغيرها من العقائد الفاسدة ثانيًا: اتساع العلاقات الخارجية فقد بسطت الخلافة العباسية سلطانها على بلادٍ كثيرة شرقًا وغربًا، وتعددت علاقاتها مع الدول الأخرى وفي مقدمتها

الدولة البيزنطية

وكانت العدو التقليدي للدولة الإسلامية منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، وقد اشتد هذا العداء بعد استيلاء المسلمين على بعض المناطق التي كانت خاضعة للدولة البيزنطية، كالشام ومصر والمغرب وخلال العصر العباسي الأول حدث الاحتكاك المباشر بين القوات الإسلامية والبيزنطية على الحدود الشمالية في منطقة الشام، فقد استغلت الدولة البيزنطية انشغال الخليفة العباسي الأول أبي العباس عبد الله بن محمد، بتثبيت أركان الدولة سنة ١٣٢ هــ ٧٤٩م، وقامت بمهاجمة الحصون والثغور الإسلامية؛ فأمر الخليفة أبو العباس واليه على الشام بالإعداد لمواجهة البيزنطيين، ولكن الموت عاجله، وجاء المنصور فأمر بتحصين الثغور وإعادة بناء ما هدمه البيزنطيون، وجعل لها حكمًا إدارياً مستقلاً، وحشد فيها آلاف المقاتلين والمرابطين في سبيل الله

وكانت هذه الثغور تنقسم إلى قسمين

الثغور الجزرية: للدفاع عن الجزيرة الفراتية وشمال العراق وأهم حصونها ملطية والمصيصة، ومرعش.

الثغور الشامية: وتقع غرب الثغور الجزرية، وهى للدفاع عن الشام، وأهم حصونها طرسوس، وأدنة

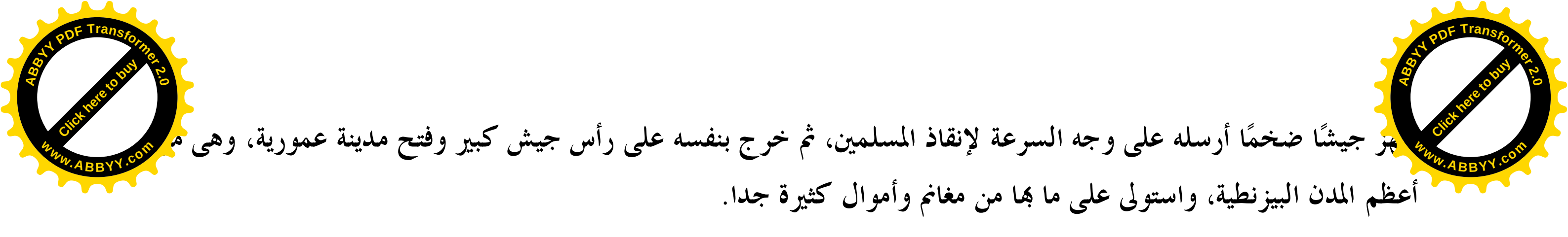
وفي سنة ١٦٢ هــ ٧٧٩م أرسل المهدي جيشًا ضخمًا بقيادة الحسن بن قحطبة، فتوغل في بلاد الروم ونشر الرعب بين صفوفهم

وفي سنة ١٦٣ هــ ٧٨٠م خرج المهدي بنفسه على رأس الجيش متجهًا إلى الحدود البيزنطية، ووصل إلى الموصل ثم حلب؛ حيث ترك ابنه هارون الرشيد ليتابع جهاده ضد البيزنطيين، وفي عهد الرشيد ١٧٠– ١٩٣ هــ ٧٨٦– ٨٠٩م أمر بجعل منطقة الثغور منطقة مستقلة باسم الثغور والعواصم وأقام خطين للدفاع عن حدود الدولة مع البيزنطيين، الخط الأول هو الثغور، والخط الثانى إلى الجنوب من الخط الأول، ويُسمَّى :العواصم

كما قام الرشيد ببناء حصون جديدة، مثل عين زربة، وزبطرة وغيرهما .وقد حاول نقفور إمبراطور الدولة البيزنطية الامتناع عن دفع الجزية للخلافة العباسية، فأرسل إليه الرشيد يقول: بسم الله الرحمن الرحيم، من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم، قد قرأت كتابك يا بن الكافرة والجواب ما تراه دون أن تسمعه والسلام. وخرج الرشيد بنفسه على رأس جيش ضخم ألحق الهزيمة بالقوات البيزنطية وأرغم الإمبراطور نقفور على الخضوع ودفع الجزية مرة أخرى

ونظرًا لكثرة المعارك بين العباسيين والبيزنطيين، فقد وقع كثير من جنود الطرفين أسرى، وقد حرصت الخلافة العباسية على فداء أسرى المسلمين، في عهد الرشيد سنة ١٨١ هــ ٧٩٧م. وقد سار المأمون ١٩٨ – ٢١٨ هــ ٨١٣ – ٨٣٣م على سياسة والده نفسها، في استمرار النشاط العسكري ضد البيزنطيين، وكان النصر حليف المسلمين

وتعدُّ معركة عمورية سنة ٢٢٣ هــ ٨٣٨م، أبرز المعارك بين المسلمين والبيزنطيين في عهد المعتصم بالله، وكان سببها اعتداء الإمبراطور البيزنطي تيوفيل بن ميخائيل على بعض الثغور و الحصون على حدود الدولة الإسلامية، وحين بلغ المعتصم ما وقع للمسلمين في هذه المدن، وصيحة امرأة مسلمة وقعت في أسر الروم: وامعتصماه، فأجابها وهو جالس على سريره: لبيك لبيك، و



هز جيشًا ضخمًا أرسله على وجه السرعة لإنقاذ المسلمين، ثم خرج بنفسه على رأس جيش كبير وفتح مدينة عمورية، وهى م أعظم المدن البيزنطية، واستولى على ما بها من مغانم وأموال كثيرة جدا.

الدولة الأموية بالأندلس

وكانت علاقة العباسيين بها علاقة عداء وتربص، فقد استطاع عبد الرحمن بن معاوية–بعد فراره من العباسيين إلى الأندلس –أن يؤسس الدولة الأموية بالأندلس وعاصمتها قرطبة سنة ١٣٨ هـــ ٧٥٥م

وقد حاولت الخلافة العباسية بسط نفوذها على بلاد الأندلس و القضاء على الدولة الأموية بها، فدبَّر أبو جعفر المنصور ثورة العلاء بن مغيث الجذامى في مدينة باجة الأندلسية سنة ١٤٦ هـــ ٧٦٣م، وقام المهدي بمساندة الثورات الداخلية التي كانت تقوم لحساب الدولة العباسية، ولكن كل هذه المحاولات والثورات باءت بالفشل بسبب يقظة الأمير الأموي عبد الرحمن الداخل وحزمه، وقد لقبه أبو جعفر المنصور بصقر قريش، بل إن عبد الرحمن الداخل أشاع عزمه على غزو الشام وانتزاعه من الدولة العباسية، وكتب إلى أنصاره في الشام بذلك وعهد إلى ابنه سليمان بولاية الأندلس، وذلك بغرض إزعاج الدولة العباسية وإرغامها على وقف محاولاتها المستمرة لاسترداد بلاد الأندلس

الدولة الكارولونجية

وكانت إحدى القوى الناشئة في غربي البحر المتوسط جنوبي فرنسا حاليا، وقام بينها وبين الدولة العباسية علاقات سياسية، وجرى

تبادل السفراء بين الدولتين في عهد هارون الرشيد، وقد سعى زعيم الدولة الكارولونجية شارلمان إلى كسب وده لتعزيز موقفه الداخلي و الخارجي، وتبادل معه الهدايا الثمينة.

الأوضاع الحضارية في العصر العباسي الأول

أولاً: النظام السياسي والإداري،ويشمل الخلافة

وقد أقام العباسيون دولتهم سنة ١٣٢هـــ = ٧٤٩م وتولى أول خلفائهم أبو العباس عبد الله بن محمد السلطة بناءً على وصية أخيه إبراهيم الإمام بعد وقوعه فى قبضة الأمويين، وقد حكم أبو العباس أربع سنوات، وقبيل وفاته عهد إلى أخيه أبي جعفر المنصور بولاية العهد من بعده، ومن بعد أبي جعفر، عيسى بن موسى، وكتب العهد بهذا وصره فى ثوب وختم عليه بخاتمه وخواتم أهل بيته وسلمه إلى عيسى بن موسى

ومن هنا نلاحظ أن الحكم قد بدأ وراثيا فى عهد الدولة العباسية منذ اللحظة الأولى، واقتصر على أهل البيت العباسي، كما أن أكثر الخلفاء كان يوصى بولاية العهد إلى أكثر من شخص؛ مما أدى إلى صراعات ساعدت على تصدع الدولة العباسيةوحين تولى أبو جعفر المنصور الخلافة واجه اعتراضًا من عمه عبد الله بن على الذي رفض مبايعته، ودعا لنفسه بالخلافة مدعيًا أنه ولى عهد أبي العباس، مما دعا المنصور إلى توجيه جيش له بقيادة أبي مسلم الخراسانى تمكن من القبض عليه والقضاء على دعوته وقد نقل المنصور ولاية العهد من ابن أخيه عيسى بن موسى إلى ابنه محمد، الذي تولى الخلافة بعد أبيه المنصور سنة ١٥٨هـــ = ٧٧٥م ولقب بالمهدى، واستمر فى منصبه حتى تُوفِّي سنة ١٦٩هـــ = ٧٨٥م؛ حيث تولى ابنه موسى الملقب بالهادي، ولم يمكث سوى سنة واحدة فى الحكم؛ حيث تولى

ن بعده أخوه هارون الرشيد، ومنذ عهد الرشيد أصبح الصراع السياسي على السلطة إحدى السمات المميزة للعصر العباسي الأول، وكان الصراع بين الأمين والمأمون من الأمثلة المعبرة عن هذه السمة، وقد انتهى بقتل الأمين وتولية المأمون الخلافة.

الوزارة

تُعدُّ الوزارة المنصب الثاني بعد الخلافة فى الدولة العباسية وقد قسَّم فقهاء المسلمين الوزارة إلى نوعين

وزارة التفويض حيث يفوض الخليفة الوزير فى تدبير أمور الدولة برأيه واجتهاده، فتكون له السلطة المطلقة فى الحكم والتصرف فى شئون الدولة

وزارة التنفيذ حيث يكون الوزير وسيطاً بين الخليفة والرعية والولاة، ومجرد منفذ لأوامر الخليفة.

وقد أحدث العباسيون نظام الوزارة فى بداية دولتهم متأثرين فى ذلك بالنظم الفارسية، ولم تكن مسئوليات الوزير فى بداية الأمر تبعد كثيرًا عن مسئوليات الكاتب، وقد حصر أبو جعفر المنصور مهمة الوزير فى التنفيذ وإبداء الرأي والنصح، ولم يكن له وزير دائم، ومن وزرائه: الربيع بن يونس الذي اشتهر باللباقة والذكاء وحسن التدبير والسياسة

وقد ظهرت شخصية الوزراء إلى حد كبير فى عهد الخليفة المهدى، لما ساد الدولة من هدوء نسبى، ومن هؤلاء الوزراء الأقوياء يعقوب بن داود، ثم صار للوزارة شأن كبير فى عهد الرشيد، والمأمون لاعتماد الأول على البرامكة، والثاني على بنى سهل، فمُنِحَ يحيى البر مكي وزير الرشيد، والفضل بن سهل وزير المأمون صلاحيات وسلطات واسعة، جعلت نفوذهما يمتد إلى جميع مرافق الدولة، ولكن سرعان ما تم التخلص منهما.

الكتابة كانت طبقة الكُتَّاب ذات أهمية كبيرة فى الدولة العباسية، وكان الكاتب ذا علم واسع وثقافة عريضة؛ لأنه يقوم بتحرير الرسائل الرسمية والسياسية داخل الدولة وخارجها، كما يتولَّى نشر القرارات والبلاغات والمراسيم بين الناس، ويجلس على منصة القضاء بجوار الخليفة لينظر فى الدعاوى والشكاوى ثم يختمها بخاتم الخليفة. ومن أشهر الكُتَّاب فى العصر العباسي الأول يحيى بن خالد بن برمك فى عهد الرشيد، والفضل والحسن ابنا سهل، وأحمد بن يوسف في عهد المأمون، ومحمد بن عبد الملك الزيات والحسن بن وهب، وأحمد بن المدبر في عهد المعتصم والواثق

الحجابة وهي وظيفة تقوم بمساعدة الحكام فى تنظيم الصلة بينهم وبين الرعية، فالحاجب واسطة بين الناس والخليفة، يدرس حوائجهم، ويأذن لهم بالدخول بين يدي الخليفة أو يرفض ذلك إذا كانت الأسباب غير مقنعة؛ وذلك حفاظًا على هيبة الخلافة وتنظيمًا لعرض المسائل حسب أهميتها على الحاكم الأعلى للبلاد

وقد اقتدى العباسيون بالأمويين فى اتخاذ الحُجَّاب، وأسرفوا فى منع الناس من المقابلات الرسمية، ولعل هذا هو السبب المباشر فى نشأة ما أسماه ابن خلدون الحجاب الثاني، فكان بين الناس والخليفة حاجزان عبارة عن دارين، أحدهما يُسمَّى دار الخاصة والآخر دار العامة، وكان الخليفة يقابل كل طائفة حسب حالتها وظروفها فى إحدى هاتين الدارين تبعًا لإرادة الحُجَّاب على أبوابها

ولاية الأقاليم المقصود بالأقاليم: المناطق التي تتكون منها الدولة .وقد كان النظام الإداري فى الدولة العباسية نظامًا مركزيا؛ حيث صار الولاة على الأقاليم مجرد عمال للخليفة على عكس ما كانوا عليه فى الدولة الأموية

ABBYY PDF Transformer 2.0 Click here to buy www.ABBYY.com

[illegible]د قسم العباسيون الولاية على الأقاليم إلى قسمين، وخصوصًا فى عهد الرشيد، الأول: الولاية الكبرى وهى التي تكون لأحد الخليفة أو شخص مقرب من الخليفة؛ حيث يتولى هذا الوالي عدة أقاليم فى الدولة ويقوم بتصريف أمورها من العاصمة، أو من أحد تلك الأقاليم بعد الرجوع إلى الخليفة، ويرسل إليها ما يشاء من الولاة. الثاني: الولاية الكاملة: حيث يتمتع الوالي ببعض السلطات التي توسع دائرة نفوذه، مثل النظر فى الأحكام وجباية الضرائب والخراج وحماية الأمن وإمامة الصلاة وتسيير الجيوش للغزو

الدواوين ظهرت الدواوين فى الدولة الإسلامية، كبقية المؤسسات الإدارية، نتيجة لاحتياج المسلمين إليها، وقد جعل ابن خلدون وجود الديوان من الأمور اللازمة للملك. وللديوان أهمية كبرى فيما يتعلق بأموال الدولة وحقوقها وحصر جنودها ومرتباتهم، ويرجع الفضل فى تنظيم الدواوين فى العصر العباسي إلى خالد بن برمك

وقد اهتم الخلفاء العباسيون بالدواوين؛ فكثرت اختصاصاتها وتنوعت بسبب التعاون الوثيق بين العباسيين والفرس، فقد أخذ العباسيون الخبرة الفارسية فى مجال الإدارة، كما احتفظوا ببعض تنظيمات الدولة الأموية، خصوصًا فى الدواوين والدوائر الرسمية، كما استحدثوا بعض الدواوين كديوان المصادرات، وديوان الأزمّة المحاسبة وديوان المظالم، وغيرها

القضاء وهو من الوظائف المهمة فى الدولة الإسلامية، ويقوم على المحافظة على حقوق الرعية وإقرار العدل والإنصاف بين جميع الطبقات، وحماية الأخلاق العامة، مستمدا أحكامه من الكتاب والسنة ، ونظرًا لأهمية هذا المنصب فقد وضع العلماء المواصفات التي يجب توافرها فى القاضي، و منها: أن يكون رجلاً قوياً عاقلاً حرا مسلمًا عادلاً، ويتمتع بالسلامة فى السمع والبصر، وأن يكون عالمًا بأحكام الشريعة وقد حظي القضاة فى العصر العباسي الأول بالتبجيل والاحترام، وكان تعيينهم وعزلهم يتم بأمر الخليفة، وأول من فعل ذلك الخليفة المنصور، فقد عين قضاة البلاد بأمره سنة ١٣٦هـ = ٧٥٣موقد استقرت المذاهب الفقهية فى عهد الدولة العباسية، وتحددت مهام القضاة وكيفية الإجراء القضائي، وتوحد القانون وأصبحت جلسات القاضي علنية فى المسجد وخصوصًا فى عهد المأمون كما اهتم خلفاء العباسيين بالتثبت من الأحكام، فعيَّنوا جماعة من المُزَكِّين، وظيفتهم تتبع أحوال الشهود، فإذا طعن الخصم فى شهادة أحد الشهود سُئل عنه المزكي، كما اهتموا بأحوال القضاة المادية حتى يعيشوا فى يسر ورخاء وقد تطور القضاء بصورة ملحوظة فى العصر العباسي الأول، وظهر منصب قاضي القضاة، وكان يقيم فى عاصمة الدولة، ويقوم بتعيين القضاة فى الأقاليم والبلاد المختلفة، وأول من لقب قاضي القضاة أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم، صاحب كتاب الخراج، فى عهد الرشيد

ثانيًا: الأوضاع الاقتصادية والعمرانية

أدرك الخلفاء العباسيون أهمية الاقتصاد وتنمية الموارد المالية لمواجهة النفقات المتعددة للدولة، واتخذ المنصور عدة خطوات لزيادة موارد الدولة، فاستحدث نظام المصادرات للاستيلاء على الأموال لمواجهة أعباء الثورات والحركات التي واجهها، وأعاد النظر فى مقادير الضرائب المفروضة على الكور وفى عهد الرشيد ازدهرت أحوال الدولة الاقتصادية، وارتفع مستوى المعيشة، بسبب تدفق الأموال على خزانة الدولة فى بغداد، وتعدد موارد الدولة المالية، فكان منها الزكاة، والخراج، والجزية، وأخماس المعدن، والرسوم على التجارة الخارجية، وغيرها. وقد أسهمت تلك الموارد فى سدّ النفقات فى مجال النشاط العسكري والأمني، ومجال البناء والتعمير وإنشاء المدن، مثل مدينة بغداد وسامراء.

مدينة بغداد

يرجع الفضل فى بنائها إلى الخليفة أبي جعفر المنصور ودفعه إلى ذلك عدة أسباب، منهاثورة الرواندية سنة ١٤١هـ = ٧٥٨م وما شكّلته من خطر كبير على المنصور نفسه؛ الأمر الذي جعله يفكر جديا فى الانتقال من الهاشمية لأنها لم تكن بالعاصمة الحصينة التي

يأمن فيها على نفسه أن الهاشمية وهى العاصمة المؤقتة للدولة العباسية كانت قريبة من الكوفة مركز التشيع؛ مما يشكل خطرًا على العباسيين رغبة المنصور فى إنشاء عاصمة جديدة تليق بالدولة وتخلد ذكره من بعده وقد جرت عدة محاولات لاختيار المكان المناسب لبناء عاصمة الدولة الجديدة، حتى وقع الاختيار على المكان الذي بنيت فيه مدينة بغداد؛ وروى فيها أن تتمتع بمزايا عديدة أهمها أنها قريبة من خراسان مهد الدعوة العباسية، فضلاً عن قربها من المراكز العربية الأخرى، وبعدها عن مراكز الاحتكاك البيزنطي وأنها تقع بين نهرين كبيرين هما دجلة والفرات، وهما يشكلان خطين للدفاع عن المدينة وأنها تقع وسط العراق وعلى مسافة متساوية بين البصرة والموصل؛ مما يجعلها سوقًا للبضائع والمنتجات،وملتقى للقوافل التجارية البرية والنهرية؛ إذ إنها تقع أيضًا على طريق الشام الخليج العربيهذا بالإضافة إلى طبيعة المكان السهلة والمفتوحة؛ مما يشبع رغبة العرب والمسلمين الذين اعتادوا السكنى فى مثل هذه الأماكن وقد حشد المنصور لبنائها العمال المهرة فى الصناعة والبناء، وابتدأ فى بنائها سنة ١٤٥هـ=٧٦٢ م، وفقًا لأرجح الأقوال وقد تم تصميم المدينة على شكل دائري، يحيط بها سور، ولها أربعة أبواب، وبلغت نفقات بنائها حينئذٍ ثمانية عشر مليون درهم، وأُطلق عليها اسم دار السلام، إلا أن الشائع هو اسمها القديم بغداد.

مدينة سامراء

أسسها الخليفة العباسي المعتصم بالله ٢١٨ – ٢٢٧هـ=٨٤٢-٨٣٣ م وجعلها عاصمة للخلافة، وقد دفعه إلى إنشائها احتكاك الجنود الأتراك الذين جلبهم الخليفة للإقامة معه فى بغداد، بسكان المدينة وجنودها السابقين، مما أدى إلى حدوث إصابات كثيرة بين سكان بغداد ومقتل كثير من النساء والأطفال والشيوخ، فاضطر الخليفة المعتصم بالله إلى البحث عن مكان جديد، ينتقل إليه مع جنوده وحاشيته؛ فوقع الاختيار على أرض سامراء، على بعد ستين ميلاً شمالي بغدادوقد حشد لها المعتصم العمال والبنائين وأهل الصناعات المهرة، وشرع فى بنائها سنة ٢٢١هـ = ٨٣٦م

ثالثًا: الحياة الفكرية

شهد العصر العباسي الأول نهضة فكرية عظيمة، وطفرة ثقافية كبيرة فى شتى مجالات العلم والمعرفة نتيجة امتداد رقعة الدولة العباسية ووفرة ثروتها ورواج تجارتها واهتمام الخلفاء بالحياة الفكرية وقد ميز علماء المسلمين بين نوعين من العلوم

علوم تتصل بالقرآن الكريم، وهى العلوم النقلية أو الشرعية، وتشمل علم التفسير، وعلم القراءات، وعلم الحديث، والفقه، وعلم الكلام، والنحو، واللغة والبيان والأدب

علوم أخذها العرب عن غيرهم من الأمم، وهى العلوم العقلية وتشمل: الفلسفة والهندسة وعلم النجوم والموسيقى والطب والكيمياء والتاريخ والجغرافيا

وقامت المساجد بدور فعَّال فى نشر الثقافة الإسلامية؛ حيث كانت تكتظ بحلقات العلم والدرس، وبخاصة العلوم الشرعية التي ازدهرت فى العصر العباسي، ونشأت فى كنف علمي التفسير والحديث، ولم يكن الحديث مقصورًا على أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإنما ضم أيضًا ما كان مأثورًا عن الصحابة، ومن أشهر رجال الحديث فى ذلك العصر: حماد بن سلمة المتوفى سنة ١٦٥هـ، وسفيان بن عيينة بمكة المتوفى سنة ١٩٨هـ، ووكيع بن الجراح بالكوفة المتوفى سنة ١٩٦هـ، وعبد الله ابن المبارك المتوفى سنة ١٨١هـ، وسفيان الثوري بالكوفة المتوفى سنة ١٦١ه، وعبد الرحمن الأوزاعى بالشام المتوفى سنة ١٥٧هـ، وعبد الملك بن جريج المتوفى سنة ١٥٠هـ، ومعمر بن راشد باليمن ١٥٣هـ، وسعيد بن أبي عروبة بالبصرة المتوفى سنة ١٥٦هـ، ومالك بن أنس بالمدينة

ن أبرز المؤلفات فى هذا المجال: كتاب الموطأ الذي ألفه الإمام مالك بن أنس إمام دار الهجرة المدينة المنورة بناءً على طلب المن فيروى أن الخليفة أبا جعفر المنصور قابل الإمام مالكًا فى موسم الحج، وكلّمه فى مسائل كثيرة من العلم، ثم قال له: يا أبا عبد الله لم يبقَ فى الناس أفقه منى ومنك، وإني قد شغلتني الخلافة فاجمع هذا العلم ودونه ووطئه للناس توطئة، وتجنب فيه شدائد عبد الله بن عمر، ورُخَص عبد الله بن عباس، وشواذ عبد الله بن مسعود، واقصد إلى أواسط الأمور وما اجتمع عليه الأئمة والصحابة رضى الله عنهم. فاعتذر الإمام مالك، فلم يقبل المنصور منه، فوضع مالك كتاب الموطأ. ولم تظهر الطريقة المنظمة فى التفسير إلا فى العصر العباسي الأول؛ حيث كان قبل ذلك غير منظم ويقتصر على تفسير آيات صغيرة غير مرتبة حسب ترتيب السور والآيات باستثناء تفسير ابن عباس

وأهم المفسرين فى العصر العباسي الأول مقاتل بن سليمان الأزدى المتوفى سنة ١٥٠هـ، ومحمد بن إسحاق المتوفى سنة ١٥١هـ، ولم يصل من تفاسير هؤلاء شئ إلينا

وازدهرت دراسة الفقه ازدهارًا عظيمًا وكانت له مدرستان، الأولى مدرسة أهل الرأي والقياس فى العراق ومؤسسها أبو حنيفة النعمان المتوفى سنة ١٥٠هـ، وخلفه أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم المتوفى سنة ١٨٢هـ، ومحمد بن الحسن الشيباني المتوفى سنة ١٨٩هـ، والثانية مدرسة أهل الحجاز ومؤسسها مالك بن أنس وتسمى مدرسة أهل الحديث، ثم جاء الإمام الفقيه محمد بن إدريس الشافعي المتوفى سنة٢٠٤ هـ، وجمع بين هاتين المدرستين، أي جمع بين طريقة الحجازيين فى الاعتماد على الكتاب والسنة و طريقة العراقيين فى الاعتماد على الرأي، ومن العلوم التي ظهرت وتطورت في ذلك العصر: علم الكلام، ويقصد به الجدل الديني في الأمور العقيدية ويسمى المشتغلون به المتكلمين، ومن أشهر فرقهم المعتزلة الذين دخلوا في محاورات ومجادلات مع غيرهم من المرجئة والرافضة والشيعة، والنصارى، واليهود، والمانويين وأهم رجال المعتزلة واصل بن عطاء المتوفى سنة ١٣١هـ، وعمرو بن عبيد المتوفى سنة ١٤٥هـ، وبشر بن المعتمر المتوفى سنة ٢١٠هـ، و ثمامة بن أشدس المتوفى سنة ٢١٣هـ، وأبو الهذيل العلاف المتوفى سنة ٢٢٧هـ

و شهد ذلك العصر نخبة كبيرة من علماء اللغة، منهم: أبو عمرو بن العلاء المتوفى سنة ٥٤هـ، وخلف الأحمر المتوفى سنة ١٨٠هـ، والأصمعي صاحب الأصمعيات المتوفى سنة ٢١٣ هـ، وأبو زيد الأنصاري صاحب كتاب النوادر المتوفى سنة٢١٤ هـ، وأبو عبيدة صاحب نقائض جرير والفرزدق المتوفى سنة ٢١٠هـ، ومحمد بن سلام الجمحي، وحماد الراوية المتوفى سنة ١٥٥هـ، والمفضل الضبي، وأبو عمرو الشيباني المتوفى سنة ٢٠٦هـ، وأبو عبيد القاسم بن سلام المتوفى سنة ٢٢٤هـ

وفي النحو: عيسى بن عمر الثقفي المتوفى سنة ١٤٩هـ، و الخليل الواضع الحقيقي لعلم النحو المتوفى سنة ١٧٠هـ، و سيبويه المتوفى سنة ١٨٠هـ، ومعاذ بن مسلم الهراء المتوفى سنة ١٨٧هـ، والكسائي المتوفى سنة ١٨٩هـ، والفراء المتوفى سنة ٢٠٧هـ، و عنى كثير من اللغويين والنحاة بكتابة سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وأشهرهم محمد بن إسحاق المتوفى سنة ١٥١هـ، وابن هشام المتوفى سنة ٢١٣هـ، ومحمد بن عمر الواقدي المتوفى سنة ٢٠٧هـ، ومحمد بن سعد صاحب الطبقات المتوفى سنة٢٣٠ هـ

كما نشطت كتابة التاريخ فى العصر العباسي الأول، وأشهر من اشتغل بذلك العلم: محمد بن الحسين بن زبالة، وأبو مخنف لوط بن يحيى الأزدى المتوفى سنة ١٥٧هـ، وسيف بن عمر التميمي المتوفى سنة ١٨٠هـ، وهشام بن محمد الكلبى المتوفى سنة ٢٠٤هـ، والمدائنى المتوفى سنة ٢٢٥هـ. كما شهد ذلك العصر نخبة كبيرة من فحول الشعراء على رأسهم بشار بن برد المتوفى سنة ١٦٨هـ، وأبو نواس الحسن ابن هانىء المتوفى سنة ١٩٥هـ، وأبو العتاهية المتوفى سنة ٢١١هـ، ومسلم بن الوليد المتوفى سنة ٢٠٨هـ، وأبو تمام حبيب بن أوس المتوفى سنة ٢٣١هـ، وتطور النثر فى العصر العباسي الأول بعد دخول كثير من الثقافات

ليونانية والفارسية والهندية التي امتزجت به، وأهم فنون النثر فى ذلك الوقت الخطابة والوعظ،و المناظرات، والرسائل الديوانية - العهود والوصايا والتوقيعات– والرسائل الإخوانية والأدبية، ومن أعلام الكتاب فى ذلك العصر

ابن المقفع المتوفى سنة ١٤٣هـــ، وسهل بن هارون المتوفى سنة ٢١٥هـــ، وأحمد بن يوسف المتوفى سنة ٢١٣هـــ، وعمرو بن مسعدة ٢١٧هـــ.

وقد شجع الرشيد العلم والعلماء، وأنشأ بيت الحكمة، وجمع فيه كثيرًا من المؤلفين، والمترجمين والنساخ. ومن أشهرهم: سهل بن هارون، والحسين بن سهل، والفضل بن نوبخت، وكانوا يترجمون من الفارسية إلى العربية. وحنين بن إسحاق، ويوحنا البطريق، ويوحنا بن ماسويه، وكانوا يترجمون من اليونانية والسريانية إلى العربية،

وفى عهد المأمون نشطت حركة الترجمة والنقل من اللغات الأجنبية إلى العربية، فأرسل البعوث إلى القسطنطينية لإحضار المصنفات الفريدة فى الفلسفة والهندسة والموسيقى والطب

وبجانب اهتمام الخلفاء بحركة الترجمة والنقل، اهتم ذوو اليسار الأغنياء بتشجيع العلم والإنفاق على الترجمة إلى اللغة العربية، ومنهم محمد وأحمد والحسن أبناء موسى بن شاكر الذين أنفقوا أموالاً ضخمة فى ترجمة كتب الرياضيات، وكانت لهم آثار قيمة فى الهندسة والموسيقى والنجوم، وقد أرسلوا حنين بن إسحاق إلى بلاد الروم فجاءهم بطرائف الكتب وفرائد المصنفات

وقد اشتغل كثير من المسلمين بدراسة الكتب التي تُرجمت إلى العربية، وتفسيرها والتعليق عليها، وتصحيح أخطائها، ومن هؤلاء: يعقوب بن إسحاق الكندي، الذي ترجم كثيرًا من كتب الفلسفة وشرح غوامضها، ونبغ فى علوم الطب والفلسفة والحساب والمنطق والهندسة وعلم النجوم. ومن العوامل التي ساهمت فى ازدهار الحركة العلمية فى العصر العباسي الأول ظهور الورق واستخدامه فى الكتابة، وقد أنشأ الفضل بن يحي البرمكي مصنعًا للورق فى عهد الرشيد ببغداد، فانتشرت الكتابة فيه لخفته بعد أن كانوا يكتبون على الجلود والقراطيس المصنوعة بمصر من ورق البردي.

العصر العباسي الثانـي٦٥٦ - ٢٣٢ هـ = ١٢٥٨ ٨٤٧ - م

يمتد العصر العباسي الثاني أكثر من أربعة قرون، وقد قسم المؤرخون هذه الفترة إلى أربعة عصور رئيسية هي:

أولا– عصر نفوذ الأتراك

ثانيا– عصر البويهيين

ثالثا– عصر السلاجقة

رابعا– عصر ما بعد السلاجقة

أولاً: عصر نفوذ الأتراك ٢٣٢ - ٣٣٤هـ٩٤٥ - ٨٤٧ = م

كان المأمون أول من استخدم الأتراك وقربهم، ولكنهم كانوا محدودي العدد والنفوذ في عهده، فلما تولى الخليفة المعتصم الحكم جعلهم عنصرًا أساسيا في جيشه، وبلغ عددهم بضعة عشر ألفًا، وكانوا تحت سيطرة الخليفة. وبدأ نفوذ الأتراك يتزايد في عهد الواثق، ثم ازداد حدة واتساعًا في عهد الخليفة المتوكلويمتد عصر نفوذ الأتراك إلى ما يزيد قليلاً على قرن من الزمان، تعاقب خلاله على كرسي الخلافة ثلاثة عشر خليفة هم

المتوكل على الله جعفر بن المعتصم ٢٤٧ – ٢٣٢ هـ = ٨٤٧ – ٨٦١م

المنتصر بالله محمد بن المتوكل ٢٤٧ – ٢٤٨ هـ = ٨٦١– ٨٦٢م

المستعين بالله أحمد بن المعتصم ٢٥٢ – ٢٤٨ هـ = ٨٦٢– ٨٦٦م.

المعتز بالله محمد أبو عبد الله بن المتوكل ٢٥٢ – ٢٥٥ هـ = ٨٦٦ – ٨٦٩م.

المهتدى بالله محمد بن الواثق بن المعتصم ٢٥٥ – ٢٥٦ هـ = ٨٧٠٨٦٩ – م.

المعتمد على الله أحمد بن المتوكل بن المعتصم ٢٥٦ – ٢٧٩ هـ = ٨٩٢٨٧٠ – م.

المعتضد بالله أحمد بن الموفق طلحة بن المتوكل ٢٧٩ – ٢٨٩ هـ = ٩٠٢٨٩٢ – م.

المكتفي بالله أبو محمد على بن المعتضد ٢٨٩ – ٢٩٥ هـ = ٩٠٨٩٠٢ – م.

المقتدر بالله أبو الفضل جعفر بن محمد ٢٩٥ – ٣٢٠ هـ = ٩٣٢٩٠٨ – م.

القاهر بالله أبو منصور محمد بن المعتضد ٣٢٠ – ٣٢٢ هـ = ٩٣٤٩٣٢ – م.

الراضي بالله أبو العباس محمد بن المقتدر بن المعتضد ٣٢٢ – ٣٢٩ هـ٩٤١-٩٣٤ = م.

المتقى لله أبو إسحاق إبراهيم بن المقتدر ٣٢٩ – ٣٣٣ هـ = ٩٤٥٩٤١ – م.

المستكفي بالله أبو القاسم عبد الله بن المكتفي ٣٣٣- ٣٣٤ هـ = ٩٤٦٩٤٥ – م.

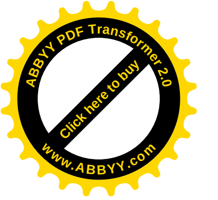
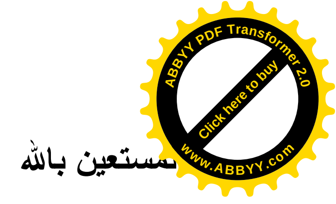
المتوكل على الله

وقد تولى الخلافة في ذي الحجة سنة ٢٣١ هـ = ٨٤٧م، وكان عهده بداية حقبة الضعف والتدهور، وتفكك بنيان الخلافة العباسية

ورغم أن المتوكل: كان قوى الشخصية، وافر الهيبة فإنه لم يستطع أن يضع حدا لاستفحال النفوذ التركى في عهده، الذي كان له دور في توليته الخلافة بعد أن كادت البيعة تتم لمحمد بن الواثق، وكان غلامًا وقد نجح المتوكل في البداية في التخلص من أخطر العناصر التركية في عهده، وهو إيتاخ الذي استفحل خطره حتى إنه هـمَّ يومًا بقتل الخليفة المتوكل حين تبسَّط معه في المزاح، لكن الخليفة نجح في التخلص منه سنة ٢٣٥هـ = ٨٤٩ م، كما عزم على التخلص من قادة الأتراك ووجوههم، مثل وصيف وبُغا، إلا أنهم استغلوا ما بينه وبين ابنه وولى عهده محمد المنتصر من خلاف وجفوة ودبروا مؤامرة انتهت بقتل المتوكل ووزيره الفتح بن خاقان في الخامس من شوال سنة ٢٤٧هـ = ٨٦١م، وبايعوا ابنه المنتصر خليفة وقد استطاع المتوكل في عهده أن يظفر بمكانة عظيمة في قلوب جماهير المسلمين، حين منع النقاش في القضايا الجدلية التي أثارها المعتزلة، مثل قضية خلق القرآن، كما رد للإمام أحمد بن حنبل اعتباره وجعله من المقربين إليه، بعد أن اضطُهد في عهد المأمون والمعتصم والواثق؛ لعدم إقراره القول بخلق القرآن، كما أمر المتوكل الفقهاء والمحدِّثين أن يجلسوا للناس ويحدثوهم بالأحاديث التي فيها رد على المعتزلة فأثنى الناس عليه، حتى قالوا: الخلفاء ثلاثة: أبو بكر الصديق قاتل أهل الردة حتى استجابوا له، وعمر بن عبد العزيز رد مظالم بنى أمية، والمتوكل محا البدع وأظهر السنة .

المنتصر بالله

تولى الخلافة في اليوم الذي قُتل فيه أبوه، وذلك في شوال سنة ٢٤٧هـ = ديسمبر سنة ٨٦١م، و عمره ستة وعشرون عامًا.
وحاول التصدي للنفوذ التركي بكل حزم، وصار يسب الأتراك ويقول:هـؤلاء قتلة الخلفاء ورغم أن المنتصر بالله كان وافر العقل قوى الشخصية فإن الأتراك احتالوا على قتله، فأعطوا طبيبه ابن طيفور ثلاثين ألف دينار، ففصده بمبضع مسموم فمات، في ربيع الآخر سنة ٢٤٨هـ = يونيو سنة ٨٦٢م بعد حكم دام ستة أشهر فقط، ويروى أنه حينما احتضر، قال لأمه : يا أماه ذهبت منى الدنيا والآخرة، عاجلت أبي فعوجلت ومن مآثر المنتصر بالله، خلال فترة حكمه القصيرة، إحسانه إلى العلويين، وإزالته عنهم ما كانوا فيه من خوف وضيق في عهد أبيه المتوكل.

المستعين بالله

هو أحمد بن المعتصم، تولى الخلافة في السادس من ربيع الآخر سنة ٢٤٨هـ = يونيو سنة ٨٦٢م، وعمره ثمان وعشرون سنة، فعقب وفاة المنتصر اجتمع الأتراك بزعامة بُغا الصغير وبُغا الكبير، وقرروا عدم تولية أحد من أولاد المتوكل الخلافة، خوفًا من انتقامه منهم، وبايعوا أحمد بن المعتصم، الملقَّب بالمستعين بالله، و كان من الطبيعي ألا يكون للمستعين بالله مع الأتراك أمر ولا نهى، ولم يمضِ وقت طويل حتى غضب عليه الأتراك وقرروا خلعه ومبايعة المعتز بالله محمد بن المتوكل؛ فاشتعلت الحرب بين أنصار المستعين وأنصار المعتز، وانتهت بالقبض على المستعين وقتله في سجنه في شوال سنة ٢٥١ هـ = ديسمبر سنة ٨٦٦م و قد شهدت خلافة المستعين بالله قيام الدولة العلوية بطبرستان سنة ٢٥٠هـ = ٨٦٤م، على يد الحسن بن زيد العلوى الملقب بالداعى الكبير، واستمرت هذه الدولة حتى سنة ٣١٦هـ = ٩٢٨م

المعتز بالله محمد بن المتوكل

بويع له بالخلافة في شوال سنة ٢٥١ هـ = ديسمبر سنة٨٦٦ م، وعمره تسعة عشر عامًا، وقد استضعفه الأتراك وطلبوا منه مالاً فاعتذر لهم بفراغ بيت المال، فثاروا عليه وضربوه ومزقوا ملابسه، وأقاموه في الشمس، فكان يرفع رجلاً ويضع أخرى من شدة الحر، ثم سجنوه وعذبوه حتى مات في شعبان سنة ٢٥٥هـ = يوليو سنة ٨٦٩م و كان من أهم الأحداث التي شهدتها خلافة المعتز قيام الدولة الصفَّارية في فارس بزعامة يعقوب بن الليث الصفَّار وذهاب أحمد بن طولون إلى مصر سنة ٢٥٤هـ = ٨٦٨م نائبًا عن واليها، لكنه استطاع في فترة لاحقة أن يستقل بها عن العباسيين، وأن يضم إليها الشام مكونًا بذلك الدولة الطولونية في مصر والشام

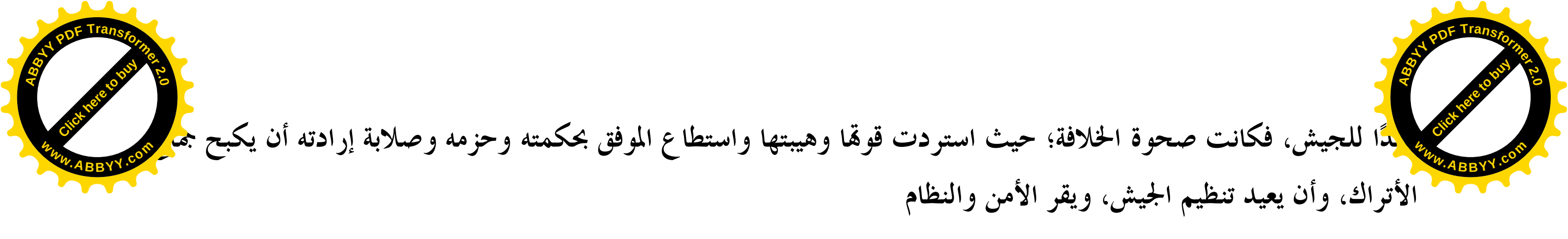
المهتدى بالله محمد بن الواثق

بايع الأتراك المهتدى بالله خليفة للمسلمين فيرجب سنة٢٥٥ هـ = يونيو سنة ٨٦٩م، عقب الإطاحة بالمعتز، وقد كان المهتدى تقيا شجاعًا حازمًا، وكان يتخذ عمر بن عبد العزيز مثله الأعلى، ويقول: إنـي أستحيي أن يكون في بنى أمية مثله، ولا يكون مثله في بنى العباس، ولذلك نبذ الملاهي وحرَّم الغناء والخمور وحارب الظلمحاول المهتدى بالله أن يوقف طغيان الأتراك واستبدادهم فقتل بعضهم، فثاروا عليه وأسروه وعذبوه ليخلع نفسه فرفض، فقاموا بخلعه وسجنه وتعذيبه حتى مات في رجب سنة ٢٥٦هـ = يونيو ٨٧٠م. وقد كان من أهم الأحداث التي شهدها عصر المهتدى بالله

ثورة الزَّنج :وسُميت بذلك لأن أعدادًا كبيرة من الذين شاركوا فيها كانوا عبيدًا سودًا، واندلعت هذه الثورة في البصرة بزعامة على بن محمد، الذي قيل إنه ينتسب إلى آل البيت، وحققت مكاسب سياسية ومادية؛ فاستولت في مدة قصيرة على بعض المدن المهمة في العراق، مثل البصرة وواسط والأهواز، ووصلت إلى البحرين وهجر، وارتكبت مذابح بشعة ضد السكان الآمنين، وقد استطاع القائد العباسي الموفق طلحة بن المتوكل القضاء على هذه الثورة –فيما بعد -سنة ٢٧٠هـ = ٨٨٣م في خلافة أخيه المعتمد على الله

المعتمد على الله، وصحوة الخلافة

تولى المعتمد على الله أحمد بن المتوكل الخلافة بعد خلع المهتدى سنة ٢٥٦هـ = ٨٧٠م، وقد أتاحت الظروف التي تولى فيها المعتمد مقاليد الحكم ظهور ما عُرف باسم صحوة الخلافة في العصر العباسي الثاني فقد تصاعد النزاع الداخلي بين القادة الأتراك، وساءت معاملتهم لجنودهم، كما ازدادت شكوى الجمهور من مضايقاتهم، مما أدى إلى ظهور اتجاه قوى داخل الجيش بحتمية جعل القيادة العسكرية العليا في يد أحد أمراء البيت العباسي؛ يقوم الخليفة باختياره، ويدين له الجميع بالطاعة، وقد اختار المعتمد أخاه الموفق



دًا للجيش، فكانت صحوة الخلافة؛ حيث استردت قوتها وهيبتها واستطاع الموفق بحكمته وحزمه وصلابة إرادته أن يكبح جما الأتراك، وأن يعيد تنظيم الجيش، ويقر الأمن والنظام

و رغم أن المعتمد بالله كان الخليفة الرسمي فإن أخاه الموفق كان صاحب السلطة الفعلية، فكان له الأمر والنهى، وقيادة الجيش ومحاربة الأعداء، ومرابطة الثغور، وتعيين الوزراء والأمراء، وكان قضاء الموفق على ثورة الزنج سنة ٢٧٠هـ = ٨٨٣م أعظم إنجاز له و قد تُوفي الموفق في صفر سنة ٢٧٨هـ = مايو سنة ٨٩١م، وفي العام التالي تُوفي الخليفة المعتمد في رجب سنة ٢٧٩هـ = سبتمبر سنة ٨٩٢م، بعد أن حكم البلاد ثلاثة وعشرين عامًا. وقد حفل عهده بالعلماء الأعلام في مجالات المعرفة المختلفة.

المعتضد بالله أبو العباس أحمد بن الموفق

تولى الخلافة بعد وفاة عمه المعتمد، وكان قوى الشخصية؛ فحفظ هيبة الخلافة، كما كانت في عهد أبيه الموفق وعمه المعتمد، يقول السيوطى: كان المعتضد شهمًا جلدًا، موصوفًا بالرُّجلة أى الشجاعة، وقد خاض الحروب وعُرف فضله، فقام بالأمر أحسن قيام، وهابه الناس ورهبوه أحسن رهبة، وسكنت الفتن في أيامه لفرط هيبته، وكانت أيامه طيبة كثيرة الأمن والرخاء و قد تمكن المعتضد خلال حكمه الذي دام عشر سنوات من تهيئة المزيد من القوة والاستقرار للدولة العباسية، فقضى على مصادر الفتن والثورات، وأخمد ثورة بنى شيبان بأرض الجزيرة سنة ٢٨٠هـ = ٨٩٣م، و ثورة حمدان بن حمدون – رأس الأسرة الحمدانية – بالموصل، واستولى على قلعة ماردين التي كان يتحصن بها سنة ٢٨١ هـ = ٨٩٤م، كما قضى على ثورة الخوارج في الموصل بزعامة هارون بن عبد الله الشارى الذي وقع في الأسر، وأمر المعتضد بضرب عنقه سنة ٢٨١ هـ =٨٩٦م، ومن أخطر الحركات التي شهدها عصر المعتضد.

حركة القرامطة

و ترجع بداية هذه الحركة إلى عام ٢٧٨هـ = ٨٩١م قبل تولِّى المعتضد الخلافة بعام، حين قدم إلى الكوفة رجل اسمه حمدان ولقبه قَرْمَط، تظاهر بالعبادة والتقشف والدعوة إلى إمام من آل البيت، فلقيت دعوته صدى كبيرًا عند أنصار آل البيت، وحين خمدت سيطرته الروحية عليهم أخذ يبث فيهم أفكارًا غريبة عن الإسلام، منها: الشهادة بأن أحمد بن محمد بن الحنفية رسول الله، وأن القبلة إلى بيت المقدس، وأن النبيذ حرام والخمر حلال، وغير ذلك من الأفكار الشاذة و قد اشتد خطر هذه الحركة بعد ظهور زعيمها أبي سعيد الجنَّابي في البحرين سنة ٢٨٦هـ = ٨٩٩م؛ حيث استطاع بسط سلطانه على البحرين وهجر، وكسب أنصارٍ كثيرين له في المناطق التي ينتشر فيها التشيع. وقد تحولت البحرين إلى مركز رئيسى للقرامطة، خرجت منه حملاتهم الحربية في اتجاه العراق و الحجاز والشام؛ لنشر أفكارهم الهدامة التي تهدف إلى هدم كيان المجتمع الإسلامي، وبسط نفوذهم بواسطة خداع العامة بمبادئ وشعارات براقة، كالعدالة والمساواة والبساطة، ومساعدة الآخرين، ولم تدرك الخلافة العباسية مدى الخطورة التي تنطوى عليها هذه الحركة، ووجهت جهودها الحربية إلى حركات أخرى تبدو أكثر منها خطورة، مثل الحركة الصفارية و الطولونية وغيرهما، ومن هنا لم تظفر هذه الحركة من الخليفة المعتضد – الذي عاصر بدايتها الأولى – بما تستحقه من اهتمام.

انتقال عاصمة الخلافة إلى بغداد

ظلت مدينة سامراء أو سر من رأى عاصمة الخلافة العباسية منذ حوالى سنة ٢٢١ هـ = ٨٣٦م – في خلافة المعتصم بالله – إلى أوائل خلافة المعتضد الذي بنى القصر الحسنى ببغداد، وقرر انتقال عاصمة الخلافة إليها سنة ٢٨٠هـ=٨٩٣ م

وفاة المعتضد

وفي المعتضد في ربيع الآخر سنة ٢٨٩هـ = ٩٠٢م، وكان عصره يموج بالحركة العلمية والدينية والأدبية، فقد عاش في عصره عدد من العلماء والأدباء البارزين.

المكتفي بالله علي بن المعتضد

تولى الخلافة في ربيع الآخر سنة ٢٨٩هـ = مارس سنة ٩٠٢م عقب وفاة أبيه، وعمره خمس وعشرون سنة، ورغم أنه كان حسن السيرة محبوبًا لدى الرعية فإنه لم يكن يتمتع بما كان يتمتع به أبوه المعتضد، من قوة الشخصية والحزم، فكانت خلافته تمهيدًا لعودة الأمور إلى أوضاعها السابقة، وفترة انتقالية بين صحوة الخلافة وانتكاستها و قد شهد عهد المكتفي أحداثًا كثيرة، منها: ازدياد خطر القرامطة وتهديدهم للشام والحجاز واليمن، وقد جرت على يد زعيمهم زكرويه بن مهرويه مذابح بشعة ضد حجاج بيت الله الحرام وعامة الناس، ونشروا الفزع في أنحاء العالم الإسلامي، واستطاع زكرويه أن يهزم جيشًا للخليفة المكتفي، وأن يقتل منه عددًا كبيرًا، فأعد له المكتفي جيشًا حشد فيه أكفأ القواد، نجح في قتل زكرويه وكثيرًا من أتباعه عام ٢٩٤هـ = ٩٠٧م، وتتبعهم في العراق، ولكنه لم يستطع القضاء عليهم تمامًا، فظلوا من بعده مصدر خطر مؤكد على كيان الخلافة و مما شهده عصر المكتفي أيضًا من أحداث: تولية المكتفي أبي الهيجاء عبد الله بن حمدان التغلبي ولاية الموصل والبلاد التابعة لها سنة ٢٩١ هـ =٩٠٦م، وكان ذلك مقدمة لاستقلال الحمدانيين بالموصل –فيما بعد– وضمهم حلب إليها، ونشأة الأسرة الحمدانية.

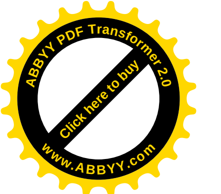
وفاة المكتفي

تُوفي المكتفي وفاة طبيعية في ذى القعدة سنة ٢٩٥هـ = أغسطس سنة ٩٠٨م، وترك خزانة الدولة ممتلئة بالأموال، وقد أرجع المؤرخون ذلك إلى الجهد الذي بذله أبوه المعتضد في جلب أسباب الاستقرار الاقتصادي إلى الدولة، وحسن سيرة المكتفي بالله

المقتدر بالله جعفر بن المعتضد

تولى الخلافة بعد أخيه المكتفي بعهد منه في ذى القعدة سنة ٢٩٥هـ = أغسطس سنة ٩٠٨م، وكان صبيا في الثالثة عشرة من عمره، ولم يلِ الخلافة قبله أصغر منه. أثار تولى المقتدر الخلافة اعتراض كثير من رجال الدولة بسبب صغر سنه، وعدم قدرته على الاضطلاع بشئون الخلافة مع وجود الأقدر منه على تحمل المسئولية، خاصة عبد الله بن المعتز الشاعر المعروف بتمام العقل وجودة الرأي، فاتفق رأى عدد منهم على خلع المقتدر و تولية عبد الله بن المعتز، وكان عمره نحو تسعة وأربعين عامًا، وعندما عرضوا الأمر على ابن المعتز وافق بشرط ألا يسفك دم أو تنشب حرب، فأخبروه أن الأمر يُسلَّم إليه عفوًا، وأن جميع من وراءهم من الجند والقواد والكُتَّاب قد رضوا به فبايعهم على ذلك، وتمت البيعة لابن المعتز في ١٩من ربيع الأول سنة ٢٩٦هـ = نوفمبر سنة ٩٠٨م، ولقب بالراضي بالله، ولكن أنصار المقتدر – وعلى رأسهم مؤنس الخادم – لم يرضوا بهذه البيعة، وتوجهوا نحو ابن المعتز وأنصاره وقبضوا عليهم وفتكوا بهم وأعادوا تنصيب المقتدر في اليوم التالي لبيعة ابن المعتز، الذي لم يمكث في الخلافة إلا يومًا أو بعض يوم، ولهذا يتجاهله المؤرخون عند ذكرهم قائمة خلفاء بنى العباس

و قد تدهورت الأوضاع في عهد المقتدر، وانتشرت الفتن وازداد تمزق الدولة، وأصبحت الخلافة نَهبًا للطامعين بسبب صغر سنه، وأفلت زمام الأمور من يده، و تحكم النساء والخدم في شئون البلاد، فكانت أم المقتدر وتسمى شغب تولّي من تشاء وتعزل من تشاء، كما كان مؤنس الخادم صاحب مكانة متميزة وخطيرة في عهد المقتدرو قد ازداد خطر القرامطة اتساعًا وعنفًا في عهد المقتدر، ووصل مداه سنة ٣١٧هـ = ٩٢٩م، حينما دخلوا مكة بقيادة أبي طاهر القرمطى وقتلوا الحجاج في المسجد الحرام، واستولوا على الحجر الأسود وأخذوه إلى مركزهم الرئيسى هَجَر حتى تم رده إلى مكانه في عهد المطيع سنة ٣٣٩هـ = ٩٥٠م.




و من أهم الأحداث في عهد المقتدر بداية ظهور العُبيديين أو الفاطميين في شمالى إفريقيا ويرجع الفضل في قيام الدولة الفاطمية إلى أبي عبد الله الحسين بن أحمد، المعروف بأبي عبد الله الشيعى، أحد دعاة الفاطميين البارزين في المغرب وكان يعرف أحيانًا باسم المحتسب؛ لأنه كان مراقبًا لأسواق البصرة بالعراق قبل انتقاله إلى المغرب. وقد تمكن أبو عبد الله الشيعي من القضاء على دولة الأغالبة في المغرب، والاستيلاء على عاصمتهم رقادة سنة ٢٩٦هـ = ٩٠٩م، وتم تنصيب أول إمام من أئمة الفاطميين وهو عبيد الله المهدى – وكنيته أبو محمد– الذي قيل إنه من سلالة الإمام الحسين بن على بن أبي طالب و قد تلقب عبيد الله المهدى بأمير المؤمنين، وبنى مدينة المهدية عاصمةً له، وانتقل إليها من رقادة سنة ٣٠٨هـ = ٩٢٠م، وقد نجح الفاطميون في الاستيلاء على مصر سنة ٣٥٨هـ = ٩٦٩م، في عهد الخليفة الفاطمى المعز لدين الله.

قيام دولة بنى حمدان

و من الأحداث المهمة التي شهدها عهد المقتدر – أيضًا - قيام دولة بنى حمدان في الموصل، فقد استمر أبو الهيجاء عبد الله بن حمدان يحكم الموصل والبلاد التابعة لها من قِبل الخليفة المكتفي حتى وفاته سنة ٣١٧هـ = ٩٢٩م، فورثه ابنه حسن الملقب ناصر الدولة على ولاية الموصل، واستطاع أن يمد سلطانه إلى ديار ربيعة ومضر بأرض الجزيرة، وقد اتسع نفوذ الحمدانيين وملكهم بعد وفاة الخليفة المقتدر، ونجحوا في بسط سلطانهم على حلب وشمال الشام سنة ٣٣١ هـ = ٩٤٥م بقيادة زعيمهم المعروف سيف الدولة الحمدانى، الذي قال فيه المتنبى أروع قصائد المديح و قد أسهم أمراء بنى حمدان وفي مقدمتهم سيف الدولة الحمدانى في صد غارات الروم البيزنطيين عن مناطق الثغور الإسلامية، وفي رعاية الحركة العلمية والأدبية التي بلغت في عهدهم مركزًا مرموقًا.

وفاة المقتدر بالله

ساءت العلاقة بين المقتدر بالله وخادمه مؤنس الخادم؛ مما أدى إلى مقتله على يد أنصار مؤنس في أواخر شوال سنة ٣٢٠هـ = ٩٣٢م، بعد أن ظل في الحكم خمسًا وعشرين سنة، هي أطول مدة يقضيها خليفة عباسي في الحكم حتى عصره و رغم تدهور أحوال البلاد السياسية في عهد المقتدر فإن الحياة العلمية قد شهدت ازدهارًا ملحوظًا في هذا العصر. وبمقتل المقتدر دخل عصر نفوذ الأتراك مراحله الأخيرة.

القاهر بالله أبو منصور محمد بن المعتضد

تولى الخلافة في شوال سنة ٣٢٠هـ = ٩٣٢م، عقب مقتل المقتدر، وعمره ثلاث وثلاثون سنة وقد اتصف القاهر بالغلظة وقلة التثبت، ورغم أنه نجح في التخلص من مؤنس الخادم، صاحب النفوذ الأكبر في عهد المقتدر، ومن غيره من أعيان الدولة فإن سوء سياسته كان سببًا في تدبير الانقلاب عليه والإطاحة به و قد لعب الوزير المشهور أبو على بن مقلة الدور الأساسي في خلع القاهر والتنكيل به، لخوفه منه واعتقاده أنه كان يدبر للقضاء عليه، فهاجم أعوانه الخليفة القاهر في دار الخلافة وقبضوا عليه وسملوا عينيه وعذبوه وأعلنوا خلعه في الثالث من جمادى الأولى سنة ٣٢١ هـ = ٩٣٤م و لعل من أبرز التطورات السياسية التي شهدها عهد القاهر –رغم قصره– ظهور النفوذ البويهى في بلاد فارس سنة ٣٢١ هـ = ٩٣٣م، وكان ذلك مقدمة لامتداد نفوذهم إلى العراق وسيطرهم على مقاليد الأمور هناك في سنة ٣٣٤هـ٩٤٥ = م، لتبدأ مرحلة جديدة في تاريخ الخلافة العباسية في عصرها الثاني، كما سنبين بعد قليل.

الراضي بالله أبو العباس محمد بن المقتدر

ABBYY PDF Transformer 2.0 Click here to buy www.ABBYY.com

بايع الجند الراضي بالله في السادس من جمادى الأولى سنة ٣٢١ هـــ وعمره خمسة وعشرون عامًا، وقد كان من خيار الخلفاء، فا سمحًا جوادًا،شاعرًا محبا للعلماء ورغم ما كان يتحلى به الراضي من صفات حميدة فإن أمر الخلافة قد اختل في عهده اختلالاً خطيرًا، وازداد تمزق الدولة واستفحل نفوذ المتطلعين للسيطرة على زمام الأمور؛ فقد ازداد نفوذ البويهيين في فارس وتطلعوا للاستيلاء على العراق، وتمتع بنو حمدان بنفوذ مطلق في الموصل وديار بكر وربيعة ومضر، واستقلت الدولة الإخشيدية في مصر والشام عن الخلافة العباسية، وكذلك الدولة السامانية في خراسان وما وراء النهر بزعامة نصر بن أحمد الساماني، وأصبح للأمويين خلافة مستقلة في الأندلس تحت حكم عبد الرحمن الثالث الأموى الملقب بالناصر ٣٥٠٣٠٠ - هـــ = ٩١٣ – ٩٦١م، وسيطر القرامطة بزعامة أبي طاهر القرمطى على البحرين واليمامة.

ظهور منصب أمير الأمراء

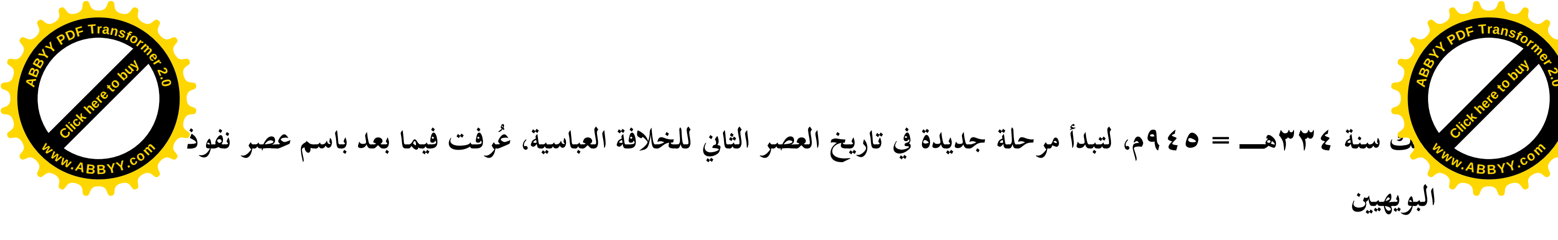
و تدهورت الأوضاع في أوائل عهد الراضي تدهورًا كبيرًا، بسبب عجز الوزراء وازدياد نفوذ كبار القواد وتدخلهم في شؤون الدولة، وكان محمد بن رائق والى واسط والبصرة واحدًا من أبرز هؤلاء القواد وأكثرهم نفوذًا وتأثيرًا، فاختاره الخليفة الراضي ليقوم بمهمة إنقاذ الخلافة من التدهور الإداري الحاد الذي تعانى منه، وأسند إليه منصب أمير الأمراء في عام ٣٢٤هـــ = ٩٣٦م و قد أصبح محمد بن رائق بمقتضى هذا المنصب الخطير الذي لم يظهر قبل ذلك على مسرح الأحداث السياسية في الدولة الإسلامية، القائد الأعلى للجيش، والمسئول عن إدارة شئون الدولة والخراج، وأصدر الخليفة الراضي أمرًا بأن يُخطَب لابن رائق على جميع المنابر في جميع النواحي الخاضعة للخلافة، وبذلك تحولت الخلافة إلى منصب شرفي، وأصبح شاغل منصب أمير الأمراء هو الحاكم الفعلي للبلاد؛ مما جعل كبار رجال الدولة أمثال أبي عبد الله البريدي صاحب الأهواز، وبَجْكم التركي، وناصر الدولة بن حمدان صاحب الموصل، وتوزون التركي رئيس الشرطة وغيرهم، يتصارعون للوصول إليه، حتى جاء البويهيون فسيطروا على زمام الأمور ووضعوا حدا لهذا الصراع و قد تُوفي الخليفة الراضي بالله وفاة طبيعية في منتصف ربيع الأول سنة ٣٢٩هـــ = ديسمبر سنة ٩٤٠م، بعد أن فقد السيطرة على مقاليد الأمور بصورة تكاد تكون كاملة.

المتقى لله أبو إسحاق إبراهيم بن المقتدر

تولى الخلافة في ربيع الأول سنة ٣٢٩هـــ = ديسمبر سنة٩٤٠ م بتدبير أمير الأمراء بَجْكم التركى وكاتبه أبي عبد الله الكوفي، وكان عمره حينئذٍ أربعًا وثلاثين سنة و قد كانت خلافة المتقى القصيرة ٣٢٩ – ٣٣١ هـــ = ٩٤٤٩٤٠ -م سلسلة من الصراع بين كبار رجال الدولة على منصب أمير الأمراء، مما أضاف مزيدًا من الاضطراب والفوضى إلى الأوضاع الداخلية، وفقد المتقى سيطرته على زمام الأمور، فقام أمير الأمراء توزون التركى بسمل عينيه وخلعه، وبذلك انتهت خلافته في صفر سنة ٣٣١ هـــ =سبتمبر سنة ٩٤٤م

المستكفي بالله وانتهاء عصر نفوذ الأتراك

تمت بيعته بالخلافة في صفر سنة ٣٣١ هـــ = سبتمبر سنة ٩٤٤ بحضور أمير الأمراء توزون التركى وإشرافه، وعمره واحد وأربعون عامًا ولم يكن له أدنى سلطة في إدارة شئون البلاد، بل استمر زمام الأمور في يد أمير الأمراء أبي الوفاء توزون التركى، وكاتبه أبي جعفر بن شيرزاد، وكان من أبرز الأحداث التي شهدها خلافة المستكفي بالله امتداد سلطان الحمدانيين بقيادة سيف الدولة الحمدانى على حلب وحمص اللتين كانتا تحت سيطرة الإخشيديين و تدهورت الأحوال الداخلية في عهد المستكفي بشكل غير مسبوق؛ مما أدى إلى تطلع البويهيين –أصحاب النفوذ في بلاد فارس– منذ سنة ٣٢١ هـــ٩٣٣ = م إلى بسط سلطانهم على العراق، وقد نجحوا في



ت سنة ٣٣٤هـ = ٩٤٥م، لتبدأ مرحلة جديدة في تاريخ العصر الثاني للخلافة العباسية، عُرفت فيما بعد باسم عصر نفوذ البويهيين

الدول التي استقلت عن الخلافة العباسية في عصر نفوذ الأتراك

لم ينحصر ظهور الحركات الاستقلالية في عصر نفوذ الأتراك، بل ظهرت هذه الحركات منذ فجر الخلافة العباسية، فاستقل عبد الرحمن الداخل بالأندلس سنة ١٣٨هـ = ٧٥٥م في عهد أبي جعفر المنصور، وقامت دولة الأدارسة في المغرب الأقصى على يد إدريس بن عبد الله، ودولة الأغالبة على يد إبراهيم بن الأغلب في تونس، في عهد هارون الرشيد

و في خلافة المأمون تأسست الدولة الطاهرية في خراسان على يد طاهر بن الحسين قائد المأمون المشهور، وكانت دولتا الأغالبة، والطاهرية تدينان بالولاء الأسمى للخليفة العباسي، وقد مرت إشارات سريعة إلى الدول التي استقلت عن الخلافة في عصر نفوذ الأتراك وهي : الدولة الصفَّارية، والسامانية والطولونية والإخشيدية والحمدانية ودولة القرامطة، والدولة الفاطمية، والبويهية

وفيما يلي نبذة مختصرة عن أهم هذه الدول

الدولة الصفارية ٢٥٤- ٢٨٩هـ = ٢٨٦٨-٩٠٢ م:

أسسها يعقوب بن الليث الصفَّار في بلاد فارس وخراسان على أنقاض الدولة الطاهرية، في عهد المعتز بالله ٢٥٢–٢٥٥هـ بعد أن أظهر كفاءة ملحوظة في محاربة الخارجين على الخلافة والتخلص من الطاهريين بإذن من الخليفة العباسي المعتز بالله و استطاع يعقوب بن الليث أن يضم إلى الدولة الصفارية كثيرًا من الأماكن التي استطاع السيطرة عليها في بلاد فارس وخراسان وأعلن ولاء دولته – في البداية– للخلافة العباسية و عندما تولى المعتمد على الله الخلافة، أصر أخوه الموفق على أن يكون ولاء الدولة الصفارية للخلافة ولاءً تاما لا صوريا، إلا أن يعقوب بن الليث رفض ذلك، وتدهورت العلاقة بين الطرفين، وهدد يعقوب بدخول عاصمة الخلافة وبسط سلطانه عليها، مما أدى إلى حدوث صدام مسلح بين الدولة الصفارية، والخلافة في منطقة واسط بالعراق، وكان لظهور الخليفة العباسي المعتمد على رأس جيش الخلافة أثر كبير في هزيمة يعقوب بن الليث، ورغم هزيمته فقد استمر في تحدى الخلافة ورفض التفاهم معها حتى تُوفي في جنديسابور سنة ٢٦٥هـ = ٨٧٩م ثم تولى رئاسة الدولة الصفارية بعد وفاة يعقوب بن الليث أخوه عمرو بن الليث، الذي كان حريصًا على كسب ود الخلافة حتى يؤكد سلطانه الروحي في بلاده، فاعترف به الخليفة المعتمد واليًا على خراسان والسِّند وسجستان وكرمان وفارس وأصبهان، وعندما تولى المعتضد الخلافة بعد وفاة عمه المعتمد أقر عَمْرًا على ما في يده و قد نشط عمرو في توسيع حدود دولته وتطلع إلى غزو بلاد ما وراء النهر، حيث الدولة السامانية، وعبر نهر جيحون ولكن السامانيين تصدوا له بقيادة زعيمهم إسماعيل بن أحمد الساماني وهزموه، وأخذوه أسيرًا إلى الخليفة المعتضد الذي سجنه حتى مات في سجنه سنة ٢٨٧هـ = ٩٠٠م، وقد تولى زعامة الصفاريين بعد هزيمة عمرو وأسره حفيده طاهر بن محمد بن عمرو، ولكن أحوال الصفاريين تدهورت بشدة خلال هذه الفترة نتيجة الهجمات المتلاحقة التي شنها عليهم السامانيون، وسقطت دولتهم سنة٢٨٩ هـ = ٩٠٢م

وقد لاحظ المؤرخون أن قادة هذه الدولة اتبعوا في حياتهم مبدأ العدالة والمساواة والأخوة، والبعد عن مظاهر الترف، فكانت حياة رئيس الدولة لا تكاد تختلف في مظهرها عن حياة أحد جنوده، وكان العطاء يوزع بالإنصاف والعدل، وقد ازدهر اقتصاد الدولة نتيجة البعد عن إنفاق الأموال في غير وجوهها، فيروى أن يعقوب ابن الليث ترك في خزانة الدولة عند وفاته ثمانين مليون دينار

وخمسين مليون درهم، ولكن يؤخذ عليه اعتداده بقوته وطاعة جنده فتمرد على الخلافة وحاول الاستقلال عنها؛ مما زعزع ثقتها به وكان له آثاره السلبية في تماسك الدولة واستمرارها.

الدولة السامانية ٢٦١ ـ ٣٨٩هـ = ٩٩٩٨٧٥ ـ م

ظهر السامانيون على المسرح السياسى لدولة الخلافة العباسية في عصر الخليفة المأمون ١٩٨ – ٢١٨هـــ = ٨١٣ – ٨٣٣م، وسموا بذلك نسبة إلى قرية سامان القريبة من سمرقند؛ حيث كانوا يتوارثون إمارتها، ويسمى أميرهم سامان خداه، أى كبير قرية سامان وصاحبها

و قد اعتنق أحد السامانيين الإسلام أثناء خلافة الأمويين، وسمى ابنه أسدًا، كاسم حاكم خراسان في عهد هشام بن عبد الملك، واسمه أسد بن عبد الله القسرى ، وطال العمر بأسد السامانى حتى أدرك المأمون، فذهب إليه في مرو، قبل انتقاله إلى بغداد في الفترة من سنة ١٩١ هــ = ٨٠٩م إلى سنة ٢٠١ هــ٨١٧ = م، ومعه أبناؤه الأربعة: نوح وأحمد، وإلياس، ويحيى، فاحتفي بهم المأمون وألحقهم بخدمته و بعد انتقال المأمون إلى بغداد أمر بإسناد عمل إلى كل واحد من أبناء أسد السامانى، فتم إسناد حكم سمرقند إلى نوح، وحكم فرغانة إلى أحمد، وحكم الشاش إلى يحيى، وحكم هراة إلى إلياس، فكان هذا مقدمة لتمكن نفوذ السامانيين في هذه المناطق المعروفة باسم بلاد ما وراء النهر نهر جيحون و قد برز أحمد بن أسد حاكم فرغانة على إخوته، وكان له سبعة أبناء هم نصر ويحيى ويعقوب وإسماعيل وإسحاق وأسد وحميد، وعند وفاته سنة ٢٥٠هــ٨٦٤ = م حل محله ابنه الأكبر نصر، ودان له باقي إخوته بالطاعة والولاء وفي سنة ٢٦١ هــ = ٨٧٥م حدَث التحول الحاسم في تاريخ السامانيين، حينما أسند الخليفة المعتمد على الله ولاية جميع بلاد ما وراء النهر إلى نصر بن أحمد بن أسد السامانى، فأقام نصر في سمرقند، وعين أخاه إسماعيل نائبًا عنه ببخارى وعهد إلى كل أخ من إخوته الباقين بحكم إحدى الولايات، مما يمكن معه اعتبار عام ٢٦١ هــ = ٨٧٥م بداية تكوُّن الدولة السامانية. وعقب وفاة نصر بن أحمد في سمرقند عام ٢٧٩هــ = ٨٩٢م ضم أخوه إسماعيل سمرقند إلى ملكه، وأصبح هو الحاكم الأعلى لكل بلاد ما وراء النهر؛ لذلك يرى بعض المؤرخين أن إسماعيل بن أحمد بن أسد السامانى هو المؤسس الحقيقى للدولة السامانية؛ حيث خضع له سائر الأمراء السامانيين، ووسع حدود الدولة، فضم لها خراسان ومعظم البلاد التي كانت خاضعة لنفوذ الدولة الصفارية وبلغت الدولة السامانية قمة مجدها في عهده من ٢٧٩–٢٩٥هــ = ٨٩٢– ٩٠٨م ثم في عهد حفيده نصر بن أحمد بن إسماعيل٣٠١ –٣٣١ هــ = ٩١٣ – ٩٤٣م وبدأت الدولة السامانية تتدهور منذ عهد نوح بن نصر ٣٣١ – ٣٤١ هــ = ٩٤٣ – ٩٥٤م، حتى سقطت في يد الغزنويين سنة ٣٨٩هــ = ٩٩٩م.و قد كانت الدولة السامانية ملتزمة بمذهب أهل ال سنة، وكانت علاقتها بالخلافة العباسية علاقة احترام وإجلال؛ حيث كان أمراؤها يعدون أنفسهم نوابًا عن الخليفة. وقد ازدهرت الحياة العلمية في عصر السامانيين، وكانت بخارى، وسمرقند تنافسان بغداد في مكانتها العلمية والأدبية، بسبب تشجيع الأمراء السامانيين للعلم وحبهم للعلماء، فقد سمح الأمير السامانى أبو القاسم نوح بن منصور نوح الثاني لابن سينا باستخدام مكتبة قصره، كما قام الطبيب والفيلسوف المشهور أبو بكر الرازى ٢٥١–٣١١ هــ = ٨٦٥–٩٢٥م بإهداء كتابه المعروف في الطب المنصورى إلى الأمير السامانى أبى صالح منصور بن إسحاق أمير سجستان وقد شهد الأدب الفارسى أيضًا عصره الذهبي خلال حكم السامانيين، وعاش الشاعر الفارسى المعروف الفردوسى شطرًا من حياته في عصر الدولة السامانية.

دولة بنى حمدان في الموصل وحلب ٢٩٣ ٣٩١ ـ هـ = ٩٠٦ ـ ١٠٠٢م

ينتمى الحمدانيون إلى حمدان بن حمدون بن الحارث من قبيلة تغلب، وقد ظهر نفوذ حمدان في شمال العراق سنة ٢٥٤هــ أثناء خلافة المعتز بالله، وتعاون مع خوارج الجزيرة في شمال العراق، واستطاع أن يسيطر على بعض المواقع الحصينة هناك، وأهمها قلعة ماردين،

كن الخليفة المعتضد بالله استطاع استردادها، وقبض على حمدان وسجنهتعهد حسين بن حمدان بالطاعة والولاء للخليفة المعتض وساعده في حربه ضد الخوارج حتى هزمهم، فقربه الخليفة وعفا عن والده حمدان بن حمدون و في خلافة المكتفي بالله ٢٨٩ – ٢٩٥هـــ = ٩٠٢ – ٩٠٨م تعاظمت مكانة حسين بن حمدان وقام بدور بارز في الحرب ضد القرامطة وفي الحملة التي جهزها العباسيون لاسترداد مصر من يد الطولونيين في سنة ٢٩١ هـــ = ٩٠٥م .و قد شارك حسين بن حمدان في المؤامرة الفاشلة التي دبرها أنصار ابن المعتز لخلع المقتدر، وهرب حتى عفا عنه المقتدر وأسند إليه ولاية بعض البلاد وأهمها ديار ربيعة بالجزيرة سنة ٢٩٨هـــ = ٩١١م، إلا أنه حدث بينه وبين على بن عيسى وزير المقتدر نزاع انتهى بالقبض عليه، وقتله في سجنه سنة ٣٠٦هـــ = ٩١٨م.و رغم أن حسين بن حمدان كان من أعظم الأمراء بأسًا وشجاعة، وكان أول من ظهر أمره من ملوك بنى حمدان فإن أخاه أبا الهيجاء عبد الله بن حمدان كان أعمق تأثيرًا وأوسع نفوذًا في تاريخ الأسرة الحمدانية، وقد ولاه الخليفة المكتفي إمارة الموصل وتوابعها سنة ٢٩١ هـــ = ٩٠٦م، ويعد أبو الهيجاء عبد الله بن حمدان المؤسس الحقيقى لمملكة الحمدانيين في الموصل، التي ظل حاكمًا لها إلى أن قتل سنة ٣١٧هـــ = ٩٢٩م عقب اشتراكه في المؤامرة الفاشلة لخلع الخليفة المقتدر، وقد خلفه ابنه حسن الملقب بناصر الدولة، واستطاع أن يمد سلطانه على أقاليم الجزيرة الثلاثة ديار ربيعة، وديار مضر وديار بكر، بإذن من الخليفة الراضي، حتى أقعدته الشيخوخة، فخلفه على الحكم ابنه فضل الله أبو تغلب الغضنفر سنة ٣٥١ هـــ = ٩٦٤م و قد دخل ناصر الدولة وابنه أبو تغلب الغضنفر في صراع طويل مع البويهيين، أصحاب السلطة في العراق منذ سنة ٣٣٤هـــ = ٩٤٥م، وانتهى هذا الصراع بهزيمة أبي تغلب الغضنفر أمام عضد الدولة البويهى سنة ٣٦٨هـــ = ٩٧٩م، وانتهت بذلك مملكة الحمدانيين في الموصل والجزيرة أما الدولة الحمدانية في حلب، فقد أسسها على بن أبي الهيجاء عبد الله بن حمدان، الملقب بسيف الدولة؛ حيث استطاع بمعاونة أخيه الأكبر ناصر الدولة انتزاع حلب من الإخشيديين سنة ٣٣١ هـــ = ٩٤٤م، ثم استطاع بعد ذلك أن يبسط سلطانه على حمص وقنسرين والعواصم وبعض بلاد الجزيرة سنة ٣٣٦هـــ٩٤٧ = مو قد قام سيف الدولة الحمدانى بمهمة جليلة أثناء حكمه الذي استمر حتى سنة ٣٥٦هـــ = ٩٦٧م، وهى حماية حدود دولة الخلافة من غارات الروم البيزنطيين المتواصلة، بعد أن ضعفت الخلافة المركزية عن القيام بهذه المهمة المقدسةوكان سيف الدولة الحمدانى أديبًا شاعرًا، فجمع حوله العلماء والأدباء، مثل أبي نصر الفارابى، وابن خالويه، وأبي الطيب المتنبى، وأبي فراس الحمدانى وابن نباتة والسَّرىّ الرَّفَّاء، وغيرهم و تُوفي سيف الدولة سنة ٣٥٦هـــ = ٩٦٧م، وخلفه في الحكم ابنه أبو المعالى شريف المعروف بسعد الدولة، وضعفت في عهده سلطة الحمدانيين في الشام؛ لكثرة الضغوط التي تعرض لها من البيزنطيين والبويهيين في العراق، والفاطميين في مصر بغرض الاستيلاء على الشامو تُوفي سعد الدولة سنة ٣٨١ هـــ = ٩٩١م، وتولَّى بعده ابنه أبو الفضائل سعيد الدولة، الذي تعرض لضغوط الفاطميين المتزايدة لضم الشام إلى مصر، فتحالف مع البيزنطيين لصد هجمات الفاطميين عليه، ثم انتهت إمارته بمقتله سنة ٣٩١ هـــ = ١٠٠٢م على يد وزيره لؤلؤ الحاجب، وانتهت بذلك الدولة الحمدانية في الشام الذي أصبح خاضعًا لسلطان الفاطميين وقد كان الحمدانيون يميلون إلى التشيع، وكانت علاقتهم بالخلافة العباسية تتأرجح بين الرضا، والسخط، والتوجس.

دولة بنى بويه قبل انتقالها إلى بغداد

ينتسب البويهيون إلى أبي شجاع بويه الذي نشأ في بلاد الديلم التي تقع جنوبى غربى بحر قزوين أو بحر الخزر بين منطقتى طبرستان والجبال .وكانت هذه البلاد معقلاً لنفوذ العلويين، فانتشر فيها التشيع ورغم أن أبا شجاع بويه كان فقيرًا فإنه كان يتحلى بروح المغامرة والشجاعة، كما تشرب الروح الشيعية التي كانت سائدة في بلاد الديلم و قد انضم أبو شجاع إلى العلويين في صراعهم مع السامانيين، ومع ذلك فلم يكن هو المؤسس الحقيقى لأسرة بنى بويه، وإنما كان أبناؤه الثلاثة علي، وحسن، وأحمد هم الذين قاموا بذلك، فقد التحق أبناؤه بخدمة ماكان بن كاكى أحد القواد البارزين المناصرين للداعية الشيعى الحسن بن على، الملقب بالأطروش، وأبرزوا تميزًا في خدمته فارتقوا من مرتبة الجنود إلى رتبة القادة، ثم حدث صراع بين ماكان ومرداويج بن زيار أحد القادة الفرس في

منطقة الديلم، وأحس أبناء بويه أن كفة مرداويج هى الراجحة في هذا الصراع، فانضموا إليه، فيما بين عامى ٣١٦و٣١٧هـ = ٩٢٨ و٩٢٩ م وكان ذلك بداية تمكن نفوذهم في فارس والمناطق المحيطة بها و قد ظهر بنو بويه –أو البويهيون– على مسرح الأحداث في أواخر عصر نفوذ الأتراك، فبدءوا منذ عام ٣٢١ هـ = ٩٣٣م يؤسسون لأنفسهم مناطق نفوذ تخضع لسيطرتهم التامة، فاستولوا على فارس، وشيراز وأصبهان، والرى، وهمذان والكرج وكرمان، وأغراهم ذلك على التطلع إلى مد نفوذهم إلى العراق موطن الخلافة العباسية و قد ساعدهم على ذلك تضاؤل النفوذ التركى، واشتداد الصراع على منصب أمير الأمراء الذي ابتدعه الخليفة الراضي بالله سنة ٣٢٤هـ = ٩٣٦م، مما أدى إلى تمزق الكلمة وضعف الجبهة التي يمكن أن تحمى دار الخلافة فلم يجد أحمد بن بويه أى صعوبة في دخول بغداد والسيطرة عليها بدون قتال في الحادى عشر من جمادى الأولى سنة٣٣٤هـ = يناير سنة ٩٤٦م